A M I R T A G E L S I R

كتابات
WRITINGS

أمير تاج السرّ

تحت ظلّ الكتابة





تحت ظلّ الكتابة

تحت ظلّ الكتابة / كتابات
امير تاج السرّ / مؤلّف من السودان
الطبعة الأولى، 2016







مكتبة كلّ شيء / حيفا

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال ابي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 11-5460، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
محمد سيد ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: **بلال خوّار / قطر.**
الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس** / بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-628-1



أمير تاج السرّ

تحت ظلّ الكتابة





شارع الغيطاني

قرأت مؤخرا ، أن محافظة القاهرة قررت أن تطلق اسم الروائي البارز جمال الغيطاني ، الذي يرقد في غيبوبة ، منذ أكثر من شهر ، على أحد الشوارع المهمة في منطقة الجمالية ، أولا اعترافا بفضل الغيطاني على الثقافة المصرية والعربية ، والمساهمة في نقلها إلى بعيد ، وثانيا لأنه عاش في المنطقة نفسها فترة من الزمن ، واهتم بتراثها ، واستوحى منها الكثير في أعماله .

مثل هذه المبادرات ، وإن كانت تأتي دائما متأخرة ، أي بعد أن يكون المبدع الرمز ، المراد تكريمه قد شاخ أو توعك أو رحل ، إلا أنها تعني الكثير جدا ، تعني أن تسمية الشوارع والقاعات الثقافية والتعليمية ، وكل المنشئات التي من المفترض أن تحمل أسماء ، لا ينبغي أن تكون حكرا على ساسة يأتون بطرق أو بأخرى ، ويذهبون سريعا ، بينما الأدب ، يظل باقيا لزمن طويل ، وتظل سطوته مسيطرة ، خاصة إن كان أدبا جيدا ومزدهرا ، وساهم في الارتقاء بالعقل والوجدان لمجتمع ما . وقد كتب جمال أعمالا كثيرة ، في الرواية والسيرة ، والمقال

الثقافي ، وفنون العمارة ، وشارك باسم بلاده في مئات المؤتمرات الثقافية ، هنا وهناك ، وكان وجوده في صحيفة «أخبار الأدب» ، لسنوات طويلة ، بعد أن أسسها ، وشارك في إدارة تحريرها الكاتب الفذ عزت القمحاوي ، سندا كبيرا للأصوات القديمة والشابة معا ، وكانت الجريدة التي تعد أول جريدة ثقافية كاملة ، من نوعها ، ملاذا للعديد من هواة الكلمة الجيدة ، والثقافة الراقية ، في جميع أنحاء الوطن العربي .

جمال يستحق أن يسمى شارع باسمه ، وأن تسمى قاعات ومكتبات يتم تداول الشأن الثقافي فيها ، وكذا يوجد كثير من الكتاب والشعراء ، وغيرهم من المثقفين العظماء ، في كل أنحاء الوطن العربي ، يستحقون فعلا ، أن تنتزع لأسمائهم شوارع منحت من قبل لأشخاص لم يقدموا شيئا لمجتمعهم ، لكنهم تمتعوا بالصيت ، الذي أدخلهم لوائح تسمية الشوارع ، والمعاهد التعليمية وغيرها . ولو أنصفت الثقافة بالفعل في كثير من البلدان ، لربما لذاب كثير من السلوكيات السلبية ، ولما احتل العنف ، ذلك المكان المرموق الذي يحتله الآن ، في غياب كل ما من شأنه أن يهذب الوعي .

ولطالما نادينا بتسهيل مهمة الكتاب من طباعة ونشر وتوزيع ودعم كامل ، حتى يشق طريقه إلى العقول بسلاسة ، ونادينا بالتوسع في إنشاء المكتبات قرب الشواطئ والحدائق العامة ، والأماكن التي فيها ساعات انتظار لا بد منها ، وتزويد المدارس

بالكتب المنتقاة التي يسهل هضمها والتفاعل مع موادها .

منذ سنوات عدة ، وقبل وفاة الكاتبة الجنوب أفريقية ، الحاصلة على جائزة نوبل للأدب ، نادين غورديمر ، قامت دولتها بوضع صورتها على عملة ورقية متداولة . كان خبرا جيدا فعلا ، وأعتقد أن كثيرين مثلي طربوا له آنذاك ، فالكاتبة التي استلمت الجانب المشرق لدولتها التي كانت عنصرية لزمن طويل ، قبل أن تتعدل ، تستحق بالفعل أن تكرم ، وأن توضع صورتها على عملة ، واسمها على شارع مهم ، وأن يكون ما حصلت عليه بمثابة باب ، ستليه ساحة كبيرة ، تضم الكثيرين من أبناء بلادها ، وحين مات غابرييل غارثيا ماركيز ، ومعروف من هو ماركيز ، تم تكريمه بوضع صورته على العملة الورقية ، فئة مئة بيزو ، في بلاده كولومبيا . هذا أيضا كان حدثا كبيرا ، حين تألقت العملة بوجه ماركيز الهادئ المبتسم ، أو الذي تخيلته مبتسما من كثرة ما شاهدت ابتسامة الرجل ، لكن في اعتقادي أن تكريم ماركيز كان متأخرا جدا ، مقارنة بما قدمه على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان ، أصبح خلالها إحدى ركائز الخيال المهمة ، وأحد مراجع الكتابة الجميلة الجيدة ، وشخصيا كنت أتوقع أن يكرم بأكثر من ذلك وفي فترة نشاطه الكبير ، حين كان يكتب الرواية ، ويكتب المقال السياسي والاجتماعي ، بأدوات الرواية نفسها ، ويمتع الناس . ولو قرأنا فقط كتابه المسمى «حادث اختطاف» ، الذي كان

إدانة لتجارة المخدرات ، التي أرعبت بلاده زمنا ، جاءت بأسلوب سلس وشيق ، لكان ذلك كافيا لأن يمنح كل تكريم ممكن .

أعتقد شخصيا ، أن الكاتب أو المبدع عموما ، مثله مثل أي كائن بشري ، يحب أن يرى بصماته التي أخلص في صياغتها لزمن طويل ، مرسومة أمامه ، أن يرى صورته التي ترمز لإبداعه ، لا وجهه فقط ، مطبوعة على أوراق العملة ، ولو أمكن على دفاتر الكتابة التي يستخدمها التلاميذ ، وبلا شك يحب أن يمر بشارع يحمل اسمه ، ويجلس في مقهى ربما يشيده أحدهم في ذلك الشارع . ومن الأشياء اللافتة ، في مسألة تقدير الإبداع ، أن هناك من يقدره على المستوى النظري ، بمعنى أن شخصا ربما لا يكون يقرأ أو يكتب لكنه مغرم برموز مثل نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم والعقاد ، ويتحدث عنهم بما سمعه من الذين يعرفونهم ، بوصفهم مدعاة للفخر ، وأذكر أنني تعشيت مرة ، برفقة الصديق المبدع عزت القمحاوي ، في مطعم في القاهرة ، وكان يضع صورا لضيوف كثيرين ، أكلوا على موائده ، ذات يوم ، وكان فيهم أدباء وعلماء ومغنون وممثلون ولاعبو كرة . وقد شاهدت صورا لأحمد زويل ، ونجيب محفوظ نفسه ، والطيب صالح والبياتي ، وغيرهم . إنه احتفاء طيب بأولئك المشاهير ، لكنه احتفاء نظري كما قلت ، قطعا ينتهي حين يغلق ذلك المطعم أبوابه ذات يوم .

نحتاج بشدة إلى تفعيل أدوات الاحتفاء ، وفي أوقات

عطاء المبدع الكثيف ، وقبل أن يتعقبه الزمن وينال منه ، ورأيي أن وضع جوائز بأسماء مبدعين ، وهم أحياء وواعون ونشيطون ، وإشراكهم في اختيار الفائزين بها ، أمر حيوي هو الآخر ، وربما يعادل معنويا ، أن يرى المبدع صورته على عملة أو اسمه على شارع مهم يستخدم بكثافة . وأتمنى أن ينهض الغيطاني من تأمله العميق هذا لنحتفل معه بشارع الغيطاني .

سيرة الست زبيدة

من الكتابات التي أعتبرها مهمة للغاية ، وتضيء كثيرا من العوالم الغامضة ، تلك التي تتحدث عن بيئات غير معروفة ، أو تأتي في شكل سيرة ممتدة لشخصية تعيش في مكان ما ، وتجتذب مفردات البيئة من حولها ، وكذا نلم بما كنا نجهله ، من دون أن تضطرب الشخصية أو يضطرب حكيها ، أو تتوه القصة عن الذهن .

انطلاقا من ذلك ، كانت معظم روايات الكاتب الليبي إبراهيم الكوني عن الصحراء مهمة ، رواية مثل «سلطانات الرمل» للسورية لينا هويان الحسن ، مهمة ، روايات إبراهيم إسحق عن منطقة دارفور في غرب السودان ، مهمة ، وروايات الكتاب الأجانب عما شاهدوه ، وعرفوه في الصحارى ، والبيئات العربية المختلفة ، مهمة جدا ، لأنها توثق عالمنا بنظرات مختلفة تماما .

والآن ومنذ وقت قريب ، نشرت الكاتبة الفلسطينية التي تقيم في مونتريال في كندا ، نوال حلاوة ، روايتها الملحمية «الست زبيدة» ، لتنضم إلى روايات المعرفة تلك ، ولتأتي في

شكل سيرة ، أو مجموعة سير ، توثق للأسى الفلسطيني قبل النكبة وبعدها ، بخلفية ناعمة ، هي خلفية الست زبيدة ، بطلة الحكاية الأم ، وحاملة حبل الحكي ، تقطعه حينا وتعيد ترتيقه ، ونظل نتتبع ما يحدث .

منذ البداية ، ومنذ الصفحات الأولى للرواية ، أحسست بأنني أمام سيرة روائية ، ربما هي سيرة المؤلفة نفسها ، وربما هي سيرة متخيلة لشخصية عاشت في الزمن والظروف نفسها ، ولن تكتب سيرتها إلا بهذه الطريقة .

كانت يافا هي المكان الأول ، مكان المولد ، مكان الشهقة الأولى والدهشة الأولى ، الذي لا بد سنتعرف إليه جيدا ، عن طريق تلك البطلة الصغيرة ، التي لم تسم زبيدة أو الست زبيدة ، بلا هدف ولكن نتيجة رؤيا حلمية من والدها التاجر ، ولإعجابه الشديد بزبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وكيف شهد زفافها إليه في الحلم ، واضطرب من فخامته واستيقظ بعد ذلك على أنين زوجته التي كانت في لحظة المخاض ، حيث ولدت زبيدة في ذلك اليوم .

إنها فقرة من مصادفات الحكاية ، أن تشاهد رؤيا حلمية لشخصية ما ، وتولد في اللحظة نفسها أو في اليوم نفسه ، أنثى ستحمل اسم تلك الشخصية كما كان يتمنى والدها ، لكنها مصادفة مشروعة بلا شك ، ولطالما كانت في الروايات مصادفات كثيرة ، أشد غرابة .

لقد اعتمدت المؤلفة اسم زبيدة الذي يبدو لي غير مألوف في منطقتها، وربما أيضا لم يكن عصريا، في زمن ولادة الست زبيدة، أو الساردة. ولا صيحة من صيحات الموضة كما يحدث لبعض الأسماء حين تقفز فجأة، من ركود طويل لتصبح موضة يسميها الجميع، كما يحدث في هذه الأيام بعودة أسماء مثل آدم وحواء إلى السيطرة على أسماء المواليد الجدد. لذلك أسهبت المؤلفة كثيرا وأفردت صفحات عدة، لتعطي الاسم الغريب مبررا كافيا، حتى يمر إلى أذهان القراء، ولم يكن ذلك مطلوبا في رأيي، فقد مر الاسم سلسلا وكان مناسبا جدا للشخصية المرسومة ويشبهها كثيرا، ولطالما ذكرت في كتابات لي من قبل، أنني أؤمَن بأن الأسماء تشبه الشخصيات في الكتابات الحقيقية والمدهشة، ورواية السيدة زبيدة منها.

قلت إننا عن طريق تلك البطلة الطفلة، التي ولدت كأول فتاة وسط صبيان البيت، استطعنا تتبع عشرات الحكايات، بعضها يرويها الأب التاجر، الذي يسافر كثيرا ركضا وراء تجارته، وكان يصطحب معه الراوية دائما، بوصفها جالبة الحظ عنده، وأيضا يستشيرها في بعض الصفقات ودائما ما يكسب بمشورتها. بعض الحكايات ترويها الأم التي عكفت على الإنجاب بغزارة، وتوزيع الأمومة على صغارها باجتهاد ودأب، من دون تدخل في عمل الأب أو حتى مجادلته في أي شأن من شؤون الأسرة إلا نادرا، حين كانت لا ترضى اصطحابه

لطفلته في أسفاره المضنية من أجل التجارة . العمة التي أقامت مع الأسرة فترة ، لها حكايتها المؤسفة التي ترويها باستمرار مواز لحزنها على ولد مات من سقطة فرس في زمن بعيد . الجدة تروي ما استطاعت له من التاريخ ، والعم يروي ، وكذا معظم من تلتقيهم في النص ، يروون ، وتنفلت الحكاية من لسان للسان آخر ، يروي للبطلة ، وهي توزع الأدوار وترتب الحكايات .

الذي حدث وكان جيدا للغاية ، أن تقاليد فلسطين القديمة ، بكل ما فيها من جمال أو غير ذلك ، كانت موجودة في الرواية ، ويمكننا ملاحظة نموذج واضح للمجتمع العربي آنذاك ، حين كانت المرأة لا أحد في أوقات كثيرة ، وحتى الميراث الشرعي لم يكن يوهب لها من إخوتها الرجال .

نتعرف جليا ، على الأكل والشرب وعادات الولادة والأعراس ، ونتعرف على الحرب التي نشبت واللجوء وفقدان الاستقرار الذي حدث ، وتأتي سنوات النكبة ، ليفقد كل ذي حق حقه ، ولتضيع تجارة الأب وتضيع أحلام أسرته الكبيرة التي كونها بتأن ، وينضم الجميع إلى سكك اللجوء الصعبة التي لن تؤدي بهم إلى استقرار جيد كما كان .

رواية «الست زبيدة» ، أو «سيرة الست زبيدة» ، كما ذكرت في البداية ، كتبت بتأن في رأيي ، لا لتحكي أحداثا معينة حدثت في زمن مختصر وينتهي الأمر ، ولا لتصف سيرة امرأة اضطلعت بدور الحكي ، وتلقف الحكي من آخرين وإعادة

حكيه ، في كتاب ملحمي ، بل لتصف بلادا كبرى منكوبة ، تصفها بكل ما فيها وما كان فيها وضاع ، مثل ذلك البيت العتيق الحامل لكل الذكريات ، الذي تحرص البطلة على تفقده عند عودتها بعد هجرة طويلة ، لتجده قد انتهى ، لكن في المقابل ، تجد الأزهار التي غرستها ما تزال موجودة وتحييها .

لن أتحدث عن لغة استعارات أو غموض مجازي ، فالقصة السيرة ، حدثت ببساطة شديدة في الواقع كما أتصور ، وبذلك لن يكون تنقلها على الورق إلا بتلك البساطة ، ولطالما نوهت بأن أي عمل له توابله الخاصة به ، والتي ليست بالضرورة توابل حارة أو حارقة .

«الست زبيدة» كانت بتوابلها البسيطة ، مشبعة إلى حد كبير .

أرواح المكتبات

حقيقة أحس بانجذاب كبير نحو الطريقة التي يدون بها الكاتب الأرجنتيني ألبرتو مانغويل، أفكاره عن القراءة والكتابة، سواء في تلك المحاضرات التي يشارك بها هنا وهناك، أو في الكتب التي يصدرها تباعا، وباتت الآن تترجم للعربية بسخاء، ويستطيع المتلقي العربي أن يعثر بداخلها على ما أسميه ابتكارات مانغويل وحيله لقراءة جادة.

في كتابه «المكتبة في الليل» يواصل الأرجنتيني، الإبهار بأدواته المبتكرة ويقدم لنا المكتبة بوصفها كائنا حيا يتنفس بأرواح الكتب التي تسكنها. ويمكن لقارئ الليل خاصة، أن يصادف كثيرا من تلك الأرواح أثناء وجوده في المكتبة، لكنه لا يراها. سيصادف روح شكسبير في «تاجر البندقية»، وروح همينغواي في «الشيخ والبحر»، وروح دستويفسكي وتولستوي وسارتر في تلك الكتب التي أبدعوها ورحلوا، لكنها باقية حية، تتحدث نيابة عنهم، وتمشي بين الناس بخطواتهم، وتخرج للقارئ في الليل من أجل أن تقضي وقتا طيبا.

إنه خيال الكتابة الذي طالما تحدثت عنه بوصفه الأداة التي

لا تشيخ ، ولا تضل الطريق إلى أهدافها أبدا ، ما دامت تستخدم مع الموهبة ، فلن يشدني على الإطلاق كتاب يقول إن المكتبة مجرد رفوف عامرة بالكتب المختلفة ، وفيها كذا رواية وكذا كتاب تاريخي ، وكذا كتاب في الفلسفة ، وأن القارئ يحتاج للهدوء كي يطالع تلك الكتب . إنه وصف كلاسيكي ، تعليمي بالطبع ، لكنه ليس الوصف المبهر الذي يجعلني أواصل القراءة . وأواصلها حين يوحي إلي المؤلف أنه معي في كتابه هذا ، ويتحدث بلسانه الشخصي عبر الصفحات التي أطويها صفحة إثر صفحة .

القراءة عند مانغويل ، طقوس متشعبة ، وكثيرة وينبغي الالتفات إليها كلها من أجل قراءة ممتعة ، وأعجبني تعريفه عن الفرق بين القراءة والتعلم . ففي التعلم يأتي القارئ حازما وجامدا ، وفي عقله مساحة أخلاها خصيصا ، ليستوعب بداخلها المعرفة التي سيكتسبها مجبرا ، شاء أم أبى ، وفي القراءة من أجل القراءة ، يأتي الشخص بذهن مكتظ بكل شيء ، ولا نية لاكتساب معرفة . لكنه رغم ذلك وفي لحظات نشوة ما ، يكتسب شيئا جديدا ، يتخذ مكانه في الذهن المكتظ بلا تعب . هذه خلاصة ما فهمته من الفرق بين القارئين ، وحين عدت لطريقتي في قراءة الكتب العلمية ، والكتب الأدبية ، اكتشفت بالفعل أن هناك جدية وحزما في تلقي العلم ، وثمة فوضى في تلقي الأدب ، لكن أيضا ثمة

معرفة ، ستدخل الذهن لا محالة .

يقول ألبرتو مانغويل إن المكتبات القديمة ، كانت مشاريع جادة ، أنشأها الأباطرة والحكام كنوع من اكتساب الريادة ، فقد كلفوا النساخ والمكتبيين بالبحث والفهرسة ، وتشييد المعرفة بجميع أنواعها ، معرفة الطب والزراعة والصناعة والعمارة وعلم الفلك ، وغيرها من العلوم . ويقول إن مكتبة الإسكندرية التي شيدها البطالسة ، كانت ربما سابقة لمكتبات الإغريق ، وإن حضارة الإغريق أخذت منها الكثير . هذا الافتراض ربما يكون حقيقيا ، إن عرفنا أن مكتبة الإسكندرية لم تكن كيانا هزيلا بأي شكل من الأشكال ، ولكن كل الوثائق التي تحدثت عنها وصفتها بالعملقة ، وأنها إحدى أشجار المعرفة المثمرة أبدا .

ماذا عن تنظيم المكتبات ، وفهرسة الكتب؟

في الواقع ، معظم الناس يملون من تنظيم فوضى المكتبات ، داخل بيوتهم ، والمكتبيون الذين توظفوا في مكتبات عامة ، يحسون بإرهاق شديد حين يعيرون أحدا كتابا طلبه ، وحين يستلمون كتابا انتهت إعارته ، وحين يفقد كتاب لم يرده من استعاره . ويقول مانغويل إن أفضل المكتبيين ، أي أمناء المكتبات ، من كان بلا هواية اسمها القراءة . فالمكتبي القارئ يتحيز لرف أو كتب معينة ، قرأها وتذوقها ، وينفر من رفوف أخرى بها كتب لم تدخل تذوقه ، وهكذا ثمة تناغم ومودة في إعارته للكتب التي يحبها ، وتأفف وضيق حين يعير الكتب

التي لم تدخل تذوقه . هذا رأي بالطبع يحتمل اعتباره رأيا صادقا ، أو رأيا نظريا تخيليا ، فأمناء المكتبات الذين أصادفهم ، أثناء استعارتي للكتب عادة ، يبدون لي آليين في تعاملهم مع الجمهور ، يعيرون الكتب بآلية مطلقة ، ويتلقونها بعد انتهاء استعارتها بالآلية نفسها .

وبخصوص تنظيم المكتبات المنزلية ، فكما هو معروف فإن الأجيال الناضجة السابقة للجيل الناضج الحالي ، كانت أجيال قراءة نهمة ، لأن لا ترفيه سوى ترفيه القراءة آنذاك . وكان الكتاب الذي يصدر في أي مكان ، يذهب إلى كل الأمكنة ، ويمكن للنسخة الواحدة أن تدور على مئة شخص وتعود إلى صاحبها ، وهكذا . وكان المحظوظون مَن استطاعوا تكوين مكتبات في البيوت ، من كتب جمعوها من هنا وهناك ، إما شراء وإما هدايا . وأذكر أنه كانت في بيتنا مكتبة متوسطة ، فيها مئات الكتب ، وشخصيا لا أذكر كيف تكونت ، وكيف تمت فهرستها ، لكنها موجودة ، وما زالت إلى الآن في المكان نفسه الذي أنشئت فيه ، وهو جانب من صالون البيت ، وإن كان عدد رفوفها قد زاد ، وسكنتها إصدارات حديثة لم تكن موجودة أيام والدي .

مانغويل يؤكد في هذا الشأن أن المكتبة العظيمة ، حتى ولو ضمت كتبا قليلة ، تضم معها ذكريات شتى ، ذكريات الشراء والقراءة الأولى لكتاب ما ، ورد الفعل على كتاب معين قرأه

صاحب المكتبة ذات يوم . هذه الذكريات قد تشمل ساحة ربليكا في وسط روما ، وكشك الكتب المستعملة في وسطها والبائع العجوز الذي اشتريت الكتاب منه ، والتقطت معه صورة . قد تشمل شارع أوكسفورد في لندن ، حين كنت تجلس على مقهى ، تقرأ رواية لجون غريشام ، واندلقت القهوة فجأة على قميصك . تذكر أنك كنت تحمل هذا الكتاب في بيروت ، فسقط المطر فجأة ، وأتلف صفحات عدة منه . وهكذا تتوالى الذكريات مع تقليبك للكتب ، وقراءة الإهداءات المكتوبة على الصفحات الأولى لبعضها ، وربما تضحك لأن المؤلف كان صديقك وكان يحب الضحك ، أو تبكي لأن الشاعر العظيم الذي صادقته ذات يوم ، وأهدى إليك الديوان ، مات وهو يقرأ قصيدته على مسرح شعري .

بهذا الافتراض ، عدت إلى مكتبتي المتخمة بالفوضى ، والتي تحتاج قطعا لإعادة تنظيم من أجل أن يصبح منظرها جاذبا في البداية ، ومن أجل سهولة الحصول على كتاب عند الحاجة ، أمسكت ببعض الكتب التي كانت إما محشورة في الرف لن يستطيع أن يراها أحد ، وإما بارزة وتغطي غيرها ، وبدأت أقلبها ، وكانت ثمة ذكريات ، لن يعتبرها المرء ذكريات مهمة ، إلا بخيال ألبرتو مانغويل : كتاب تاريخي اسمه «السيف والنار» ، عن مذكرات الجنرال النمساوي سلاطين باشا الذي كان موجودا أيام الثورة المهدية في السودان ، تذكرت أنني بحثت عن

هذا الكتاب في معظم مكتبات الخرطوم ، في نهاية ثمانينيات القرن الماضي ولم أعثر عليه ، ثم عثرت عليه في مكتبة صغيرة في الدوحة ، واستغربت فعلا . كتاب باللغة الإنجليزية ، اسمه «بيوت الديكتاتوريين» ، لفت انتباهي في مكتبة عادية ، في مدينة «استوك أون ترنت» في بريطانيا ، وقرأته في يوم واحد ، لأفاجأ بجمال وأناقة بيوت الديكتاتوريين ، وكيف كانوا يحتفلون بالمناسبات ، ويدعون الضيوف ويقدمون الأشياء الفاخرة ، من أكل وشراب ، ولا رائحة لدم ، من ذلك الذي يراق خارج بيوتهم ، أو صوتا لعظم يتهشم في الشوارع بفعل قراراتهم . رواية «خزي» للجنوب أفريقي كويتزي ، التي تتحدث عن أستاذ جامعي ، ينخرط في علاقات جانبية بطالباته ، ويخسر مهنته ، وموقعه في المجتمع ويذهب إلى ريف بعيد . وضحكت حين تذكرت أن فتاة أعرفها وكانت قارئة عظيمة ، أرسلتها لي منذ عشر سنوات وكتبت على الصفحة الأولى للكتاب : «لقد خجلت من إكمالها ، إن كنت لم تقرأها بعد ، ربما تكملها بعدم الحياء الذي يملكه الرجال» . ولكن ما آلمني حقيقة أنني عثرت على كتاب لشاعر تراثي سوداني ، جمع بعد وفاته ، وأهداه إلي صديق كان يملك كشكا لبيع الكتب في مدينة بورتسودان بهذه الكلمة : «عزيزي الأمير . . محبة مني ، لا تنتهي» . لكن الصديق ذاك مات بعد إهدائه إلي ذلك الكتاب بعامين فقط ، وكان في الثامنة والثلاثين .

المكتبات النعمة ، والمكتبات النقمة : صفتان مترادفتان ، ربما تختصان بهما المكتبات ، فالمكتبة تكون نعمة حقيقية حين تمنحك الكتب والصدر الرحب ، وتكاد تكون قرأت معظم ما بداخلها ، وتكون نقمة حين تتحول إلى ديكور منزلي ، يضم في كل يوم كتابا جديدا ، لكن لا رغبة لأحد في طرق بابها ، وإزعاج أرواحها أو مؤانستهم . المكتبات كائنات حية كما يقول مانغويل ومن الجرم أن نقتلها في بيوتنا .

خامات الوجع

لا شك في أن صورة الطفل السوري البريء ، الذي غرق وأخرجه البحر في شواطئ أوروبا ، والتي انتشرت على كل ركن في الانترنت ، أبكت عيونا بلا حصر ، وهزت ضمائر بلا حصر ، ولدرجة أن كثيرين طالبوا بعدم تداولها ، احتراما للموت أولا ، وإشفاقا على الأحياء الذين لا ذنب لهم في اشتعال الحروب هنا وهناك ، وفي التشرد الذي يعقبها ، ولدرجة أن المغامرة بالأرواح والأطفال في هجرات قد تصدق وقد تخيب ، باتت أمرا عاديا ، وجزءا من الفعل اليومي ، في تلك البلاد التي لا يعرف أحد إن كانت ستفيق من الغيبوبة القسرية ذات يوم ، وتلم إلى أحضانها أهلها مرة أخرى ، أم لا؟

صورة الطفل تلك موجعة بلا شك ، بملابسه الجميلة الزاهية : الأزرق والأحمر ، وحذائه الصغير الذي لم يضيعه البحر ، وبهاء الطفولة ، حتى في رقدة الموت ، طفل لم تتكون أحلامه بعد ، ولن يستطيع أن يعرف أبدا معنى أن يذلك الوطن وحكامه ، ذلك الإذلال كله ، وتضيق عليك أرضه الواسعة ، وأن يخونك البحر ، كل هذه الخيانة ، لكنه يبقيك شاهدا ربما

أعمق شهادة كما لو كنت حيا وجائعا . إنها صورة تذكرني بصورة الطفل الفلسطيني : محمد الدرة ، الذي قتله الإسرائيليون أمام والده منذ سنوات طويلة ، وبقيت صورته ساعة الموت ، التي التقطها مصور صادف وجوده في تلك اللحظة ، واحدة من الصور المنهكة للضمائر ، وواحدة من القضايا الكبرى التي تناقلها الناس في كل مكان ، بالرغم من أن زمن الدرة كان زمنا آخر ، لم تنتشر فيه الانترنت بهذه الطريقة ، ولم تكن ثمة مواقع تواصل ، تتداول الفخر والعار على حد سواء كما يحدث اليوم .

وأيضا ذكرتني الصورة في ضخ الوجع ، بصور أولئك الأطفال المساكين في أفريقيا ، الذين يحولهم الجوع إلى هياكل قاحلة ، ووجوه تحمل ملامح سنين لم يعيشوها ، هي ملامح أمراض سوء التغذية المعروفة . وقد عملت من قبل في مناطق بعيدة في شرق السودان ، وشاهدت تلك الصور حقائق ملموسة ، شاهدت الكساح ، والعشى الليلي ، وكان مرض السل الرئوي ، هو أقسى ما كنا نواجهه ، لأن العثور على علاج مستمر ، يقضي على المرض ، كان مستحيلا ، فالدواء يأتي بسيطا ومتقطعا ، وبالتالي نحصل على بكتيريا ، تقاوم المرض ، ثم الموت في النهاية . بيد أن المرض الذي يشبه الحرب في شراسته ، يشبه الصراعات في إلغائها للإنسانية ، ويشبه البحر في هيجانه ، وشاحنة الدجاج تلك الممتلئة بالمهاجرين

السريين ، حين تضن بالهواء ويموت من بداخلها .

السؤال الذي يطرح نفسه وسط كل هذا :

هل لو رضيت الغابات والصحارى ، عن هجرة من يهاجر ، ولو سكت البحر ، غض الطرف ، ومرر قوارب الموت الصغيرة ، إلى شواطئ آمنة ، سيحصل الناس على حيوات مستقرة ورائعة؟

أي قراءة لتاريخ الدمار ، في الدنيا ، وتاريخ الفرار من الدمار ، توضح أن استعادة ما سبق من استقرار ، أو حتى الاقتراب منه ، أمر صعب للغاية ، فالذي كان يعمل في وظيفة جيدة ، ويعود إلى بيته في النهاية ، بالخبز والطعام ، ويستطيع أن يعلم أبناءه في المدارس ، ويداوي أسرته إن مرض أحد أفرادها ، لن يحصل على تلك المزايا في الغالب ، في بلاد ربما تستقبله ، وربما تشفق عليه قليلا ، ولا أكثر من ذلك . التاجر لن يعود تاجرا وحتى العامل البسيط ، لن يعود عاملا بسيطا في تلك البلاد التي غامر بالهجرة إليها ، ووصل بينما غيره لن يصل أبدا .

وقد تعرض الزميل الكاتب الإريتري ، أبوبكر كاهال في روايته : «تيتنات أفريقية» في إشارة لسفينة تايتنيك وغرقها المعروف ، والتي صدرت ترجمتها بالإنكليزية منذ عام تقريبا ، وأحدثت أصداء جيدة ، إلى تلك المحنة التي يخوضها الأفارقة ، حين ييأسون من بلادهم ، ويركبون البحر طلبا للحياة المتخيلة ،

أو الحياة الحلم ، ثم قد تغرق الأحلام ، ولا يصل منها حلم أبدا .

لقد شاهدت في زيارة لي إلى إيطاليا ، التي في الغالب تبدأ في شواطئها أولى خطوات الأحلام الناجية من هجرات شمال أفريقيا ، أو موت تلك الأحلام بغرق أفرادها ، شاهدت في الساحات العامة ، وأمام المتاجر شبابا ، يبيعون الحب الذي قد يطعمه السياح ، للحمام المتمركز في الساحات الكبرى ، شاهدت بعضهم يرسم جالسا على الأرض ، ويتلفت باستمرار خوفا من هاجس ما ، وجوها وأقنعة ، ولا شيء حقيقيا أو رائعا يستحق عليه النقود ، التي يتمناها من الناس ، وما أكثر الذين يحملون الغيتارات القديمة ، والطبول الرثة ، يعزفون عليها ويغنون بلا مواهب كبيرة أو صغيرة ، فقط هي حيل تدخل في طرق كسب العيش في بلاد ، ربما غضت الطرف عن وجودهم ، لكنها لا تملك حياة جيدة تقدمها إليهم .

وقد سألت رجلا من إحدى الدول الأفريقية ، اسمه بنيامين كما أذكر ، كان طويلا ، ومتناسق الجسم ، ويحمل صورا صغيرة ، مستنسخة لعصافير ملونة ، وآلات موسيقية ، ولوحات فنية معروفة ، يبيعها بسنتيمات قليلة ، عن مهنته قبل أن يركب مغامرة البحر ، ويأتي ، فقال إنه كان مساعد صيدلي ، يكسب راتبا لا بأس به ، لكن أحلامه اتسعت ، وبلاده ضاقت برغم رحابتها ، ولم تعد ثمة ثروة إلا وذهبت إلى سادتها ،

وهكذا كانت الهجرة، وكان التشرد، والهواجس التي تتبع، ولا دواء لها.

أعتقد أن الفساد أيضا، مرادف للحروب وللأوبئة، ومشرد للاستقرار بشدة، بمعنى أنه من وسائل ضيق العيش، وضيق البلاد، ومن محركات الأحلام الكبرى، ولعل قصة مساعد الصيدلي بنيامين، هي قصة ملايين غيره، لكن بتعديلات بسيطة، هناك أزمنة تأتي على الناس، يحسون بأن الهواء الذي يتنفسونه لا يملكون منه شيئا، وربما يأتي من يحاسبهم عليه.

قصة الطفل الغريق، لا أعرفها حقيقة، هل غرق أهله بأحلامهم أيضا أم نجوا؟ لكن فقط صورته، التي ما تزال تنتقل من صفحة إلى صفحة في بحر الانترنت العريض، خامة وجع كبرى، وحالبة دمع سيظل يهطل زمانا قبل أن يتوقف، وهزات الضمير تلك، ترى هل ستتوقف هي أيضا؟

جاذبية التهميش

منذ فترة سألني أحد القراء ، من المعتادين على سؤالي من حين لآخر ، عن أشياء كثيرة تخص الكتابة والقراءة ، وكان يكتب القصة القصيرة ، وسألني عن رأيي في الكاتبة الكندية المخضرمة أليس مونرو ، التي حصلت على نوبل للأدب منذ عامين ، ولم أستطع إجابته ، ذلك ببساطة أنني لم أكن قرأت شيئا لأليس مونرو ، ولا فكرت في قراءة شيء ، ولم أكن أقصد عدم قراءتها هي بالتحديد ، لكني ابتعدت عن قراءة القصة القصيرة منذ زمن ، بسبب ما نالها من تنكيل في السنوات الماضية ، بحيث أصبحت القصة القصيرة ، تبدأ مثلا بشخص يحك رأسه ، وتنتهي في السطر التالي بالشخص نفسه ، وما زال يحك رأسه ، وكتبت مرة عن تلك القصة التي وصلتني من كاتب لا أعرفه ، وكان عنوانها مكونا من ثلاثة سطور ، بينما هي في سطر واحد فقط .

لكن وتحت ضغط ما يشبه الإحساس بالجهل من عدم قراءة كاتبة مهمة مثل أليس ، بدأت أقرأ لها ، واكتشفت أن القصة القصيرة في عوالمها ، شديدة التوهج والجبروت ، وتستطيع إذا ما

مدت حبالها قليلا أن تصبح رواية غنية بالأحداث والتفاصيل ، أيضا يوجد لديها ما يسمى بالمتواليات ، بمعنى أن بطلة القصة تنتهي قصتها ، لتقلب الصفحة وتجدها في قصة أخرى ، فيها العوالم السابقة نفسها ، من شوارع وبيوت وأشخاص مؤثرين ، لكن الحكاية تختلف وهكذا .

اللافت أن أليس في ما قرأته حتى الآن ، تمسك بشدة بعالم المهمشين : العمال الفقراء ، الذين يسكنون بيوت الخشب والصفيح ، في الأحياء الفقيرة ، وأطراف المدن ، الذين يتحدثون بلغة الفقر في مأكلهم وملبسهم ، وتفاصيلهم الصغيرة والكبيرة ، والذين إذا تعلموا فإنما يتعلمون بمشقة في مدارس لا يهتم أحد إن كانت مؤهلة لاستقبال التلاميذ أم لا؟ إن كان من يدرسون فيها ، مدرسين حقيقيين أم هواة مستهترين ، سيقضون أوقاتهم في التثاؤب أو الصياح ، أو التحرش بالتلاميذ والتلميذات .

ولأن الكاتبة من جيل بعيد ، ألم بتفاصيل حقيقية لم تشوهها التكنولوجيا الحديثة ، ولا دخلتها شوائب من الإنترنت ، والهواتف المحمولة ، وحتى الكهرباء العادية ، أحيانا ، نستطيع أن نشم روائح المكان بسهولة ، الدرب الوعر يبدو وعرا مليئا بالحفر والأوحال بصدق ، الحصائر المتسخة في البيوت القذرة ، ستبدو كذلك ، وحتى وصف المراحيض العمومية ، في المدارس والأسواق ، سيبدو وصفا حقيقيا لما كانت عليه الصحة العامة في زمن ما ، ولو كتبت هذه القصص اليوم ، فقطعا لن

يكون الهامش المذكور فيها ، هو الهامش القديم نفسه ، فلا بد من تغير ، خاصة أن الكتابة عن بلد كبير ومتحضر ، وصناعي ، ومن بلاد الغرب الأشد جذبا للهجرة إليه من العالم الثالث المثخن بالفقر والحروب .

كتابة الهامش هذه ، عند أليس مونرو وغيرها من الروائيين حول العالم ، وحتى في البلاد العربية ، دائما ما تبدو للقراء أشد حرارة ، ودفئا كما لو كانت كتابة فاخرة عن الفخامة وتوابعها من قصور ويخوت وسيارات ، وأسفار مخملية هنا وهناك . دائما ما تشد تفاصيل البيوت الضيقة ، والأنفاس الحارة المتلاصقة ، والأفواه الجائعة وغيرها من أدوات رسم المأساة ، قراء أكثر ، وتعليقات أكثر في تلك المواقع التي تهتم بالقراءة ، وتقصي الإصدارات الجديدة .

بالطبع هناك من يفعل العكس ، أي يتفاعل مع كتابة الفخامة ، والمركز المزدحم بالعطور والمكياج ، والوسائد الناعمة أكثر ، لكن قصدت أن أغلبية من يتفاعلون ، يبحثون عن الهامش الدامي ، أو الهامش الذي سيصبح مأساة ، أيضا تجد معظم الروائيين ، وحتى لو لم يكونوا من سكان الأحياء الفقيرة ، أو سكنوها وترعرعوا فيها ذات يوم ، يبحثون عن تفاصيل تلك الأحياء ، وملامح سكانها ، ليكتبوها في قصصهم ، وبذلك يحصدون تعاطفا أكثر ، وتحصد شخصياتهم المأزومة ما يشبه العطف الكبير عليها ، وأن هناك من يتمنى لو قدم لها شيئا .

تفاصيل الهامش في رأيي الشخصي ، أكثر ثراء من تفاصيل المركز الثري ماديا ، بمعنى أن الثراء المادي هنا ، يتم تعويضه بالأحلام ، ومحاولات الحصول على موقع متميز في الحياة ، ومعروف بالطبع أن تفعيل الخيال ، في حد ذاته مادة خصبة توحي بالقصص ، فالعسكري المسكين الذي يقيم في حي النور الشعبي البعيد ، في مدينة بورتسودان ، مثلا ، ويذهب إلى وحدته محشورا في المواصلات العامة ، يستطيع بسهولة شديدة ، وبشيء بسيط من الخيال والخيلاء ، أن يبدو في وسط الحي جنرالا ، وبذلك فهو مادة ذات تفاصيل يمكن التقاطها ، وقد عرفت واحدا ، من سكان حي النور ، كان يعمل ساعيا بسيطا في مستشفى بورتسودان ، حيث كنت أعمل ، يصنع الشاي والقهوة ، ولا يبدو أكثر من أي شخص عادي بلا أي إيحاءات ، لكنني حين صادفته مرة في حيه ، كان مختلفا تماما ، كانت ملامحه كلها غطرسة ، مشيته بترفع ، وجيوبه محشوة بأدوية الأسبرين والبندول ، وحبوب الملاريا ، ويناديه الجيران بلقب : الدكتور .

إذن هنا ثمة خيال ، عمل هذا الساعي البسيط على تفعيله بقوة ، ووصل به بالفعل إلى درجة الطبيب التي لن تتحقق بالطبع على أرض الواقع ، ما لم يكن ثمة جهد يبذل وسنوات طويلة تضيع في الدراسة .

أيضا كتبت عن تلك المرأة عواطف ، التي عشقت عالم

الرجال، رغم أنوثتها الواضحة للجميع، وأنها كانت زوجة ذات يوم. حيث قصت شعرها، وارتدت الثوب والعمامة، وأطلقت على نفسها اسما ذكوريا كان منتشرا في حيها، ولا تسمح لأحد بمناداتها داخل الحي بغيره، لكن حين تذهب إلى وسط المدينة أو تضطر لتوجد في مكان تغشاه المرأة فقط، مثل أقسام النساء في المستشفيات، أو العزاءات داخل البيوت، فهي امرأة، بثياب النساء. هذه ليست شخصية مجنونة كما قد يعتقد من لا يعرفها، لكنها شخصية غنية، وتحتاج لمن يتغلغل في خيالها، صانعا منها مقاطع مدهشة.

في سياق الحديث عن الهامش الجاذب، أو البلاد الفقيرة الدامية، الجاذبة أبدا للقراءة والكتابة، أرى على سبيل المثال فقط، بلادا مثل أفغانستان، التي لم تنهض من كبواتها قط، من زمن احتلال الروس، إلى عهد الطالبان المتوحش، إلى زمن تحررها الذي لم يأت بأي ثمار. هذه البلاد كتبت كثيرا جدا، كتبت بأقلام أبنائها مثل: عتيق رحيمي، وخالد حسيني، وكتبت بأقلام غريبة استثمرت ضعفها وخرابها، والملاحظ أن كل ما كتب كان ناجحا على مستوى الكتابة والقراءة. «حجر الصبر» لرحيمي، رواية ناجحة، «عداء الطائرة الورقية» لخالد حسيني ناجحة، وحتى «سنونوات كابل»، الرواية التي لم أحبها لياسمينة خضرا، نجحت على مستوى القراءة.

إشراقات

من الأشـــيـاء المهـمـة التي ذكـرها الكاتب الأرجنتـيني المخضرم : ألبرتو مانغويل في كتابه الصغير الرائع : مع بورخيس ، الذي تحـدث فيـه عن الفـترة التي قـضاها مع سـاحـر القـصـة الكبـيـر : خـورخي لويس بورخـيس ، يقـرأ لـه الكتب بسـبب فقدانه البصر ، أن الكاتب الكبير كان طوال حياته ، يقرأ بلا أي تمييز ، يقرأ لمشاهير الكتابة في العالم ومغموريها على حد سواء ، ولا يستحي أن يستعين برأي لكاتب لا يعرفه أحد ، وأن يشيد بكتـابة شـخص آخـر ، مقـدمـا إياها على كـتابته الشـخصيـة ، ويمكن أن يشـترك مع كـاتب صغيـر وغير معروف ، في صياغة عمل شعري أو درامي ، وممكـن جدا أن يقضـي أمسيات طويلة ، يناقش أفكارا معينة مع كتّاب ، هو أستاذ لهم . وفي الفترة التي فـقد فـيـها بصره ، تحول إلى قـارئ أكـثر نهـمـا ، يحاول مطاردة المعـرفة عن طريق أصـدقـاء يأتون إلى شـقـتـه ، ليـقـرأوا له ما قـد يكون ضروريا .

هنا بالتحـديد ، ألتفت إلى ذلـك التقـدير العظيم الذي كـان يكنه بورخيس للمـادة الإبداعيـة بغض النظر عن كـاتبـها ، ما

جنسيته؟ وكم عمره؟ ، وهل له قاعدة قرائية عريضة ، أم لا؟ إلى آخر تلك المعوقات التي نلاحظها في تصرفات كثير من الكتاب والقراء .

فبعض الكتاب المعروفين مثلا ، لا يقبلون على الإطلاق أن يستضافوا في ملتقيات يشاركهم في إحيائها كتاب مبتدئون ، ودائما ما نجد أن الكتاب المبتدئين ، يحاولون اللجوء إلى من سبقوهم من أجل اكتساب الخبرة أولا ، ومن أجل البحث عن المساندة المعنوية ثانيا ، ولكن نادرا ما نجد كاتبا موهوبا ، أمسك بعصا مساندة مدها كاتب قديم ، وعبر بها إلى الانتشار ، لأن من النادر أن تمتد له العصا أصلا . وفي ساحات القراءة ، كذلك يصبح النقد قاسيا جدا ومتطاولا ، إن طال عملا غير متقن لكاتب معروف ، وبقلم شاب لا يعرفه أحد ، فلن يغفر الكاتب ذلك ، بينما كان بورخيس يرحب بما يقال عن نصوصه سلبا أو إيجابا ، ويمكن أن يناقش منتقديه للوصول إلى لحظة رضا عن نصه ، لا بد يريدها باقتناع الطرف الذي انتقده . فالكتابة مهما كانت جيدة ، ومتقنة ، وصادرة من كتاب سحرة كما أسميها ، لا بد تحمل بعض الجزيئيات المعطوبة أو فلنقل ، المكتوبة بإهمال غير مقصود ، وهذا ألاحظه كقارئ لكتابات الآخرين ، وقطعا يلاحظه من يقرأون كتابتي من الزملاء ، وحتى غابرييل غارسيا ماركيز ، الذي كان يتنفس إبداعا ، لم تسلم بعض نصوصه من تلك النقاط المعتمة ، وهكذا ومن أجل كتابة ثرية ،

وجيدة فعلا ، نحتاج لتواصل كبير ، بين الرؤى ونظرات التذوق المختلفة ، ونحتاج إلى أسفلت إبداعي متعدد المصادر ، لنردم به الثغرات التي تحتاج إلى ردم .

لو طبقنا منهج بورخيس الشفاف ، على كتابتنا العربية ، نجد هناك من ينتهجه بكل تأكيد ، فليس كل الكتاب العرب ، يضخمون أنفسهم بنرجسية مزعجة كما يردد البعض ، ولماذا أصلا النرجسية ، والتضخم ، واضطهاد كتابة الآخرين ، ولا يوجد عائد مادي أو أدبي ذو جدوى ، توفره الكتابة العربية؟ وحتى الصيت إن وجد ، فهو صيت محدود ، يظل أسيرا لجغرافيا محددة ، ومعروف أن الذي يكتب هنا ، إنما يكتب بنصف عقل ونصف ساعات عمل ، لأن نصف العقل الآخر ، موجود في طرق كسب العيش ، ونصف الوقت أيضا يبحث عن اللقمة ، ولن يتخلى عن البحث عنها حتى يرحل الكاتب ، وحتى الكتاب الظواهر ، الذين تحدثت عنهم كثيرا ، والذينَ قد توفر لهم الكتابة حياة جيدة جدا ، لا يمكنهم أن يغامروا بترك وظائفهم ، والاعتماد على الدخل الإبداعي ، أي أن هناك ثمة خوفا ، أن لا يظل الظاهرة ظاهرة دائمة ، وأن تأتي ظواهر جديدة ، تسحب سجاد الانتشار من تحته . وكنت قرأت حوارا مع كاتب باكستاني شاب ، يعمل محاسبا في مصرف ، حققت روايته الأولى أصداء كبيرة ، وجاءت بعائد مادي كبير ، ذكر فيه أنه لن يترك وظيفته ، ويتفرغ للكتابة ، في بلد ربما

يكرمك قراؤه مرة ، ولا يكرمونك بعد ذلك . ولا أظن أننا أفضل حالا من باكستان ، لنتبع طريقا آخر .

أعتقد أن المقاهي ، خاصة في مصر ، من الأماكن التي تذيب الفارق بين أجيال الكتابة المختلفة بسهولة ، وتضطر من أراد أن يتضخم بسبب العمر أو الشهرة ، أو النجاح ، أن يفكر كثيرا قبل أن يستخدم آليات النرجسية وتعابيرها . المقهى يقدم الشاي والقهوة ، والنرجيلة ، ويقدم الأجيال جيلا إثر جيل ، ولولا جبروت المقهى لما تعرفت شخصيا في بداية حياتي الكتابية ، إلى أباطرة حكائين ما كان يمكن التواصل معهم أبدا .

لقد سألني أحد القراء عن ورطات التواصل ، والمناقشات والاستماع إلى الرأي والرأي الآخر ، خاصة في مواقع التواصل الاجتماعي التي لا بد أن يتورط فيها الكاتب بصفحات ينشر فيها ما يريد نشره ، تماشيا مع متطلبات هذا الزمان .

كانت إجابتي ألا ورطة هناك على الإطلاق ، بل بالعكس فرصا طيبة لأن يختفي أي جفاء بين الكاتب وقرائه ، والكاتب وزملائه ، والكاتب ومن يقرأ لهم شخصيا ، ومهما يكن من سلبيات في الأمر من حيث أن ليس كل من يتواصلون مع الكاتب ، هم قراء أو مهتمون بالثقافة والأدب ، إلا أن الأمر يستحق تذوق الورطة والتواصل متى سمح الوقت ، وقد ذكرت طرائف عديدة مررت بها ، منها ما كان محفزا للكتابة ،

ويستحق أن أشاركه من يتابعني وأتابعه . فقط تبقى قمة الورطة ، عدم العثور على وقت كاف لمطالعة المخطوطات الأدبية التي يرسلها الباحثون عن رأي آخر قبل النشر ، من الأجيال الجديدة ، وكان يمكن أن تقرأ كلها ، لو كان الكاتب ، كاتبا فقط ، أي موظفا عند الكتابة ، يقرأها ويكتبها ويسافر ويستقر بها ، وتمنحه ما يسند الجيب .

نحن نحتاج إلى الكثير لتزدهر حياتنا الثقافية ، نحتاج أن نستوعب دروس بورخيس جيدا ، وفي الوقت نفسه ، أن يكون ثمة احترام وتقدير للمبدع ، وهو يتواصل مع أشخاص لا يعرفهم على الأرض ، فقد كان بورخيس محبوبا ومحترما ، أينما حل ، رغم ذوبانه في الناس والكتب ، ومنحه الآراء الإيجابية والسلبية في أعمال الآخرين ، بلا تضخم أو استفزاز .

الشخصيات من الخيال إلى الواقع

منذ فترة توفي سيف الدين هبشي ، وهو معمر في حوالي المئة ، من قرية كرمكول ، التي ولد فيها الروائي الراحل الطيب صالح ، وارتبط بها ارتباطا كبيرا ، أثناء وجوده في السودان ، قبل هجرته إلى إنكلترا .

وتناقلت بعض الصحف ووسائل الإعلام ، وفاة سيف الدين ، بوصفه آخر شخصية من شخصيات رواية «عرس الزين» ، التي صاغها الطيب في أواخر خمسينيات القرن الماضي ، مهتديا بمعطيات بيئة القرية بلا شك ، ومستوحيا بعض الأحداث التي طورها الخيال إلى حكاية تقرأ بشغف . وقد اعتاد الإعلام في السودان ، بعد وفاة الطيب ، أن يسافر من حين لآخر إلى تلك القرية التي اختلفت ملامحها بشدة بتغير الزمن ، حيث يقتحم بيت جدي محمد صالح ، والد الطيب ، الذي كان في منطقة أعلى قليلا من بقية بيوت أهلنا ، ولذلك بقي كما هو ، لم تدمره فيضانات النهر ، يبعثر تلك الكتب القديمة والرسائل التي تركها الطيب وأخوه القاضي بشير ، في صندوق كبير من الحديد ، ويلتقي ببعض أهل القرية ، طارحا

أسئلة عن الطيب وشخصياته ، وكلها ترمي إلى فكرة واحدة ، أن تلك الشخصيات الروائية ، كانت أو ما يزال بعضها موجودا في القرية ، ويمكنه أن يدلي بشهادة عن كتابة الطيب .

لقد شاهدت التلفزيون ، مستعينا ببعض أهل القرية ، يحاصر سيف الدين في شيخوخته ، يسألونه عن الطيب ولا يكاد يذكر شيئا عن الطيب ، يسألونه عن حادثة جرت وقائعها في رواية «عرس الزين» ، حين جرح سيف الدين ، داخل النص ، الزين بطل الرواية ، ويرد الرجل بأنه لم يجرح أحدا ، وحين يتم تكرار السؤال بشدة ، يجيب متملصا ، بأنها كانت شقاوة صبا ، لا أقل ولا أكثر .

إذن ، فقد تم افتراض أن الزين شخصية حقيقية عاشت بكل وقائعها الموجودة داخل النص ، في زمن ما ، وما كان على الطيب ، سوى نقل الحياة تلك إلى الورق . أيضا افترض أن سيف الدين الشيخ المسن ، هو سيف الدين الرواية ، وذلك الجرح الذي حدث في رأس الزين ، ، حدث واقعي أيضا ، نقله الطيب بكل سهولة إلى الورق ، وهكذا رواية هي قصة واقعية ، ليس لأحد فضل في كتابتها ، ولكن الفضل في جعلها حكاية مشهورة .

طبعا ، في البداية أود أن أنوه بأن الأدب الذي يحدث مثل هذا التفاعل في الواقع ، ويتأثر به حتى الأميون الذين لا يعرفون ماذا تعني رواية ، وماذا تعني قصة ، وما معنى

الشخصيات ، أدب جدير بالاحترام ، وأدب خالد بلا شك ، والطيب كان حتى في دردشته العادية ، يصنع خلودا ما ، وذكريات تبقى لدى الذين يستمعون إليه ، وبالتأكيد لسهولة الحكاية ، وروايتها بلغة عادية ، وقريبة من لغة الناس ، دور كبير في إبقائها متقدة حتى بعد رحيل الكاتب ، وجميع مجايليه ، بحيث تظل الحكاية تروي نفسها بنفسها ، ولا تنقطع روايتها أبدا .

لكن الذي لا يعرفه الناس ، أو يعرفونه ولا يودون أن ينتبهوا إليه ، هو أن الأدب الروائي ، حتى لو رسم الواقع رسما متقنا ، فهو أدب متخيل . ليس كل ما يجري داخل النصوص ، من المفترض أنه جرى في الواقع ، وليس كل شخصية رسمت بعناية ، هي شخصية مرسومة في الأصل ، وتم السطو على رسمها ، وحشره في نص ، وليس كل اسم ورد في رواية وصادف أن هناك من يحمله ، في البيئة التي استوحيت منها الرواية ، هو بالضرورة الاسم الحقيقي نفسه .

سيف الدين المعمر الذي مات منذ أيام ، كان يعيش شبابه وفتوته ، في مدينة بورتسودان الساحلية ، وله فيها مغامرات أخرى ، لا علاقة لها بفأس أحدثت جرحا في رأس رجل ، هو الآخر ليس الذي كان يسعى في القرية ذات يوم ، لكنه مستوحى منه ، وتمت صياغته بما يرضي الخيال ، وتلك الأسئلة التي كانت تخنقه ليدلي باعتراف لا يخصه ، لم يكن هناك ما

يبررها ، سوى أنه كان الوحيد في ذلك الجيل القديم ، الذي اسمه سيف الدين ، وما دام ورد اسمه في الرواية ، فهو سيف الدين حامل الفأس التي أحدثت جرحا في رأس الزين .

كنت وما زلت من الذين تستهويهم الأسماء الغريبة ، أتخيل أصحابها شخصيات روائية ، وأقوم بالفعل بصياغتها ، ولطالما استوحيت أسماء من أشخاص التقيتهم ، أو سمعت بهم ، أو حتى تداخلوا في برامج إذاعية ، استمعت إليها مصادفة ، وما زلت أطالع رسائل الاحتيال التي ترد إلى بريدي الإلكتروني بشغف ، حيث أعثر فيها دائما على أسماء مطلوبة لشخصيات أفكر في كتابتها ، وصادف أنني كتبت في إحدى روايات البدايات أو بالأحرى ، في روايتي الأولى ، اسم سيدة ، كانت ذات وظيفة محددة داخل النص ، وعلى الرغم من أن روايتي تلك لم تكن شهيرة ، ولم تدخل السودان إلا في نسخ معدودة جلبها أفراد زاروا مصر وعثروا عليها هناك ، حيث لم يكن التوزيع خارقا ومتطورا مثل الآن ، إلا أن اسم السيدة ، وصل إلى امرأة في الواقع ، لم أكن أعرفها ، تحمل الاسم نفسه ، وتعمل في الوظيفة نفسها التي كتبتها في النص ، وظل بعض أفراد أسرتها يطاردونني لزمن ، مطالبين بتعويض عما سببته لقريبتهم من حرج ، ولم يكن في الواقع أي حرج ، لأنني لم أسئ إلى الاسم أو الوظيفة ، كما أنني لم أكتب عن قريبتهم تلك . هو الخيال ما صاغ كل شيء ، وجاء من جر

الخيال وجعله واقعا رغما عني .

إذن ، الواقع يكتب شخصياته ووقائعه ، في أي مكان في الدنيا ، وفي كل زمان ، ويأتي كتاب مصابون بهوس الكتابة ، ليأخذوا من ذلك الواقع زادا قليلا أو كثيرا ، يطعمونه للخيال الذي يخرجه نصوصا أخرى ، مختلفة تماما ، لكن دائما ما يأتي بعض الذين عاصروا وقائع ما ، ليستولوا على نتاج الخيال ، وتصبح الوقائع المرصوفة في النص ، وقائع جرت ذات يوم وعلى الكاتب أن يقر بوقوعها .

من الواقع إلى الخيال

تحدثت في مقال سابق، عن كيفية اصطياد الشخصيات، في النصوص الأدبية، التي تحصل على تفاعل جماهيري، في العادة، والهبوط بها إلى أرض الواقع، لترتديها شخصيات موجودة بالفعل، وغالبا ما يحدث هذا في النصوص المكتوبة عن المجتمعات الضيقة، ذات الكثافة السكانية المحدودة، مثل مجتمعات القرى البعيدة، والأحياء الشعبية، والتي في أطراف المدن، حيث تفاصيل الناس وتفاصيل أفعالهم معروفة للجميع: المشية المنضبطة أو العرجاء يعرف تماما من يمشيها، الوجه العابس والبشوش يعرف من يرتديه، والضحكة التي تطلق، حتى بخفوت، تحت ستار الظلام، يعرف من أطلقها وإن كان سيطلق غيرها أم لا؟

لقد تلقيت رسائل عديدة، من الذين يتابعون، بعضها يتفق معي في أمور كثيرة، وبعضها يختلف، لكن معظم من كان يسأل، كان يود أن يعرف كيف يحدث العكس؟ أي كيف يلتقط الكاتب شخصية حقيقية من محيطه، ويبرمجها أو يعدل من تفاصيلها الواضحة، والمخبأة أيضا، بحيث تصبح

شخصية أخرى في نص مواز ، إن كان هذا يحدث حقيقة ، وهل استخدمت مثل هذه التقنية؟ أو أعرف من استخدمها من الكتاب الذين ، نقرأ لهم كثيرا ولا نعرف من أين يأتون بالإيحاء؟

الشيء المعروف ، وأتوقع أن الجميع يعرفه ، هو أن كل شيء في الدنيا يمكن أن يوحي بقصة ما ، الحكاية التي تسردها جدة عجوز ، أو أم ، أو حكاء موجود في بيئة ما ، هي قصة تمتلك أركان القص جميعها ، لكنها ربما تفتقد للصياغة الأدبية ، وتحتاج لإعادة روايتها بأسلوب أكثر حرفية . التفاصيل اليومية التي نمر بها ، في البيوت والشوارع والأسواق ، وحتى المعارك الصغيرة والكبيرة ، واللافتات المعلقة هنا وهناك ، على سبيل المثال ، هي قصص مروية ، باقتضاب ، وتحتاج إلى تفكيكها وصناعة نصوص مدهشة منها ، ولولا امتلاء العالم بالحكايات ، لما استطاع أحد أن يكتب ، ذلك أنه يصطاد خامات الحكاية من مجتمعه وبيئته المحيطة ، ويلونها بالخيال ، لتخرج في الشكل الأدبي المعروف ، وبشرط أنها قصة خيالية ، لا تمس حتى الشخصيات التي تم أخذ بعض ملامحها وتفاصيلها من أجل الكتابة . وكنت أعتقد دائما في ما أسميه خامات الكتابة ، وهي مجموعة مواقف متفرقة ، فيها الكثير من الطرافة ، يمكن أن تمر بشخص ما من المتعلقين بالكتابة ، وتهبه فكرة ، أو لمحة من فكرة سيستخدمها لاحقا ، لكن وكما قلت

في مقالي السابق ، لن يكون كل ذلك حقيقيا تماما وقد لا يسمح بتعيين شخص ما في الواقع ، بوصفه بؤرة الحكاية ، والسلوك المستقيم أو الطائش الذي كان يحيا به في النص ، هو سلوكه في الحياة .

في أحد الأيام ، ومنذ عدة أعوام ، التقيت برجل مسن ، في حوالي الثمانين أو أكثر قليلا ، كان ذا ذاكرة خصبة ، ويملك بالقطع ثروة من الحكي الصافي الجميل ، لكنه لم يسمعني منها سوى شذرات قليلة . كان في الحقيقة يخبرني بأنه يكتب روايته الأولى ، عن الحرب العالمية الثانية ، وتداعياتها التي عاصر جزءا منها في بلاده ، وهو يافع ، وقد ابتدأ الكتابة في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي ، بشخصيات بعضها مختلق وبعضها مستوحى من الواقع ، لكن الرواية لم تنته ، وما تزال واقفة في الفصل الأول ويأمل أن ينهيها في أقرب وقت ، وهو متأكد تماما من نجاحها . لقد كان جادا فعلا ، ويحمل في رأسه الذي تنفض من الشعر ، خريطة ثرية لرواية الحرب تلك . وما يتبعها من جوع عند البعض وشبع عند البعض الآخر ، ما يتبعها من هلع وتشرد ، وظلم ، واضطهاد ، مثلما نراه الآن في بلدان ثارت ضد دكتاتوريات فظة ، وانتهت المسألة أسرا رهيبا في جو الحرب وتلفها ، وأصبح من المتعذر أن يعود أي أمر إلى نصابه .

حقيقة فتنت بتلك الملامح البسيطة التي رواها لي الرجل ، ونحن نجلس في مقهى هادئ ، لكن ليس بمثل افتتاني

بشخصية الرجل نفسه ، فقد شكل لدي خامة للكتابة ، يمكن استغلالها بشيء من الجهد والمكر ، فالرواية التي تستغرق كتابتها خمسين عاما ، وما تزال طفلة في مراحل حبوها الأولى إن جاز التعبير ، لن تكتب أبدا ، وتلك الملامح الثرية التي تشكل مستقبلها ، قطعا سيأتي يوم وتفتقر فيه ، وفقط تبقى بذرة رائعة ، عن روائي مؤجل يكتب في التاريخ ، وهو نفسه جزء من ذلك التاريخ . وأكيد ستتم عملية تحوير وإعادة ملامح من أجل أن تصبح الشخصية المأخوذة من الواقع ، مؤهلة لامتلاك درب في نص هو من الخيال ، وطبعا لن تذكر الحرب العالمية الثانية ، إلا بما يخدم الفكرة ، والنص الناقص للكاتب ، ربما تكمله الرواية التي سيكون بطلها .

منذ أكثر من سبع سنوات ، التقاني في أحد الاحتفالات العامة ، رجل في نحو الأربعين ، سلمني مخطوطا لروايته الأولى وكانت أيضا عن حرب جرت وقائعها في بلاده منذ زمن ، ومات من جرائها الآلاف ، ومثلهم تشرد في كل الدنيا ، حيث فروا بأي طريق وجدوه قد يسمح بالتشرد .

لقد ظلت رواية المأساة هذه عندي زمنا طويلا ، لم أجد وقتا لمطالعتها فيه ، بالرغم من أنها ليست ملحمة ، وإنما رواية صغيرة الحجم ، وكان المؤلف يهاتفني بمعدل عشر مرات أسبوعيا ، يذكرني بقراءة الرواية ، وأعده بذلك ، لكني أنشغل وأنسى ، وفي أحد الأيام زارني المؤلف فجأة في مكان العمل ، كان

مرتبكا بشدة ، عرقان ، وأحمر العينين ، وصدره يتحرك صعودا وهبوطا ، بطريقة كان جليا أن وراءها انفعال جبار ، قد يفضي إلى كارثة . طلبت منه أن يجلس ، فرفض ، أن يهدأ ، فازداد توتره ، ثم فجأة أخرج من جيبه سكينا صغيرة حادة النصل ، لوح بها في وجهي ، وهو يردد : هذه فرصتك الأخيرة لقراءة النص ، وإلا عدت وذبحتك بهذه .

ثم لوح بها مجددا في وجهي ، وانصرف ليتركني غارقا في الرعب .

في ذلك اليوم لم أفكر في أي شيء قد يضر الرجل الذي كان واضحا أنه ليس طبيعيا ، ويرزح تحت ضغط ما ، فقط جلست في بيتي ساعات ، قرأت فيها رواية المأساة تلك ، وكانت رواية جيدة إلى حد ما ، فيها هزات الرواية الأولى ، وبعض الضعف في الأسلوب ، لكن لا بأس ، كلمت الرجل برأيي ، وأحسست بسعادة كبيرة في صوته ، عاد في اليوم التالي ، استرد مخطوطه بيد ناعمة هذه المرة ، وبعينين مذهولتين ، طالعني فترة ثم مضى ، حيث لم أصادفه مرة أخرى على الإطلاق ، والرقم الهاتفي الذي يحمله ، كان قد ألغي من الخدمة كما تقول الرسالة التي تبثها شركة الاتصالات ، ورواية الحرب والمأساة ، لم تصدر ، ولا أظنها ستصدر في يوم ما .

وأيضا في هذه المرة ، كانت فتنتي كبيرة بشخصية المؤلف ، إنه مبدع مأزوم ، استطاع بطريقة ما ، أن يسطر الأزمة في نص ربما

أرضاه شخصيا، أو لا يعرف إن كان مرضيا أم لا؟ ويبحث عن رأي آخر، لقارئ سمع عنه، وحصل على الرأي تحت حد السكين.

أعتقد أن هذا الكاتب، هو أيضا خامة جيدة لحكاية ما، حكاية لا تعنى بجو الحرب المذكور في روايته على الإطلاق، وإنما تعنى به شخصيا، ويمكن أن يكتب في أحد النصوص، بوصفه مقاتلاً في أحد الفصائل المتحاربة، يصيغ يوميات لأيام كارثية، ولن ينشرها على الناس في كتاب، فقط سيسعى لمعرفة تأثيرها لدى الآخرين وهي مخطوط. ممكن جدا أن يصبح داخل النص جنديا متقاعدا مشردا، يطوف بأوراقه في القرى والحلال الصغيرة، يقرأه للصبية والأميين، ويحس بنشوة كبرى حين يهز الناس رؤوسهم راضين.

إنها لسعة الكتابة التي يسأل عنها القارئ، وقد يجدها عند البعض ولا يجدها عند البعض الآخر. هناك من يكتب بسرية كاملة، محتفظا بملفات غاية في التمويه لشخصياته المتخيلة والمستوحاة من الواقع، على حد سواء، وهناك من يفتح مطبخه بين حين وآخر، خاصة حين يكتب شهادة إبداعية، تتحدث عن تجربته، ودائما ما تختلف نكهة الطبخ بين شخص وآخر، وفقط تبقى الأساسيات، أي البهار الذي يضاف إلى الطبخة، والنار التي ستنضجها إن كانت هائجة أو هادئة، وفي النهاية، من الذي يتذوقها؟ هل هو متذوق حقيقي، أم مجرد عابر بالتذوق فقط لا غير

ما تلهمه كتابات الآخرين

منذ عدة سنوات ، قرأت رواية للطاهر بن جلون اسمها : «رشوة» ، وهي رواية عادية ، كلاسيكية ، عن موظف كان مستقيما ومثابرا في عمله ، ثم قرر فجأة أن يتلقى رشاوى تغير من نمط رزقه ، وترتقي بحياته التي كانت خالية من أي ترف .

وكانت الرواية هكذا تتبعا لحياة الرجل بعد ارتشائه ، وماذا حدث في بيته وعمله ، وعلاقته بأسرته ورؤسائه ، لكن المؤلف كتب في تقديم قصير للكتاب ، أنه أعجب برواية تحمل الاسم نفسه لكاتب آخر ، لا أذكر من كان هو ، وقام بزيارته في بلده ؛ ثم استوحى الفكرة من تلك الرواية وكتبها بطريقة أخرى .

أيضا معروف أن غارسيا ماركيز ، استوحى روايته القصيرة ، «ذكرى غانياتي الحزينات» ، التي تتحدث عن رجل مسن ، يتتبع نوم فتاة صغيرة ، في بيت إحدى السيدات ، ويحس بالنشوة الكبرى ، استوحاها من رواية الياباني ياسوناري كواباتا : «الجميلات النائمات» ، وهي رواية رائعة حقا ، تتحدث عن متابعة المسنين لنوم الفتيات الصغيرات ، لقاء مبالغ مالية ، يدفعونها لصاحبة البيت الذي تجري فيه وقائع

النوم والمراقبة ، وكانت فكرة غريبة حقا ، لكنها موحية بشدة ، وأوحت لماركيز نفسه ، وهو الذي لم يكن بحاجة لإلهام من الخارج . وفي السياق نفسه أعتقد أن هناك من كتب رواية مستوحاة من رواية سالنجر الشهيرة ، «الحارس في حقل الشوفان» ، لكنني لم أقرأ تلك الرواية المستوحاة ، ولا أعرف إن كانت جيدة بالفعل أم مجرد عمل تنقصه الدراية .

أردت أن أقول ، إن الاستفادة من أعمال الآخرين ، أو اكتساب الإيحاء القوي منها ، وإعادة الكتابة بحبر آخر ، عمل مشروع بلا شك ، على الرغم مما فيه من مخاطرة ، وإمكانية أن يأتي قارئ متمكن ليقارن الأعمال المستوحاة من بعضها ، ويستخرج النواقص في الأعمال الجديدة ، كما حدث حين استخرج كثيرون عيوب رواية ماركيز «ذكرى غانياتي الحزينات» ، أمام الرواية الأصل «الجميلات النائمات» . لكن رغم ذلك ، تظل لرواية ماركيز نكهة جميلة ، مع بهاراته الخاصة التي لا يجيد أحد غيره استخدامها . هنا هو لم يجعل بيت المتابعة مكانا مشاعا يتجدد زواره في كل ليلة ، وتجدد خاماته أيضا باستمرار ، بل جعل الجميلة واحدة ، فتاة ريفية خالية الذهن من كل ما يحيط بها ، وأيضا ليست مبهرة في الجمال ، أو الجسد ، وإنما تملك الحد الأدنى من الفتنة ، التي تستطيع الإمساك بعيني رجل تجاوز التسعين ، في كل ليلة يأتي فيها ، وحقيقة ، كان يأتي يوميا ، وكان بلا أسرة تحتضنه ،

وأصبح نوم الفتاة الصغيرة ، هو ما يحتضن ليله ويشبع نزوته .

نعم فالكاتب مهما كبر في السن والصيت ، هو في النهاية قارئ جيد لأعمال غيره ، ويملك الذائقة التي يستطيع أن يمررها على الأعمال التي يقرأها ، وقطعا تتذوق البعض ولا تتذوق الآخر ، ثم يأتي دور التذوق القوي ، أو التذوق المؤثر كما أسميه ، وهو ذلك التذوق الذي يتجاوز حدود القراءة لكاتب ما ، ويزحف إلى حدود الإيحاء ، فيمنح الكاتب الفكرة نفسها ، تلك التي قرأها عند آخرين ، لتصبح فكرته التي سيقوم بكتابتها عاجلا أو آجلا .

على أن منح الفكرة بسخاء ، له أيضا شروط ، يجب توفرها ، ومنها أن تملك البيئة التي سيقوم عليها النص المستوحى من نص آخر ، مفردات شبيهة بمفردات الأصل، مثلا حين يستوحي أحدهم رواية لستيفن كينج ، كاتب الروايات البوليسية ، فينبغي أن تكون في مجتمعه مفردات تكفي لصياغة رواية بوليسية ، وحين تدور أحداث رواية ما في أماكن مشبوهة ، وبيوت للغواية ، فينبغي للنص المستوحى منها أن يدور في بلد ، فيه شوارع للغواية ، وبيوت للهوى ، وهكذا .

في سنة ما ، كنت قد امتلكت التذوق الموحي لرواية ، «الوله التركي» للإسباني أنطونيو غالا ، تلك التي تدور معظم أحداثها في مدينة استانبول ، بين ديسديرا ، أو ديسي الإسبانية ، والدليل السياحي التركي ، يمام . بهرتني تلك

الروايات بأجوائها الساحرة ، وحواراتها البليغة ، وكونها رواية معرفية ، أعتقد أن الكاتب درس فيها أستانبول جيدا ، قبل أن يكتب ، وهذا مهم جدا في الكتابة ، أن يكون الدرب مطروقا في الواقع ، قبل أن يطرق في النص ، فقط لم تتوفر شروط كتابة نص مستوحى منها بالطبع ، والبيئة التي تخصني ليست البيئة التي تخص غالا ، وما يمكن كتابته في إسبانيا وعن إسبانيا ، لا يمكن كتابته في السودان وعن السودان ، وحتى الهمس الذي يدور هناك ، يختلف تماما عن الهمس الذي يدور هنا ، وهكذا قهرت تذوقي المؤثر للوله التركي ، حولته إلى تذوق عادي ، أي أن تكون الرواية من الأعمال المفضلة لدي ، من دون زيادة .

في مجال تأثير الآخرين ، أيضا ، توجد تلك الروايات التي يمكن اعتبارها بدايات لنهايات لم يكتبها كتابها ، بمعنى أن تقف الرواية عند حدث ما ، ويأتي من يفكر في تكملة الكتابة ، برواية أخرى ، لا تشبه الرواية المستوحى منها ، وفقط تكملها ، وهي فكرة طريفة بلا شك ، وتعمق من فكرة تواصل الأجيال ، حين يأتي من يكتب لنا مثلا نهاية لرواية ، انتهت ببطل تاه في صحراء ، أو غرق في البحر ، أو تشرد بسبب خطاب جاء من حبيبته التي فقد آثارها منذ زمن ، وهكذا ، ومصطفى سعيد ، في «موسم الهجرة إلى الشمال» ، كان يصيح : النجدة ، وسيكون طريفا جدا أن يكتب لنا أحد ، إن

كان قد غرق فعلا ، أم تم انتشاله ، ليحكي لنا حكاية جديدة .

في الفترة الماضية ، لمع اسم الجزائري كمال داود ، برواية قصيرة اسمها : تحقيق مضاد ، مكتوبة بالفرنسية ، ومستوحاة من رواية «الغريب» ، المشهورة لألبير كامو ، التي كانت تدور أحداثها في الجزائر . داود كتب رواية ، يعارض فيها رواية كامو كما يبدو ، وهذه أيضا فكرة مبدعة ، أن تكتب ظلالا جديدة ، فوق ظلال قديمة ، وبحبر جديد ، ربما ينعش الحبر القديم ويلمعه . وقد حصلت تلك الرواية على أصداء كبيرة ، ورشحت لجوائز وننتظر ترجمتها لنرى ماذا تقول ، لكن من مزاياها أن جعلت الكثيرين ، يعيدون قراءة رواية كامو ، تمهيدا لفهم ما تقوله «تحقيق مضاد» .

الأفكار كثيرة جدا ، ولا تنتهي عند حد أو عند أحد ، هناك أفكار تتقافز وحدها في ذهن المبدع ، وأفكار يجدها المبدع عند زملاء آخرين ، ويأخذ منها ، وهكذا تظل الكتابة النثرية ، مستمرة ومتجددة .

حكمة الإنترنت وحماقتها

كنت وما زلت من الذين يستفيدون كثيرا من تعليقات القراء على أعمالي الكتابية أو أعمال غيري ، ولطالما اعتبرت بعض تلك التعليقات ، من المعايير الجيدة التي يمكن الأخذ بها حين نأتي لتقييم عمل ما بعيدا عن الغموض الأكاديمي ، وتوجد بعض الجوائز العالمية التي تترك الترشيح للقراء في الأعمال التي تتنافس على الجائزة ، ومنها على ما أذكر جائزة اسكتلندية ، كانت قد وصلت إلى النهائي فيها ، منذ عامين ، الزميلة ليلى أبو العلا بروايتها : زقاق المغنى ، لكن الجائزة وبترشيح القراء ذهبت لنص مسرحي أو مجموعة شعرية ، لا أذكر بالتحديد .

الشيء الآخر الذي يمكن ملاحظته في تعليقات القراء ، في تلك المواقع المخصصة للقراءة ، أو حتى تحت المقالات في الصحف اليومية ، هو أن هناك عددا من القراء يملكون ثقافة ما ، اكتسبوها من كثرة ما طالعوا من الكتب ، وبعضهم يملك يقينا كبيرا ، أنه يستطيع أن يكتب أفضل من كتاب أضاعوا أعمارهم في الكتابة ، وتجد هؤلاء يخترعون زعامة ما ، يتبخترون بها في

وسط القراء ، أو يسعون للوصول إلى الكاتب بشتى الطرق ، لإيصال توجيهاتهم ، من دون أي إحساس بأنهم ربما لا يكونون مؤهلين أصلا لإبداء آراء معينة ، وأن الكاتب الذي يسعون لتوجيهه ، يعرف أين تكمن قوته وأين يكمن ضعفه ، أو تكونت عنده القوة والضعف معا عبر سنوات طويلة ، وهو على دراية بذلك . وقد أخبرني كاتب زميل ، متمكن في كتابته ، أن قارئة كانت تلح عليه بصورة يومية أن يعيد كتابة نص قصصي له بناء على توجيهاتها ، وكان قد قرأ تلك التوجيهات ولم يعثر فيها على جديد ، يضيف إلى نصه ، إنها الخطوات والأفكار نفسها التي استخدمها ، لكن القارئة ، كانت قد تضخمت ، واتخذت من نفسها ، معلما للكتابة ، بلا أي وجه حق . وقد أخبرها أن تكتب هي ما تراه مناسبا ، لكنها لم تفعل ، ذلك لسبب بسيط ، هو أنها قارئة ، لكن مسألة الكتابة ، شيء آخر يحتاج إلى خطوات أكثر رشاقة ، من أجل تحقيقه .

لقد تناقل الناس مؤخرا على لسان : أمبرتو إيكو ، الكاتب الإيطالي ، صاحب : اسم الوردة ، أن الانترنت ، أفرزت حماقة كبرى حين أتاحت للذين كانوا يكتبون في الدفاتر ، ويضيع ما كتبوه من دون أن يضر أحدا ، فرصة أن يكتبوا الضرر متى ما أرادوا ، وفي أي مكان أرادوا ، ويصلوا به إلى أي شخص .

طبعا أمبرتو إيكو من جيل قديم ، لا أعتقد أنه تفاعل مع الانترنت كثيرا ، وإن تفاعل فربما في نطاق ضيق جدا ، ومثل

هؤلاء الكتاب الذين ، أحبوا الكتابة ، وأحبتهم ، فمنحتهم رزقا جيدا ، لا يلجون الفضاء الافتراضي كما نلجه نحن ، وغالبا لديهم من يكتب لهم الخطابات الإلكترونية ، من يغرد باسمهم في تويتر أو يعلق على منشورات تخصهم في فيسبوك ، وغيره من الأماكن ، وحتى الرد على الهجوم الذي ربما يتعرضون له بسبب نصوص أو آراء معينة . ولا تكون لهم وظيفة في النهاية ، سوى القراءة ، والكتابة ، وإلقاء المحاضرات ، والتوقيع في الاحتفالات التي تقام لهم هنا وهناك ، وكنت شاركت مرة في دورة من دورات مهرجان طيران الإمارات في دبي ، حيث تتم استضافة كتاب من جميع أنحاء العالم ، ليحاضروا ، ويقرأوا شهاداتهم في الكتابة ، ويوقعوا في النهاية على مؤلفاتهم ، على طاولات خاصة بالتوقيع ، ولاحظت وجود الكتاب الأجانب ، ومنهم صينيون وكوريون وإيطاليون ، وأمريكان ، مسنودون بسكرتيرات ، يرهفن السمع لكل من تحدث إلى كتابهن ، ويتولين الإجابة ، نيابة عنهم . أو استلام بطاقات التعارف ، وحشرها في حقائبهن ، بينما كنا بلا أي برستيج ، ولا حتى صفوف قراء من أجل التوقيع .

إذن ما قاله إيكو ، ربما لا يكون منصفا ، وقد حمل ظهر الانترنت كل شيء ، ولم تكن الحماقة وحدها ، لكن أيضا حمل الحكمة عند البعض وأوصل أصوات ما كانت تستطيع الوصول ، إلى أحد لولا وجود الانترنت ، وحتى في أوروبا ،

هناك كتاب ، كانوا مغمورين ، ونشروا نصوصهم أولا على الانترنت ، قبل أن يعرفوا بعد ذلك ، ويصبحوا أعلاما في النشر الورقي ، ومنهم صاحبة الرمادي : إي ال جيمس ، بغض النظر إن كانت نصوصها ، حماقة أم حكما . فهي تملك قاعدة من القراء الآن ، يتمنى الجميع أن يمتلكوا ، ولو جزءا يسيرا منها .

بالنسبة للقراءة الإلكترونية ، وهي موضوع مهم أيضا ، أصبح الآن ذا شعبية كبيرة ، خاصة وسط الشباب ، ومعروف أن هناك مواقع معينة ، تشتري حقوق النشر الإلكتروني من المبدعين وتتيح أعمالهم مجانا ، ومنها مؤسسة هنداوي التي تنطلق من مصر ، ومؤسسات كثيرة غيرها ، في الشرق والغرب ، وهذه من حكم الانترنت بلا شك ، أن يكون ثمة كتاب موجود بطريقة قانونية ، لمن لا يستطيع الذهاب إلى مكتبة واقعية ، لكنه وفي عدة ثوان ، يستطيع أن يدخل مكتبة إلكترونية ، يتسوق منها ، وشخصيا قرأت ، وبرغم صعوبة القراءة لجيلنا إلكترونيا ، كثيرا من الكتب القيمة ، منها مجموعات الكندية ، أليس مونرو ، وبعض روايات الألمانية : هيرتا مولر ، وكتبا قديمة لم تعد متاحة ورقيا في معظم المكتبات مثل كتب التراث ، وأعمال كتاب عظماء ، أثروا الساحات الأدبية ذات يوم ، وما زالت أفكارهم موضع احترام وترحيب . وبالطبع توجد الكتب المقرصنة بلا وجه حق ، وهذا موضوع آخر ، كثير التعقيد وبلا حل تقريبا .

ما أريد قوله ، أن يسعى الذين يحسون بأنهم كتاب ، من دون أن يستطيعوا الكتابة ، إلى تحقيق ذلك الإحساس ، وهو السعي إلى حضور دورات تدريبية في فن الكتابة ، فمثلما يمكن للإنسان أن يتعلم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطب ، يمكنه أيضا أن يتعلم الكتابة ، فكل شيء أصبح علميا ، وله من يعلمه ومن يتعلمه ، وأظن أن دورات الكتابة التي تقام في كل بقاع العالم ، قد نجحت في اكتشاف مواهب لأشخاص ، كانوا يملكون الإحساس بأنهم كتاب ، ونقل إحساسهم إلى الورقة والقلم .

عالمية النصوص وكتابها

كثيرا ما نجد الصحافة العربية ، تطلق لقب : العالمي ، على كثير من الكتاب العرب ، من الذين ترجمت لهم نصوص للغات أخرى مثل الإنكليزية ، والفرنسية ، والإيطالية ، ونجد أولئك الكتاب يتلقفون ذلك اللقب بأحضان مفتوحة ، يساعدونه على النمو بسرعة ، وربما يروجون له بأنفسهم وسط قرائهم والتجمعات الثقافية التي يحضرونها .

وبالتالي تجد كاتبا أو شاعرا من الذين اهتموا بالفعل بهذا اللقب الكبير ، زاهدا في كل شأن ثقافي عربي ، وعينه على شؤون غربية ، يجد أن من حقه التواجد في وسطها .

في رأيي الشخصي غير الملزم لأحد ، أرى أن العالمية ليست نصوصا مترجمة للغات أخرى ، على الإطلاق ، حتى لو بلغت نصف لغات الكرة الأرضية ، فقد ذكرت من قبل في حوار معي ، وذكر الكثيرون قبلي وبعدي ، إن مسألة الترجمة هذه بالذات ، تخضع في حالات كثيرة إلى الحظ ، والمصادفة ، والعلاقات الخاصة التي تربط كاتبا عربيا بمترجم أوربي ، أو النبش في مواضيع يهم الغرب أن يعرف عنها شيئا مثل الكتابة

في الدين بسلبيــة ، وإيراد مـقــتطفـات من العنف ، وزواج القـاصـرات ، والاسـتـعـبـاد في بعض الدول ، والتـرويج لتلك الكتابة ، لتصل إلى من يبحث عنها بطريقة أو بأخرى . وأعرف نصـوصـا ليـست ذات تأثيـر حـتى في اللغـة العـربيـة ، وربما لم يسمع بها حتى المهتمـون بالقراءة ، عـبرت إلى لغـات أخرى ، ونصوصا لم تنشـر حتى بالعربية بالرغم من أنهـا كـتبت بهـا ، ترجمت إلى لغة أخرى ونشرت هناك . وفوجئت مرة بكتاب بالفرنسية ، لشخص أعرفه جيدا ، ولم أعرف على الإطلاق أن له اهتمـامات بالكتـابة ، وأخبرني حين سـألته عن الكتاب أن فتاة يعرفها تولت نشره بالفرنسية بعد ترجمته .

الكـاتب العــالمي ، هو الكاتب الذي يحــدث هو أو نصــه المتـرجم تأثيـرا مـا لدى جـمـهـور أعـرض من جـمـهـور القـراءة الروتيني الذي يلهث وراء الكتب ، جيـدها ورديئـهـا ، أن يكون موجـودا حتى لدى أولئك الذين يمتهنون مـهنا لا تغري باقـتناء الكتب ومطالعتـهـا ، وأن يكون مـدرسـة كـتابيـة تؤثر في أجيـال كتابية ، في أي لغة يترجم إليها ، وقد حقق كتاب هذه الشروط بكتاب واحد فقط ، وحققها آخرون بعدة كـتب ، أو بمجموع ما كتبوا ، وبذلك أصبحوا كتابا عالميين .

وأذكـر في دورة تدريبـية عن الإسـعـافات الأوليـة ، وإنقـاذ الحياة ، حضرتها ، أن المحاضر وكان هنديا ، ذكر أن هناك شيئين هامين على النـاس فعلهـمـا : أن يتـعلمـوا كيف يتـصرفـوا بسـرعـة

في الحالات الحرجة ، وأن يقرأوا «مئة عام من العزلة» ، لغابرييل غارسيا ماركيز . وبالطبع كان هذا كلاماً مبالغاً فيه ، لكنه يعد دليلا على عالمية ماركيز ، ونص عزلته ، ذلك أنه ذكر في دورة تدريبية جافة ، وجادة ، ولا يمكن أن يتوقع أحد أن يذكر الأدب فيها ، وكانت لحظة سعادة كبيرة لدي ، حين قلت للمحاضر إنني قرأت «مئة عام من العزلة» ، والآن أحضر دورته لإنقاذ الحياة .

وللتذكير فقط فإن ماركيز بما قدمه ، قد أصبح مدرسة تعليمية عن بعد لقطاع كبير من الذين ترجم إلى لغاتهم ، وعندنا في العربية ، كان معلمنا حقيقة . ومن المؤكد أن بورخيس عالمي أيضا ، ويوسا عالمي ، وكذلك الشاعر لوركا من إسبانيا ، و أمبرتو إيكو من إيطاليا ، وبول أوستر من أمريكا ، ونجيب محفوظ من مصر ، والطيب صالح في «موسم الهجرة إلى الشمال» خاصة ، على سبيل المثال فقط . لكن ماركيز يختلف ، أي نص كتبه ، حمل شعاعا ما ، أنار به طريقا ما ، وأي كلمة ذكرها في حواراته ، كان لها ما يبررها داخل نصوصه . والذي يقرأ «الحب في زمن الكوليرا» ، لن ينسى أبدا كيف تكتب المتعة في نص مكتوب بجهد وبحث دقيق في أمور الحياة .

من الروايات التي أعتبرها عالمية أيضا ، وطغت على ما كتبه مؤلفها ، حتى لا نكاد نسمع ببقية أعماله ، رواية

«الأشياء تتداعى» للراحل النيجيري تشينوا أشيبي ، فرواية أشيبي هذه ، كانت قد كتبت بسحرية أيضا في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي ، وأدخلت فيها الأساطير الأفريقية ، والميثولوجيا الخاصة بتلك الشعوب ، وتعرضت لظلم الاستعمار في اتخاذه الديانة المسيحية مطية يغزو بها شعوبا آمنة ويستعبدها ، وكانت رواية ذات تأثير واسع في أكثر من خمسين لغة ترجمت إليها ، برغم قصرها ، وما زالت تحلل في المدارس والجامعات ، والمنتديات الثقافية . وأظنها من الروايات التي انطبق عليها القول الذي يتكرر كثيرا ، ويؤكد أن المحلية ، تقود إلى العالمية . نعم إنها رواية نيجيرية محلية ، لكنها دخلت في سياق العولمة ، وثلاثية نجيب محفوظ رواية محلية عن الحارة المصرية ، ودخلت في سياق العالمية ، وهكذا .

لي رأي آخر في نصوص ، كان من الممكن جدا أن يحترمها العالم وتحدث تأثيرا كبيرا فيه ، لما احتوته من فن ، وجمال ، وأفكار رائعة ، لو أنها عرفت خارج نطاق اللغة العربية ، أي لو أنها ترجمت وروج لها في اللغات الأخرى ، مثل أعمال الكاتب العظيم عبد الحكيم قاسم ، روايات «طرف من خبر الآخرة» ، و«المهدي» ، و«أيام الإنسان السبعة» . وحقيقة كان عبد الحكيم موهوبا ، ولم يعش طويلا ، ليهبنا متعة أكبر . أيضا نص مثل «فساد الأمكنة» لصبري موسى ، إنه واحد من النصوص الملهمة الأخاذة ، التي تقدمت في

زمانها ، وما تزال طازجة حتى اليوم . والنصوص التي كتبها الراحل محمد مستجاب ، واتسمت بقوة الخيال وجمال السرد .

إذن على الكاتب العربي الذي يترجم إلى لغات أخرى ، أن يتتبع نصه المترجم ، ويتعرف إلى مدى تأثيره في العالم ، قبل احتضانه للقب العالمي الكبير ، الذي يكاد لا يناسب إلا القليلين في ثقافتنا العربية ، والتباهي به ، ومحاولة جعله لقبا ملزما للآخرين .

ولطالما أجحفت الصحافة في حق الكثيرين ، فألبستهم الوسواس ، والفصام ، من جراء الألقاب الفخمة التي تطلقها .

المدرسة في الكتابة

وأنا أقرأ رواية : «عساكر قوس قزح» للكاتب الإندونيسي أندريا هيراتا ، التي يبدو أنها روايته الأولى ، وحققت رغم ذلك صدى كبيرا ، انتبهت إلى أن حكايتها تبدأ من المدرسة الابتدائية ، بل إن محورها كله يدور حول طلاب مدرسة في قرية صغيرة من قرى أندونيسيا ، كيف تم تجميعهم وسط بيئة لا تحب التعليم ، وأولياء أمور لا يؤيدون خروج الأبناء عن مهنهم الأمية ، مثل الزراعة ، لتذهب بنا حكايات المدرسة إلى تسلق قامات المعلمين ، ووصف وجوههم الباهتة ، والمدهنة ، وصف عرقهم وانفعالاتهم ، وتفاعلهم مع الشغب الطلابي ، الذي لا بد يحدث في أي بيئة تعليمية ، وفي أي زمان ومكان ، وفي النهاية يأتي دور المجتمع ، وعلاقته بتلك المدرسة ، وبالطبع يوجد ثمة راو شخصي ، تم تأهيله داخل النص ، ليروي عن نفسه وعن الآخرين ، ويسوق حكايات الطلاب إلى البيوت ، في تلك القرية ، والقرى المجاورة ، وهكذا .

هذه الرواية ليست جديدة في فكرتها ، بكل تأكيد ، وميزتها أنها تفتح عين المتلقي البعيد وأذنه لتلقي معلومات

كثيرة عن مكان لا يعرفه ، وربما ما كان سيعرفه لولا انتشار الآداب والفنون ، وأداؤها لمهامها على أكمل وجه ، فالقارئ لهذه الرواية سيجد إضافة إلى البيئة الجديدة عليه ، أشياء كثيرة مشتركة مع كل المجتمعات في العالم ، وفقط لا نحسها لأننا لا نعرف ، سيجد أن الأبوة واحدة ، والعمومة واحدة ، ورعاية الطفولة هناك ، هي نفسها في أي مكان ، وحتى دموع الأمهات ، وأصوات الآباء الخشنة في محاولة السيطرة على الأبناء ، واحدة ، كذلك قطعا سيكون ثمة يد باطشة لسلطة ما .

كما قلت ، فقد تذكرت على الفور موضوعا مهما ، وهو تأثير المدرسة ، أي مكان الخبرة الأولى للشخص بعد خروجه إلى الطريق من الطفولة وبيت العائلة ، في كتابة الروايات ، فلطالما طالعت روايات كثيرة تتحدث عن هذا الموضوع ، وعدا فروق بسيطة ، تكاد تتشابه في كل شيء .

الراوي في معظم الروايات يتحدث بلسانه هو ، وينظر بنظرته هو ، ويصف الشخوص الذين يراهم ويحيطون به ، بأوصاف هو من يجترحها ، أو أوصاف يسمعها من آخرين موجودين معه في المكان نفسه ويؤدون مهام الانتباه للدروس نفسها أو عدم الانتباه ، احترام المعلمين أو السخرية منهم ، وهناك شيء مهم لاحظته وهو أن الراوي دائما مميز في شيء ما ، فهو رياضي ، أو سريع الفهم ، أو يكتب القصص بثقافة

أكبر من ثقافة زملائه، ووعي أفضل من وعيهم، وأيضا ثمة طالب بين الزملاء بطيء الفهم، ولا يملك أي أفق وهو الطالب الذي سيكون حاضرا في النص كلما حضرت السخرية.

راوي أندرية هيرتا، طالب مهتم بالتعليم، ووالده أيضا اهتم، رغم عدم اكتراث الآباء، وبالتالي منحنا الكاتب ذلك الطالب الذي سيقود النص إلى نهايته حيثما اتفق، وغالبا منحنا شيئا من حياته هو أيام كان طالبا ابتدائيا.

في ذهني كذلك، رواية «النمر الأبيض» التي كتبها الهندي أرافيندا أديجا، مصورا قصة واحد، من عامة الشعب، احتال على مخدوميه الأثرياء، باحتيالات شتى واستولى على تعاطفهم، لينتهي رجل أعمال كبيرا بعد أن ارتكب جريمة قتل في حق واحد من أبناء مخدومه، كان يعيش في أمريكا وعاد برفقة زوجة متذمرة، تركته ورحلت، واستولى على كل أمواله. لقد حصد أديجا بهذه الرواية، جائزة مان بوكر البريطانية قبل أعوام، وكانت صيغتها في شكل رسالة إلى رئيس الصين، المزمع زيارته للهند.

أقول إن الرواية بدأت أيضا من عالم المدرسة، عالم الفصول والطلاب الأشقياء، والمعلمين البدينين والنحيفين، وطويلي السيقان، والجو نفسه الذي نراه في رواية هيرتا وروايات أخرى، مثل الإحساس بالنهاية، لجوليان بارنز، وهي حاصلة على مان بوكر أيضا، نجد راويا متميزا عن زملائه، وطالبا

كسولا أو غبيا ، تجوز السخرية على أدائه الدراسي والإنساني طوال الفقرات التي تأتي فيها سيرة المدرسة .

هنا ، أعني مع أديجا ، كان التميز في الذكاء ، في تلك القرية الهندية التي ترزح تحت ثقل الفقر ، واعتناق الجهل والخرافة ، بما في ذلك التبرك بالنهر المقدس ، فقد كان البطل الراوي ذكيا جدا ، ولا يشبه الآخرين ، واعتبره أحد المعلمين ، نادرا مثل النمر الأبيض الذي قلما يوجد ، وسماه كذلك : النمر الأبيض .

وقد صحبنا هذا النمر الأبيض في قصته الطويلة ، التي بنيت من عالم المدرسة ، لنكون شهودا على مكره ، في أثناء عمله سائقا عند أسرة ثرية ، بما في ذلك استحضار جو المدرسة ، وصالة الدروس والدروس نفسها ، وكيف كان يحل المسائل الرياضية المعقدة ، وكان يمكن أن يصبح شخصا ذا شأن ، لولا الطبقية ، وأنه من طبقة لن ترتفع به شبرا مهما تفوق وبالتالي ، أصبح سائقا يحس بأنه أكثر استحقاقا بالثروة من الذين يعمل معهم ، ويسعى لنيلها بجريمة القتل .

رواية جوليان بارنز ، أقل دسامة من هاتين الروايتين ، على الرغم من أنها حاصلة على جائزة . رواية فيها خشونة في السرد ، وتقتير في منح المعلومة ، وفي رأيي الشخصي ، ليست ممتعة على الإطلاق ، لكن قطعا هناك من يراها ممتعة ، وقد تعرضت لها بسبب عالم المدرسة الذي بدأت به أيضا .

آتي إلى رواية : «قصة عن الحب والظلام» ، للإسرائيلي عاموس عوز ، وهي من الروايات التي أعتبرها شخصيا ، درسا كبيرا في مادة السرد ، ويمكن التعلم منه لمن رغب في كتابة رواية ، وتعرضت لها قبلا حين تحدثت عن رواية السيرة ، وكيف أنها ينبغي أن تكتب بنظافتها واتساخها ، ولا تنقى من الشوائب .

عاموس تحدث عن عالم المدرسة أيضا ، أثناء حديثه عن طفولته وشقاوته وصباه المبكر ، تحدث عن الفصول الدراسية والمواد التي درسها وحبه للقراءة ، ومضى أكثر في إيراد قصص العاطفة والحميمية بينه وبين مدرسة علمته في المدرسة ، وقطعا كان يكتب واقعا عاشه .

بالتأكيد هناك عشرات من الروايات تحدثت أو بدأت من عالم الخبرة الأولى أي المدرسة ، بعضها أذكره وبعضها لا أذكره الآن ، وقطعا لو قارنا ذلك العالم في كل تلك الروايات التي تعرضت له ، لوجدنا تشابها كبيرا ، ذلك ببساطة أن المدرسة في كل مكان هي المدرسة ، والطلاب في كل مكان ، هم الطلاب الذين سيصنعون المستقبل ، إما صناعة متمكنة ، وإما صناعة ضالة ، لا يستفيد منها المجتمع سوى الخراب .

الرمادي وظواهر أخرى

منذ سنوات قليلة ، أصدرت البريطانية آي ال جيمس ، ولم تكن كاتبة معروفة من قبل ، على الرغم من تجاوزها سن الأربعين ، روايتها الأولى ، «خمسون ظلا للرمادي» ، التي ستصبح ثلاثية في ما بعد ، وتتحدث عن قصة حب غير مألوفة بين رجل أعمال سادي اسمه غراي ، وفتاة صغيرة ، هي الطالبة أنستاسيا ، لتصبح تلك الرواية في أشهر قليلة ، الكتاَب الأكثر قراءة في العالم ، متجاوزا «شيفرة دافنشي» للأمريكي دان براون ، وسلسلة «شفق» لاستيفاني ماير ، وكتبا أخرى لباولو كويله ، وهاروكي موراكامي ، وماركيز ، كانت موجودة بسخاء في جداول القراءة ، وذاكرات القراء .

وعلى الرغم من أن كتاب «الرمادي» لم يحمل أي بصمة فنية من حيث اللغة والأسلوب ، ولم يؤسس لطريقة كتابة جديدة ، ولم يلق ترحيبا نقديا حارا ، ووصف في معظم ما كتب عنه من مراجعات ، بأنه مجرد كتاب جنسي إباحي ، بلا قيمة ، إلا أن ذلك لم يهزم الجزء الأول ولا الثاني ، وطرح الجزء الثالث منذ أقل من شهر ، والآن هو الكتاب الأول من حيث

القراءة . يتبادل القراء الآراء حوله بين من يمدحه ومن يذمه ، ومن يقرأه بلا ضجيج ، أو يرشحه لآخرين ، وهكذا ليتمدد ، ويعاد طبعه بملايين النسخ ، وأيضا سيحول قريبا إلى شريط سينمائي ، كما تحول الجزءان اللذان سبقاه .

البريطانية جيمس لم تدع أنها مبدعة ، ولم تكن تعرف حتى أنها يمكن أن تصبح كاتبة ظاهرة ذات يوم ، وهي تدون أفكارها وتنشرها على مواقع التواصل الاجتماعي ومدونات الإنترنت ، وقطعا فوجئت بتحولها إلى ظاهرة ، ولا أظنها ستسعى للبحث عن تفسير ، بعكس الذين يكتبون لسنوات طويلة ، ويجتهدون في اختراع الأساليب الفنية ، واللغة المميزة ، ويغازلون القراء بمئات الحيل ، ومع ذلك يظلون كتابا ماضين في سكة القبول العادي للكتاب ، ولا يتحولون إلى ظواهر . فهم يتساءلون كثيرا عن سبب ركودهم وعدم تميزهم كثيرا ، رغم التميز الواضح لكتاباتهم ، والاحتفاء النقدي بها .

نعم الظواهر بلا تفسير ، والذي يحاول تفسير ظاهرة ما في أي مجال ، سيعاني كثيرا ولن يصل إلى جواب معقول ، الكاتب الظاهرة ، يعامل كظاهرة فقط ، الممثل الظاهرة كذلك ، المغني الظاهرة ، وأي مجال آخر فيه تنافس إبداعي أو وظيفي ، أو تجاري ، وأذكر جعفر الذي كان يبيع الأدوات المنزلية والعطور ومستلزمات الأطفال في طبلية صغيرة وسط مئات الطبالي التي تشبهها في الشكل والحاجيات ويشبه أصحابها جعفر .

كان ذلك أمام بيتنا بالقرب من المستشفى العام ، في مدينة بورتسودان ، أوائل السبعينيات من القرن الماضي ، ثم فجأة وبلا أي تميز أو ظهور موهبة خارقة ، تحول الشراء جميعه إلى جعفر تاركا الآخرين ، ليصبح في أشهر قليلة ، ظاهرة تجارية ، يتحدث عنها الناس ، ثم ممتلكا لعدد من المحلات التجارية في السوق ، ولم يتغير أي شيء في شكله أو بيعه أو ملابسه . أيضا فقد تحول بائع فول بسيط في ركن المدرسة المتوسطة ، إلى بائع ظاهرة ، يصطف الناس لساعات من أجل أن يحظوا بالفول الذي يصنعه ، على الرغم من أنه فول عادي ، يشبه أي فول يمكن تذوقه في أي مكان . وبمقاييس هذا العصر ، ومع ظهور مواقع مثل ، تويتر وفيسبوك ، يمكننا معرفة الظواهر بسهولة ، ويمكننا متابعتهم ومتابعة نشاطهم أيضا ، ولن نجد أي شيء مميز ، أو أي علامة تجيب عن سؤال تكونهم ظواهر بينما هناك من هو أجدر ولم يصبح حتى ذرة في غبار ظاهرة . فالمبدع الظاهرة يكتب على تويتر : صباح الخير ، مثلا ، وتجد ملايين المتابعين أعادوا تغريد صباح الخير تلك ، بطريقة تلقائية ، كأنما يوجد ثمة تواصل تخاطري بين الظاهرة وبينهم ، وغير الظاهرة ، يتغزل ، ويكتب القصائد المحتشدة بالعاطفة ، وربما يتفرد بمعان جديدة ، أو مفردات أو حكم ، لم يقلها أحد من قبل ، لكن لا يلتفت إلى اجتهاداته تلك أحد .

حين صدر كتاب دان براون «شيفرة دافنشي» منذ سنوات

عدة ، وتمدد بسرعة ليصبح الكتاب الأكثر قراءة ، وتباع نسخه بالملايين ، سعيت لقراءته باكرا . كان كتابا جيد الصياغة ، وفيه أبحاث عميقة ، ويطرح قضية جادة ، لكنه لم يكن الكتاب الوحيد الذي يفعل ذلك ، فقد سبقته كتب أخرى ، تتحدث عن المسيحية بوجهات نظر مختلفة ، إما تمت قراءتها بعادية شديدة وانتهى أمرها ، أو لم تقرأ بحماسة على الإطلاق ، ساعتها كان لا بد من الاعتراف بأن براون ولد ظاهرة ، وسيظل ظاهرة يتسابق الناس إلى كتابته ، حتى لو لم يكونوا قراء ، وإنما مجرد أشخاص يحتفون بظاهرة . ويمكن أن يتابعوه على تويتر ، ويعيدوا تغريد ضحكته لو ضحك ذات يوم . أو صباح الخير التي يكتبها ، لو كتب مرة صباح الخير .

قبل دان براون كان الياباني موراكامي ، والبرازيلي باولو كويلهو الذي اشتهر برواية صغيرة عادية للغاية ، هي «الخيميائي» ، وتحول بها إلى ظاهرة ، وغيرهما كثيرون ، يجب أن يعاملوا هكذا بلا دهشة أو استغراب . لقد قرأت الخيميائي ، وقرأت أعمالا أخرى لكويلهو ، وفي كل مرة يزداد اقتناعي ، بأن امتلاكه ملايين القراء ، ظاهرة ينبغي عدم تأملها .

آي ال جيمس طرحت «الرمادي» بتلك الأفكار والأفعال الجنسية الإباحية ، كما صنفها بعض من تعرضوا لسلسلة كتبها ، ولكن هل كانت أول من يطرح هذه الأفكار بعينها في الكتابة الغربية؟

بالقطع لا ، فالكتابة عموما تأخذ من المجتمع الذي تولد فيه كما أردد دائما ، وهذه الأفكار غير المحتشمة موجودة في المجتمعات الغربية ، بطريقة عادية ، يتقبلها الناس ولا ينظرون إليها باستغراب ، ولذلك كتبت عن المثلية الجنسية مثلا ، روايات عدة ، وأنتجت أفلام سينمائية أيضا ، ولا بد كتب عن السادية في اللقاءات الحميمة ، وأنتجت أفلام كذلك ، ولكن لأن جيمس ولدت ظاهرة ، فستظل ظاهرة ، وكل ما تكتبه سيضاف إلى رصيد الظواهر .

أخيرا أضيف بأن مقارنة الكتاب بالظواهر ، لا ينبغي أن تحدث لأن المقارنة هنا ظلم لكتاب رائعين جدا ولدوا عمالقة ، لكنهم لم يولدوا ظواهر

عنف

في أحد الأيام كنت في العمل ، وجاءت أم تصحب طفلها المريض ، ذا الخمسة أعوام ، حيث أجلسته على طاولة الفحص ، وسألت الأم سؤال معرفة الأعراض الروتيني : ماذا به؟

وقبل أن تنطق الأم ، رد الطفل بسرعة كبيرة ، وهو يكور قبضته اليمنى ، ويرفعها في وجهي : جئت لأضربك وأقتلك .

ابتسمت الأم ابتسامة كبيرة في ذلك اليوم ، لكنني لم أبتسم ، بدا لي ثمة خلل ما ، يتسكع في تلك الطفولة البريئة ، ويمكن بسهولة شديدة ، أن يحولها في المستقبل المقبل ، إلى أداة عنف ، لا تفرق بين الخير والشر ، خاصة إن انحاز الشخص إلى فكر من تلك الأفكار الغريبة المتطرفة ، واتبع غليانه . لقد كان الطبيب في عرف الطفولة العادية ، وما يزال ، في أي مجتمع من المجتمعات ، كائنا خرافيا ينبغي اجتنابه ، والسكوت في حضرته ، ومراقبة فحصه بحذر حتى ينتهي ، وفي أحيان كثيرة ، البكاء بصوت مرتفع ، والقيام بمحاولات جادة للفرار من غرفته ووجهه ، لكن القبضة المكورة ، والتصريح بالضرب والقتل ، يطرح سؤالا كبيرا :

هل العنف تربية أم سلوك مكتسب؟ وهل توجد بالفعل جينات عنف تكمن لدى البعض ، وتخرج في أوان خروجها؟

شخصيا أعتقد بوجود عوامل جينية وراء الجلادين ، الذين لا ترهبهم أرواح ضحاياهم ، ولا يوقفهم أي ترف إنساني عن أداء أي مهمات غير إنسانية ، يكلفون بها أنفسهم ، فالذي يربط وسطه بحزام ناسف ، ويذهب إلى مسجد مكتظ بالمصلين في يوم الجمعة ، وفي شهر القرآن ، يعرف أن ثمة شيوخا مسنين ، جاءوا يتقربون إلى الله وظهورهم محنية ، ثمة أطفال صغار يتعلمون الخشية بذهابهم في سن مبكرة للمساجد ، يعرف أن ثمة أمهات سيبكين ، وزوجات سيترملن ، وأسرا سييتم أبناؤها ، لكن تلك المعرفة لا تحدث أي أصداء داخله . وهكذا سيفجر الحزام الناسف ، ويتفتت ، ومعه ، تتفتت كل القيم ، ومكتسبات الحضارة الإنسانية ، وللأسف الشديد ، تنفتح تلك الكوات المغلقة لأعداء الدين ، أن يطلوا عبرها . سيمنع الناس من السفر بحجة الإرهاب ، سيمنعون من شغل وظائف معينة في الغرب ، بحجة الإرهاب ، وربما يتعرضون لعنف مماثل ، حيث يعيشون ، خاصة إن كان ثمة هجوم طال منشأة غربية ، ومات فيه أشخاص ، كما حدث في الهجوم المتطرف على مجلة «شارلي أيبدو» الفرنسية منذ عدة أشهر ، ومات فيه إثنا عشر شخصا ، وتلك الحوادث التي تطال سفارات ، وباصات سياحية ، وفنادق يقيم فيها زوار غربيون في

بلاد العرب . ومعروف أن المسلمين ما زالوا يعانون حتى الآن من تبعات تفجير برجي التجارة العالمية في نيويورك ، حيث حدثت خلخلة شديدة في العالم ، لم تستقم بعدها الأمور أبدا . وحقيقة لم يكن هناك أي مكسب من ذلك الحادث الكبير ، وكل ما حدث خسارات كانت تتبعها خسارات .

الآن العنف أصبح رائجا جدا ، وأكثر مما كان أيام برجي التجارة العالمية ، خاصة بعد أن حدث ما سمي بـ«ثورات الربيع العربي» ، التي هبت أصلا للقضاء على ديكتاتوريات مقيتة ، لكنها تخلصت من أهدافها الأولى واخترعت أهدافا جديدة ، فالكل خائن في عرف الكل ، وكل يسعى لتدمير طرف يسعى هو الآخر إلى تدميره ، وهكذا يولد العنف ويترعرع بسرعة ، ويظهر حاملو تلك الجينات المتطرفة ، ليتولوا توجيه العنف في كل اتجاه .

لقد كان أمرا مؤسفا فعلا أن يشهد يوم جمعة من شهر رمضان المبارك ، في أحد مساجد الكويت ، كل هذا الدم المراق بلا معنى ، الحرب الوهمية ضد عدو غير موجود حقيقة ، لكنه من اختراع بذرة العنف التي ذكرتها ، وذكرت احتمال نموها وتحولها إلى أداة سحق جبارة ، فليس كل شاب ورع ، مشروعا مدمرا بكل تأكيد ، وهناك شباب ، نشأوا متدينين ، ومهذبين ، ويعرفون حدود الله جيدا ، ولا يقربوها ، إنما أولئك الذين يلوحون بتلك الأدوات العنيفة ، منذ الصغر ، وتحس جدية في

وجوههم ، على الرغم من أنها وجوه أطفال صغار . وبكل تأكيد فإن الهجوم على منتجع تونسي ، أيضا غير مبرر ، فلم يكن رواد هذا المنتجع ، حتى ، وهم من جنسيات غربية ، يحملون مسدسات أو أسلحة رشاشة ، ولا كانوا غزاة للأعراض ، كانوا ببساطة ، سياحا عاديين ، يستجمون في بلد آمن ، طيب ، ومفتوح الصدر للجميع . والذي يزور تونس ، ويشاهد علامات الجمال ، تزين الساحات والشوارع ، ويستمع إلى صوت المحبة الجهوري يحتويه ، قطعا يحس بالحزن الشديد .

إذن نحن الآن في قلب العنف ، وقد أصبحت بعض البلاد العربية بالفعل ، أرحاما كبيرا ، تتمخض عن العنف والعنيفين ، وابتدأ ذلك العنف يسافر ، ليضع بذرة هنا وبذرة هناك ، ولا أظنها بذوراً ، ستحترق وينتهي أمرها .

مجددا وعند كل حادث كبير ، أنادي بالتنوير ، بالتوعية ، بانقلاب الناس المعتدلين إلى أدوات تنوير حقيقي ، تذكر بالقيم والأخلاق وبما حرم الله سبحانه وتعالى على عباده ، وما حلل لهم ، ولنا في الرسول عليه الصلاة والسلام ، أسوة حسنة . التنوير الواعي قد ينتزع بذرة العنف من الصدور التي تحملها ، وفي أسوأ الأحوال قد يقلل من إمكانية نموها وغليانها المستقبلي . كنت قد شخصت الحالة المرضية للطفل الصغير ، صاحب القبضة المكورة ، وأنا واجم وقبل أن أمد وصفة العلاج للأم ، فوجئت بالطفل ، يقفز من مكانه ويشدني من قميصي

بقوة وهو يضحك . وأيضا ابتسمت الأم بابتسامة أعرض ، وذهبت ، وكان في حلقي آلاف من الكلمات لكني لم أقل أي كلمة .

كتابة الضحكة والمأساة

كانت راسلتني فتاة إنكليزية ، اسمها «سارا» كانت قرأت لي رواية «إبولا ٧٦» التي كتبتها عام ٢٠١٢ ، وصدرت مؤخرا ، مترجمة للغتها .

كانت القارئة تشكو من قتامة الجو الكتابي العام للقصة ، حيث تجري أحداثها داخل مأساة ، وقتامة الجو الكتابي عامة ، لكتاب أفارقة ، قرأت لهم أعمالا قصصية وروائية ، إما مكتوبة في الأصل باللغة الإنكليزية ، أو مترجمة إليها من لغات أخرى ، بحيث إنها لم تعثر على أي أثر للسعادة إلا نادرا . فدائما ثمة مجاعات قاتلة ، وأمراض غريبة الأطوار ، ثمة غابات تبتلع الحياة ، وأنهار جائرة ، وانقلابات عسكرية ، ومظاهرات يراق فيها الدم ، من دون أن يعرف أحد من أراقه ، ولماذا؟ وحتى روايات رواد الأدب الأفريقي الكبار ، أمثال تشينوا تشيبي ، ونغوجي واثيونغو ، لم تخل حقيقة من تلك الأفكار . وتختتم القارئة الغربية رسالتها بأن تسأل :

لماذا لا تكتبون الضحكة التي من المفترض أنها موجودة لديكم ، ويمكن أن ترتسم على كل شفة تمنحها فرصة؟ لماذا لا

تكتبون إرهاصات المستقبل التي تظهر جلية ، في الخطوات الأولى ، لطفل يتحسس مشيته بتعثر؟ وليالي العرس بزخمها وطقوسها ، لماذا لا تكتب ، حتى ولو بدافع التعريف بها؟

هذه الرسالة ، ليست الأولى التي تصلني من قراء غربيين ، صادف وأن قرأوا لي شيئا ، ولا بد أن كثيرا من الكتاب الأفارقة والعرب المترجمين إلى لغات غير لغتهم ، قد تلقوا مثلها من قراء لم يكتفوا بالقراءة والفهم ، وحب العمل الروائي ، أو كرهه ، وانتهى الأمر ، لكنهم سعوا للتواصل مع الكاتب نفسه ، من أجل مزيد من المعلومات . هذا النوع من القراء ، ليس بالطبع حكرا على الغرب وحده ، لكن أيضا لدينا قراء عرب مخلصون ، يطالعون تجارب الكتاب ، وإن أحبوهم ، سعوا للتواصل معهم ، بمودة ، والتواصل مع قراء آخرين ، معرفين بتجارب من أحبوهم من الكتاب ، وشخصيا بات لدي العديد من هؤلاء القراء الأصدقاء ، المخلصين ، وسعيد بالتواصل معهم .

الفتاة الإنكليزية ، تعاملت معي هنا بوصفي كاتبا أفريقيا ، ومؤكد أنها تعرف جيدا خصوصية السودان ، كونه عربيا وأفريقياً في الوقت نفسه ، أيضا الجو العام للرواية كان أفريقيا كاملا ، فالأحداث تجري بين الكونغو ، وجنوب السودان ، ولا رائحة لآثار العرب ، إلا في التجار القليلين الذين يستوطنون في تلك البقع الأفريقية ، ويتاجرون في خيراتها ، وسط المواطنين ،

وفيهم من صاهر أبناء تلك المناطق، واكتسب منهم، ما يملكونه من غشامة أو حيل. وربما يوجد بعض موظفي الحكومة والمدرسين، من شمال السودان، يأتون ويذهبون.

نعم الكتابة الأفريقية، وأيضا العربية، أو فلنقل الكتابة الإبداعية في العالم الثالث، معظمها يستوحي من المأساة، يستوحي من الوحشة والعزلة، والموت والدمار، وتفشي الأمراض، والفساد، وكل ما يمكن أن يكون وجها ملطخا بالطين لمجتمع يمكنه أن يغدو نظيفا إن أراد. فمنذ عرفت أفريقيا مثلا، وبرغم تقلبها في الثروات الطبيعية من بترول ومعادن، ووجود بهارات السياحة في هيئة غابات وأنهار ومنتجعات رائعة، عرف الفقر، والجوع والمرض بأنواعه، فلا يوجد مرض النوم إلا في أفريقيا، ولا توجد الملاريا أو حمى المستنقعات بأنواعها إلا في أفريقيا، ولا يوجد من يجوع إلى حد أن يغدو هيكلا عظميا إلا هناك، وأيضا عرف الجنرالات الذين يتبخترون في الحياة السياسية لدولهم، يلوحون بالمعتقلات والمشانق، وهكذا لتصبح التنمية فعلا ثانويا، وتصبح البلاد التي يمكن أن تنتج الذهب منتجة للغبار ولا شيء آخر.

ولأن الكتابة في النهاية هي نتاج تلاحم بين كاتب وبيئته، أو بين كاتب ومجتمعه، وبقية المجتمعات في منطقته الجغرافية، فلا بد أن تهيمن كل تلك النواقص على كتابة أفريقيا، وكتابة العرب في بعض الأجزاء من الوطن العربي.

لقد كان إيبولا مرضا حقيقيا ، حدث في هبة أولى موثقة في أواسط سبعينيات القرن الماضي ، ولم يكن من خيالات الكتابة . أيضا هب في العام الماضي هبته الثانية التي كانت أكثر بطشا وترويعا ، وأفزع العالم كله ، ولدرجة أن خف السفر من وإلى بعض الأماكن ، وبات الترقب فعلا كبيرا مسيطرا على سكان كل القارات . وهناك أمراض أخرى غير إيبولا موجودة ، وحية ، وممكن جدا أن تنطلق نشطة في أي يوم من الأيام ، كذلك توجد براكين خامدة تنشط من حين لآخر لتدمر القرى والحقول حولها ، وتوجد عوائق أخرى تظل عوائق دائمة لا تتزحزح من أماكنها ، منها الصراعات القبلية الحادة ، بين سكان ينتمون لمئات الأعراق وكل عرق ينادي بأحقيته في السيطرة على بلاده ، ولا يفكر لحظة بأن ما يود السيطرة عليه ، قد يكون حطام مدن وقرى ، وحقول ومدارس ، وكل ما يمكن أن يصنع مجتمعا آمنا متقدما .

إذن الكتابة حقيقية ، ومبنية على جزء من الحقائق ، ثم يأتي الخيال ليخلط كل ذلك بالفن ، من أجل أن يصبح النص الواقعي الصرف ، نصا فنيا ، يجتلب قراءه .

لقد كان سؤال القارئة عفويا ، ولكي تصبح الإجابة مقنعة ، لا بد أن تأتي تلك القارئة ، في رحلة إلى عالمنا ، لترى أن الخدوش التي تطالعها في نصوص كتابنا ، ليسوا هم من قام بنحتها لكنها منحوتة في الأصل . الضحكة موجودة بالطبع

لكن تصبح كتابتها ترفا بجانب المأساة . الطفل الذي يحبو أو يخترع خطواته للمستقبل ، موجود ، لكن أفعاله لا تغدو ملاحظة بجانب ضحايا سقطوا لأي سبب ، أو قرية أبيدت بسكانها لأن قبيلة ما ، لم يعجبها شكل بيوت القش في تلك القرية .

كنت التقيت سيدة أمريكية منذ شهرين ، وعرفت أنها عاشت فترة في رواندا ، لدرجة أن منحها الرونديون اسما أفريقيا ، كانت تزهو به لفترة ثم نسيته . وحين أهديت إليها نسخة من «إيبولا ٧٦» وقرأتها ، لم تبد مندهشة ، ولا غير مصدقة ، ولا سألتني ، أين توجد الضحكة؟ أو أين بذور السعادة؟

كانت تعرف من أين استوحى النص حكاياته ، وفي أي بيئة مشى بها حتى النهاية .

ضد الحداثة

لقد تعودت عبر سنوات، أن أتلقى عبر البريد الإلكتروني، وبشكل شبه يومي، مراسلات فيها رائحة الكتابة، بمعنى أنها إما روايات مخطوطة أو قصص قصيرة، أو قصائد شعرية، أو خواطر، أو حتى مجرد آراء فردية، أو أمنيات وأحلام صغيرة، أن يصبح أحدهم كاتبا ذات يوم.

هذه المراسلات في مجملها، تعطي مؤشرا لا أدري، أهو سلبي أم إيجابي، بأن الكتابة الإبداعية، في شتى ضروبها وحيلها باتت هما رئيسيا لدى أشخاص كثيرين، الإيجابي هنا هو أنها هم يحمله الكثيرون، والسلبي، هو أنها لم تعد نافذة يطل عبرها المبدعون فقط، ولكن خلاء ممتدا بلا سياج، يطرقه كل من أراد، بلا أي خلفية ثقافية أو قرائية. وكجزء من منهج أؤمن به، تعودت أن أمسك بالإيجابيات أولا، وأحاول أن أجعلها بالفعل إيجابيات، لكن الأمر في السنوات الأخيرة، لم يعد ممكنا، خاصة، حين يعود النصح الذي نهبه لأحدهم بحكم الخبرة الطويلة، في شكل غضب وتهجم واتهام قديم يتجدد مع كل جيل جديد، وهو أن الجيل السابق، ضد

الحداثة ، وما يزال يعض على إنجازاته القديمة ، رافضا تغييرها .

بالطبع هناك استثناءات لا بد من الإشارة إليها ، أي هناك من يستمع للنصح ، ومن يرتقي بكتابته مستفيدا من خبرة الذين سبقوه ، وتوجد بالفعل إشراقات عديدة ، ومبشرة ، وسط هذه الهجمة الكتابية ، والذي يقرأ لوجدي الكومي وأحمد عبد اللطيف ، ومحمد ربيع في مصر مثلا ، ولسمير قسيمي في الجزائر ، ولينا الحسن في سوريا ، ومنصور الصويم في السودان ، على سبيل المثال ، يدرك تماما ، أن المشاعل الإبداعية التي أوقدت منذ عرف العرب كيف يبدعون ، محمولة بأمان ، في أقلام هذا الجيل أيضا وستسلم لأقلام آمنة ، في كل جيل جديد .

وحتى لا يظن كاتب من الذين يملأون الساحة الآن بأنني أقف بالكتابة في طريق مسدود ، ولا أود أن تتجاوزه إلى أبعد من ذلك ، فإنني أردد ما رددته مرارا ، وهو أن ما أكتبه بخصوص الكتابة في أي منبر لدي فيه ركن ، رأي شخصي ، ولست مخولا لتقييم النتاجات المطروحة بشكل يومي ، ويصلني صداها إلكترونيا كما ذكرت ، كما أنه أصبح من الصعب متابعة كل ما له علاقة بالعملية الإبداعية ، متابعة دقيقة ، فقط أتحدث بلسان القارئ الذي عاش سنوات ، يحاول أن يحصل على المعرفة ، ولم يحصل عليها حتى الآن .

أعود لتخمة بريدي الإلكتروني شبه اليومية ، ولا أدري هل

يدرك من يرسل إنتاجه إلى أي شخص له علاقة بالكتابة ، أن هذا الشخص ، قد لا يجد وقتا لمطالعة ما أرسل إليه ، وإن وجد وقتا وطالع شيئا ، فقد لا يجد وقتا للرد ، أو لكتابة تقديم ، أو حتى إبداء نصح أو فكرة؟ ذلك أن لديه ما يشغله بالتأكيد ، وكم من مرة أتيحت لي فرصة ، قرأت فيها بعض الكتابات واقتنعت بجودتها لو تم تحريرها ، وإضافة أو حذف فقرات منها ، وودت أن أخبر مرسلها ، لكن لم أستطع ذلك ، ثم لتنتشر تلك الكتابات بهيئتها غير المعدلة ، ويبدأ صاحبها في التألق وسط أصدقائه أولا ، ثم وسط معمعة معارض الكتب وضجيجها ، ويبدأ في مهاجمة الكتاب القدامى ، الذين حاولوا إغلاق الطريق عليه وأخفقت محاولتهم .

في الأسبوع الماضي ، أرسل لي أحدهم قصة قصيرة جدا ، من تلك القصص التي تسمى ومضات ، وانشغل بها البعض هذه الأيام ، وأعني من لا يملكون وقتا لصياغة الرواية ، وهي موضة هذا العصر كما نعلم . هذه الومضات غريبة حقا ، ومتعجلة كثيرا في اختراع حدث وتأجيجه وإخماده في سطر أو سطرين . هناك من يكتبها بوعي وفن ، وهناك من يكتبها بطريقة : (بختك يا بخيت) ، أي كيفما اتفق ، وربما تأتي رائعة وتعجب الناس ، أو سيئة ، ولا تلفت النظر . ولطالما استغربت من قصص تتحدث عن بومة ، ظلت تنعق في الليل حتى نشف صوتها ، ولم ينته الليل ، مزارع استيقظ في منتصف

الليل، وابتدأ يحرث لحافه، وينتف منه القطن، وامرأة زوجوها لرجل مسن، طويل القامة، فأمسكها من رأسها وتوكأ بها حتى باب المسجد، وبائع خضروات متنقل، نسي اسم البامبا، فسماها بامبو، ليقفز عليه كرسي من خشب البامبو كان موضوعا مصادفة في الطريق، ويضربه.

هذه الأفكار غير المرتبة، والعبثية، والتي لا جدوى من حكايتها، لماذا لا يتم النظر إليها بتأن، لماذا لا يعطف عليها الكتاب فيمنحونها جزءا من وقتهم والكثير من عنايتهم، لتغدو قصصا حقيقية، من ذلك النوع الذي يكتبه العظيم: جار النبي الحلو، مثلا، أحد عباقرة القصة الذين لم يتم إنصافهم يوما، أو المغربي أنيس الرافعي، الذي يحكي لك قصة تشبه الأغنية من شدة جمالها، وكثيرون من أجيال مختلفة؟ المرأة التي تحولت إلى عصا للتوكؤ تحتاج إلى ماض وحاضر ومستقبل، الرجل المسن من الممكن جدا أن يتمرد على ضمور الشيخوخة ذات يوم، فتفقد العصا وظيفتها المخترعة،، وتعود إليها وظيفتها الكلاسيكية المعروفة، والمزارع الذي استيقظ ليحرث لحافه، كان من الممكن أن يمشي نائما حتى حقله، ومن الممكن أن يلتقي بجنية هناك، ويغرق في حب مجنون، هكذا، كلما اتسعت رقعة الحكاية، اتسعت رقعة المتعة بها، وأمكن إضافة بهارات من كل نوع.

بالنسبة للقصة التي وردتني الأسبوع الماضي، في بريدي

الإلكتروني ، فقد كانت لكاتب من الذين يكتبون هذه القصص اللاسعة ، بلا أثر للسع حتى يبقى فترة في الذهن ، واعتاد منذ أربع سنوات ، أن يرسل لي يوميا رسالة فيها خمس قصص ، ولا ينتظر مني ردا ، ولم أكن أرد ، وأكون صريحا بأنني قلما قرأت تلك القصص ، ولا أدري لماذا فعلت ذلك في الأسبوع الماضي ، لأفاجأ بهذه القصة التي تحمل عنوانا مربكا :

«زعانف لسمكة كبيرة جدا وبلهاء تقيم في البيت الثاني على اليمين في شارعنا العامر بالكسل والأشجار الظليلة» .

كانت القصة عن امرأة عجوز ، اعتادت أن تنام عارية . هذا كل ما في الأمر ، ولا توجد أي إضافات ، وكتبت القصة في سطرين ، أي بحجم العنوان نفسه . هنا رددت على المرسل لأول مرة ، ووضحت وجهة نظري ، بشأن عنوان فضفاض ، لقصة صغيرة جدا ، أي كأنما ألبست طفلا ثياب أبيه ، فرد المرسل مباشرة بأن اتهمني بالتقليدية ، وأنني ضد الحداثة .

الكتابة والخلود

في نقاش مع صحافية غربية ، ذكرت لي أن معظم من حاورتهم من الكتاب ، وسألتهم عن روايتهم التي يعتبرونها خالدة ، من جملة أعمالهم ، أخبروها بأنهم لم يكتبوا الرواية الخالدة بعد ، وأنهم ساعون في كتابتها ، ثم سألتني الصحافية شخصيا عن روايتي الخالدة ، إن كنت أؤمن بتلك الصفة ، وما هي المواصفات التي ترتفع بعمل روائي ما ، لتضعه في مصاف الخلود ، بينما تظل أعمال أخرى للكاتب نفسه ، عادية في نظره ، أو حتى أقل من العادية؟

في الحقيقة ، دائما ما يأتي الإبداع بأقوال أو أفعال ترافقه ، ولا ينجو من ترديد تلك الأقوال معظم الكتاب ، لتعتبر أقوالهم في ما بعد ، حكما يتناقلها الناس في صفحات التواصل الاجتماعي ، أو المدونات ، أو توضع مقدمات لتصدير الكتب ، وقد قرأت مرة للتركي أورهان باموق ، أنه لم يكتب روايته التي تبقى لأمد طويل بعد رحيله ، وتكتسب صفة الخلود ، على الرغم من أن باموق كتب بشراسة عن بلاده ، ولم يترك في رأيي أي قضية يمكن طرحها في عمل إبداعي ، إلا طرحها ،

وتأتي روايته «ثلج» ، في مقدمة الروايات التي ناقشت الدين والتدين ، والجماعات التي تتبنى الإسلام السياسي ، بأسلوب راق لم يسئ ولم يتهجم ، لكنه يطرح الأفكار ويناقشها ، كما أنه كتب مجتمع أسطنبول وتاريخها وجغرافيتها ، في رواية مثل «اسمي أحمر» ، وفي كتاب مقالاته الجميل «ألوان أخرى» ، ناقش كل ما يمكن إلصاقه بالكتابة ، من قوة أو وهن ، من جماليات أو قبح ، وهكذا ، يمكننا اعتبار تجربته ، من التجارب المهمة والمتجددة والسائرة بخطوات ثابتة نحو الخلود .

أيضا ذكر كاتب آخر ، لا أذكر من هو بالضبط ، أن ما فعله طيلة السنوات الماضية ، في كتابة الروايات ونشرها ، كان مجرد تحمية لأفكاره الحقيقية التي لم تطرح بعد ، وينوي طرحها أخيرا . وعلى هذا المنوال دائما ما يفاجئك بين الحين والآخر ، من يردد هذا الكلام ، بينما تكون تجربته قد مضت وانتهت ، خلد منها ما خلد ، وضاع منها في النسيان ما ضاع .

السؤال وجه لي ، كما ذكرت ، وقد رددت على المحاورة ، أنني لا أؤمن بتفصيل حظوظ للروايات التي أنتجتها المخيلة نفسها لكاتب ما ، وكتبت بالأسلوب نفسه الذي يكتب به عادة ، بحيث نلبس عملا ما ثيابا مبهرجة ، ونحيطه بقلادات الورد ، بينما نترك آخرين جياعا حتى من كلمات الإشارة إليهم ، وبالتالي أعتبر بعض أعمالي قد تحملتني أكثر من غيرها ، ورضيت بالأفكار المتشابكة التي دلقتها فيها ، لكن لن

أصفها بأنها خالدة أو غير خالدة ، ولن أقول بأنني أنتظر أن يأتي نصي الخالد بعدها .

طبعا من الممكن جدا ألا يأتي للكاتب أي نص بعد نصوص كثيرة ، ليصبح خالدا أو غير خالد . أعمالي الشخصية كلها أعمال أعتز بها ، وأصادقها وأعود إليها من حين لآخر ، لأتذكر أجواء كتابتها ، وماذا يمكن أن أضيفه لو أعدت كتابتها من جديد؟ بالنهج نفسه ، لم يذكر ماركيز أي شيء عن خلود النص ، وإنما تحدث عن نصه المهم في رأيه ، وفي ذلك لم يثبت على نص معين ، فكان في كل مرة يذكر رواية ما بوصفها أهم ما كتب ، وبالتالي كان رائعا في تحيته لنصوصه ، وإلباسها الثياب المبهرجة بالتعاقب .

سؤال آخر ، للذين يؤمنون بأنهم لم يكتبوا نصهم الخالد بعد ، ولهم عشرات النصوص المكتوبة والشهيرة؟

ما هي مواصفات النص الذي يظنونه سيبقى بعد موتهم؟ ومن أين يأتي بعظمته؟

الإجابة هنا لن تكون دقيقة ، أو لن تكون مشبعة ، لأن التجارب الإبداعية ، تبدأ أفكارا صغيرة في ذهن المبدع ، وتتطور بعد ذلك ، لتنضج ، والكاتب يستوحي أفكاره من البيئة التي يعيش فيها ، وغالبا ما يكتب خبراته الأولى ، في بداياته ، ثم يفارقها بالتدريج ، ليكتب خبرات أعلى ، أو يعتمد على المخيلة ، في اقترابه من الواقع وابتعاده . إذن هو يصنع عوالمه ، وسيظل

يدور في تلك العوالم، يرسم الشخوص ويمحوها، يبني البيوت ويدمرها، ويصيغ المجتمع الموازي، الذي لن يكون غريبا عن مجتمعه كما ذكرت، ومن قراءاتي المتعددة لكتاب من شتى بقاع العالم، لم أجد كاتبا واحدا، شذ عن القاعدة، أي لم يكتب خبراته الأولى، التي تبدأ من الطفولة، لتتلكأ كثيرا في أيام المدرسة الابتدائية، والصداقات التي عقدت، والمدرسين، ومدير المدرسة، والسخرية من مدرس الجغرافيا، والطلاب الأذكياء والكسالى، ثم فتاة الجيران التي ينتظرها راو ما في طرق الحياة، وطرق النص، ليغازلها، مجتمع بيت الراوي، ثم المجتمع الأكبر، وهكذا، وجدت تلك الخبرات عند باموق، وبول أوستر، وأمين معلوف، وغيرهم، وحتى عن الإندونيسي أندريا هيرتا، الذي كتب رواية عظيمة عن بلاده، اسمها، «عساكر قوس قزح»، ومنطلقا أيضا من تلك الخبرات التي ذكرتها.

إذن هذه هي عوالم الكتابة، التي ستصبح عوالم ثابتة لدى الكاتب، مهما تغيرت الفكرة، وتطرقت لموضوع مختلف في أي كتاب مقبل، وبالتالي لا يوجد كتاب سيخرج منها مسلحا بأدوات يمكن تسميتها أدوات خلود.

الذي كتب رواية «ثلج»، و«الحياة الجديدة»، و«اسمي أحمر»، وأعني أورهان باموق، قد يكتب روايات أخرى، هي رواياته السابقة نفسها مع اختلاف الفكرة، والذي كتب: «حنا

وميخائيل» ، و«قصة عن الحب والظلام» ، وأعني اليهودي عاموس عوز ، قد يكتب قصصه العنصرية الجديدة ، بالأدوات والملابس والمكياج نفسها ، والذي كتب وأبدع سنوات ورحل بعد ذلك ، لا يحتاج لمن يجلس ويغربل أعماله ، ليقول هذه الرواية خالدة ، وهذه يجب إلقاؤها في سلة مهملات التاريخ .

أخلص من كل ذلك ، إلى القول بأن الأقوال التي تردد بالترادف مع الكتابة ، ولكتاب مشاهير ، وأعثر عليها دائما تتنقل في المدونات والصفحات الشخصية ، ومواقع التواصل ، لا تعني أكثر من كونها كلمات رددت ذات يوم ، ومن المفترض أن لا تؤخذ على محمل الجد ، والأفضل منها تلك العبارات التي ترددها الشخوص داخل النصوص ، فهي أفكار الكاتب الحقيقية .

الترويج بطريقة أو بأخرى

بالطبع أي إنتاج إبداعي، في جميع المجالات، يحتاج لترويج جيد، حتى يصل للذين سيبتهجون به حالما يسمعون عنه، وأيضا لبعض المترددين، الباحثين عن سند قوي يشدهم إليه، وهكذا تبدو صناعة الإبداع مكتملة بالترويج الجيد، وناقصة كثيرا إذا ما ترك هكذا بلا أي سمعة تقدمه للناس.

وإذا ما تعرضنا لبعض جوانب الإبداع، مقرونة بالترويج، نجد أن اللوحة الفنية العظيمة، تنادي عشاق الفن، لو وضعت في أي معرض، حتى لو كان داخل زقاق، صناعة الدراما والأفلام السينمائية، وألبومات الغناء، يروج لها بشدة، رغم عدم حاجتها للترويج الكثيف، حيث إنها صناعات مطلوبة، ويبحث عنها الناس باستمرار، ثم تأتي صناعة الإبداع الكتابي، لنجد أنها الأضعف من حيث لفت النظر، خاصة في هذه الأيام التي لم يعد فيها النظر، حادا ومسترخيا ليلتفت إلى أبعد من حوادث اليوم الكثيفة.

لكن ما دمنا نصنع كتبا من نتاج مؤلفين، حتى اليوم، فلا

بد أن نروج لما نصنعه ، وإذا أبعدنا المؤلف من المسألة ، بوصفه مؤلفا فقط ، ولا خبرة له بالترويج أبعد من صفحة ينشئها على موقع من مواقع التواصل الاجتماعي ، أو تغريدة يكتبها في تويتر ، أو خبرا يوزعه هنا وهناك ، عن كتاب صدر له ، تظهر أدوار أخرى لا بد من تفعيلها ، من أجل أن يأخذ الكتاب حقه كاملا ، ولا يحس مؤلفه بالظلم ، حتى لو لم يبع نسخة واحدة .

في الماضي كانت المكتبات هي الجهات المسؤولة عن ترويج الكتاب ، هي التي تفرد له مكانا جيدا في المكتبة ، بعد أن يقرأه صاحب المكتبة ويقتنع به ، وهي التي تنادي كل من يدخل المكتبة ويقلب في الكتب ، لتخبره عن كتاب ما ، وصل حديثا ويستحق القراءة ، وأعرف صاحب مكتبة في بورتسودان ، المدينة التي نشأت فيها ، يطوف على أشخاص يعرفهم ، ويعرف عشقهم للقراءة ، ليوزع عليهم كتبا جيدة ، وصلت لمكتبته ومنعهم انشغالهم من المرور لشرائها ، ويمكن أن يترك الكتب بكل ارتياح ، ويأتي في ما بعد لاستلام ثمنها ، وكانت بالفعل طريقة اعتبرت جيدة في ذلك الوقت وكلنا استفدنا منها ، من ناحية إشباع جوع القراءة واكتساب المعرفة المطلوبة ، لمنازلة الحياة المستقبلية . ولأن المكتبات ما عادت أماكن مفضلة لقضاء الوقت أو التسوق أو النزهة ، لمعظم الناس ، فهي لم تفقد دورها الريادي فقط ، بل تحول معظمها وفي جميع البلاد العربية ، إلى مطاعم للفول والطعمية ، أو أماكن لبيع

الآيسكريم ، أو مكاتب سفريات ، تنظم الرحلات للمسافرين ، وإن وجدت مكتبة ما تزال قائمة رغم معاناة صاحبها ، فلا بد من قسم كبير لبيع أدوات القرطاسية من أقلام وأوراق ودفاتر للتلاميذ ، وقسم خجول لبيع بعض الكتب التجارية ، مثل التي تتحدث عن أحلام الثراء ، وكيف تصبح مديرا ناجحا ، أو كيف تبرزين جمالك وأنت في الخمسين؟ ولكن ومع كل ذلك ، وإحقاقا للحق ، توجد مكتبات كبرى مثل جرير والجرودي وآفاق ، في كثير من البلاد العربية ، ما زالت تهتم بالكتاب بجانب اهتمامها بوسائل التكنولوجيا الحديثة ، فقط فرص أن يجد مؤلف كتبه بين معروضاتها ، تعتبر نادرة لا يحظى بها مؤلفون كثيرون ، ذلك نسبة لازدياد الكتب التي تنشر سنويا ، بصورة كبيرة ، واقتصار البيع على بعضها فقط .

ويبدو أن انحسار دور المكتبات الواقعية ، قد صنع دورا جديدا لمكتبات إلكترونية ، أو حوانيت افتراضية لبيع الكتب ، وهي عبارة عن صفحات تعرض فيها أغلفة الكتب وأسعارها ، وكيفية الشراء منها ، وخدمة التوصيل للمنازل ، وأعتقد أنها خدمة ممتازة ، وشبيهة بالخدمات الغربية التي تؤدى للكتاب ، فقط نحن في الوطن العربي ما زلنا نستخدم الإنترنت بحياء ، ومعظم أبناء الجيل القديم ممن يهوون القراءة بحق ، لا يدخلون الإنترنت إلا نادرا ، وغالبا لا يجيدون حيلها الكثيرة والمتشعبة ، وقد جربت مرة ، قبل ثلاثة أشهر ، أن أطلب كتابا من موقع

كتب عربي ، واتبعت الطريقة الموجودة للطلب ، لكن الكتاب لم يصل حتى الآن .

إذن ، وفي حالة أن وصل كتاب محظوظ لمؤلف إلى رفوف واحدة من المكتبات التي ما زالت تهتم بالكتب وتدللها إلى حد ما ، ماذا يحدث؟

بحسب مشاهدتي ، من ترددي على المكتبات ، لاحظت ثمة تفرقة في عرض الكتب ، ويمكن اعتبارها تفرقة في الترويج للكتب ، وبناء عليها ، يكسب كتاب ويخسر آخر ، فهناك كتب معينة لا تفارق الواجهة أبدا ، مهما ابتعد تاريخ صدورها ، وصدرت بعدها كتب أخرى ، كتب لا تفارق الظل الوارف تحت لافتة مكتوب عليها : الأكثر مبيعا ، حتى لو لم تكن كذلك ، وكتب تحتاج لعدسات مكبرة حتى تعثر عليها ، مخبأة تحت كتب أخرى ، أو داخل رف عميق ، تنتشلها منه ، وفيها كتب لمؤلفين أثروا الكتابة بشكل رائع ، وأثروا في الأجيال كلها ، وقطعا سيكون الأمر مؤلما حين لا تجد كتب توفيق الحكيم ، ويحيى حقي ، ودواوين صلاح عبد الصبور والفيتوري ، في المقدمة ، وتضطر أن تبحث عنها وتستعين بموظف غالبا لا تجده هو الآخر ، من أجل أن تحصل عليها . صحيح أن أولئك المؤلفين رحلوا ، لكن الإبداع الحقيقي لا يرحل والأجيال المتعاقبة ، ينبغي أن تربط بخيط الإبداع ، ولا ينقطع ذلك الخيط .

أنا أفهم أن صاحب المكتبة ، أو الشركة المالكة للمكتبة ،

في حالة المكتبات الكبرى ، تريد الربح من أسماء تعودت على جلب الربح ، لكن لا بأس من الإمساك بقوانين الترويج بنزاهة ، وإعطاء فرصة لأسماء أخرى حقيقية ، قطعا إن منحت لها ، ستجلب الربح هي الأخرى ، في المستقبل .

لقد عرفت مؤخرا أن هناك وظيفة في الغرب ، تعمل مع وظيفة الناشر ، من أجل الكتب ، وهي وظيفة مدير الدعاية لكتاب ما ، هذا وظيفته أن يستلم الكتاب المطبوع قبل طرحه للبيع ، في المكتبات أو المواقع الإلكترونية ، بفترة كافية ، ربما تكون شهرا أو عدة شهور ، ويبدأ في إرسال النسخ لمحررين ثقافيين ، وقراء موثوق في نزاهتهم ، من أجل الحصول على مراجعة للكتاب ، ومراجعة الكتاب في الغرب ، من أهم الوسائل التي يدخل بها القراء على كتاب ما .

عموما نحن نمضي بأقدارنا ، هناك من يكتب لأن قدره أن يفعل ذلك ، وهناك من يقرأ ، لأن في دمه عشقا للقراءة ، وهناك من يتابع أو لا يتابع ، ونتمنى دائما أن يزدهر كل ما هو جدير بالازدهار .

الهوس والنصائح

تلقيت منذ فترة ، وبالتحديد بعد يوم واحد من إعلان نتائج مسابقة كتارا للرواية العربية ، في قطر ، وفوز عدد من الشباب الموهوبين خاصة في فئة الرواية غير المنشورة ، بجوائز قيمة ، وفرص عظيمة للانتشار داخليا وخارجيا عن طريق الترجمات المختلفة ، في تلك الجائزة التي ولدت كبيرة بلا شك ، وأيضا مضيئة بشدة ؛ تلقيت أكثر من خمس رسائل ، كلها من أشخاص لا أعرفهم ولا علاقة لهم بالحقل الثقافي الذي أعمل فيه من زمن طويل ، وبينهم فتاتان ، تعمل إحداهما مصممة ديكور في شركة صغيرة ، والأخرى ممرضة في مستشفى حكومي ، بينما الشبان الثلاثة ، لم يذكروا إن كانوا يعملون أم لا؟

كانت الرسائل قصيرة ومقتضبة ومليئة بالأخطاء ، لكنها جميعا اتفقت على أسئلة محددة ، تكررت في كل الرسائل ، وإن كانت بصيغ مختلفة :

ما هي الشروط التي يجب توفرها فينا ، حتى نفوز بجائزة كبرى مثل جائزة كتارا للرواية العربية؟

كيف نكتب رواية جيدة تحقق الفوز؟

ما هي نصائحك لنا؟ وكيف تأتي الأفكار العظيمة ، التي تصنع نصوصا ، تكسب الجوائز؟

وكان ثمة سؤال واحد ، ذكرته الممرضة ، ويبدو أنها استوحته من عملها . كانت تسأل عن تقييمي لفكرة قصة ، تدور بين مريض في العناية المركزة ، مصاب بعدة جلطات في المخ ، تجعله يستجيب بتحريك عينيه فقط ، وبين ممرضة تشرف عليه ، وأحبته بجنون . كانت تسأل عن كيفية ملء هذه الفكرة ، وتحويلها لرواية .

من هذه الأسئلة التي أوردتها ، وكتبت بصيغة أو بأخرى كما ذكرت ، يتضح لنا جليا ، ذلك الطموح المختل للحصول على كسب ما ، بأي طريقة ، والذي بات مسيطرا على الناس ، في زمن اتسعت فيه رقعة الظلم بدرجة كبيرة ، وسيطر ضيق العيش على حياة الناس ، ولم يعد ثمة مكان إلا وتفور بداخله صراعات ، وحروب ، وفتن ، ويسيطر إصرار غريب على كل من يقاتل خصما ربما ليس خصما حقيقيا ، أن ينتصر بسحقه .

في الماضي ، وحتى عهد قريب ، كانت البلاد العربية في معظمها ، على فقرها وقلة مواردها ، وحيلها ، تنعم باستقرار كبير . كانت ثمة وظائف يستيقظ الآباء من أجلها باكرا ، يذهبون إليها ، يملأونها أو يقصرون في ملئها ، لا يهم ، لكن يعودون في آخر الشهر بما يمنح العائلة خبزا وطعاما ، وحياة

تمضي رغم كل شيء . كانت ثمة مدارس ، تستأصل الجهل بجدية كبيرة ، ومجتمعات جيدة التأسيس ، وعريقة في التواصل وقاسية في تدريسها للأفراد ، تعلم النبل ، ومحبة الجار ، وإكرام الضيف ، والسعي في عمل الخير ، في أي وقت . وأذكر في تجربتنا في السودان ، تلك الخصال الطيبة ، التي مجدتها الأغنيات الشعبية المتوارثة ، حين كان الجار أبا فعليا لكل أبناء جيرانه ، في الحي الذي يسكنه ، الأم الجارة ، أما أيضا للجميع ، والصوت الغاضب الذي يصيح به أب على ابن ارتكب ذنبا في أحد البيوت ، هو الصوت نفسه الذي سيسمعه ابن الجيران المخطئ ، ويرتدع . أيضا كان المعلم في أي مرحلة من مراحل التعليم ، رمزا حيا ، للعصا كاملة الصلاحيات ، التي تهش التصرفات غير المرغوب فيها ، والأداة الجيدة التي تلتقط التصرفات المطلوبة ، توزعها للتلاميذ . ومن تلك التصرفات الجيدة بلا شك ، كان حب المعرفة ، والتطلع للمستقبل بعقل ممتلئ ، وعينين مفتوحتين ، تدركان العتمة ، وتضيئانها ، وفي النهاية ، صناعة حيوات مستقبلية كاملة ، من دون الحاجة إلى انتظار المستقبل لمواجهته أولا ، ثم التصدي لصعوباته .

إذن كان كل مكسب ، مهما كان بسيطا ، هو مكسب حقيقي ، مكسب عن مجهود ودراية ، وليس عن تطلع أحمق ، ومجاراة للسائد . كان هناك بالطبع من يكتب الشعر ، من

يكتب القصة ، وقليلون جدا كانوا يكتبون الرواية ، وكل هؤلاء كانوا كتابا لم يجلسوا على طاولات الكتابة ، إلا بعد أن قرأوا آلاف العناوين ، وفي الأدب والدين والتاريخ ، وتعلموا الحكمة من تل الكتب ، وبعد أن تأكد لهم تماما ، أنهم ممتلئون بجرثومة الكتابة ، وقد يموتون إن لم يكتبوا . ولا أعتقد أن كتاب الجيل الذي عاصر التقاليد الملهمة ، طارد الأفكار ، وعجز عن ملئها ، وراسل أحدهم يسأله ، كيف يملأ فكرة بالسرد؟ كانت الأسئلة في ذلك الوقت ، مجرد ملاحظات ، من كتاب متمكنين ، يلتقي بهم الكاتب المبتدئ في مقهى ، أو قاعة نشاط أدبي ، وتأتي تلك الملاحظات ، بعد كتابة النص ، وتحريره من الأخطاء ، وطباعته بالآلة الكاتبة ، أو نسخه بخط جيد ، مثل : ضرورة بتعديل تقنية ما ، أو حذف ثرثرة لا داعي لها وردت في النص ، أو زيادة إيضاح فقرة غامضة . ونتيجة لذلك الزخم العظيم ، وتحمل كل طرف في الحياة ، مسؤولياته كاملة ، كان كل شيء يمضي منتظما ، ومتقبلا ، الخير يأتي ويتم تقبله بوعي ، والشر يأتي بالطبع أيضا ، ويتم تقبله ، وفي مجال الكتابة ، الذي أتعرض له الآن ، كان معظم من كتبوا ، أجادوا استخدام أدوات الحياة ، وحتى الذين كتبوا قصصا واقعية ، أو رومانسية ، كانوا يجيدون استخدام الأدوات التي اختاروها ، لبناء إبداعهم بها .

بالنسبة للجوائز ، فقد كانت موجودة ، بحسب الأعراف

التي تفصل الجوائز في كل زمان . نعم كانت ثمة جوائز كبرى ، هي الجوائز المعنوية ، ذلك ببساطة أن الزمن المعنوي كان يصنع جائزة معنوية ، يمنحها أيضا لمن يستحق ، ويتقبلها الذي منحت له ، بالأحضان نفسها التي يتقبل بها ، من يعيش في هذا الزمن ، جائزة كبرى منحت له من أجل نص أنجزه . ودائما ما أذكر قصيدتي الأولى التي كتبتها بالعامية ، وكنت طالبا في الصف الأول الإعدادي ، وقارئا لكل ما أحصل عليه من كتب ، في شتى أنواع المعرفة ، وكنا نعيش في مدينة الأبيض ، في غرب السودان . قصيدة اسمها «خيانة الدمعة» .

لقد نسخت بالآلة الكاتبة عشرات النسخ من تلك القصيدة ، طفت بها على جميع الأصدقاء الذين تعرفهم العائلة ، وعلى زملائي في المدرسة ، والمعلمين ، وحصدت جائزة كبرى ، كانت عبارة عن إيقافي أمام التلاميذ ، في طابور المدرسة الصباحي ، وأوامر من مدير المدرسة ، بالتصفيق الحاد ، لطالب كتب قصيدة . إنها جائزة منعتني من النوم ثلاثة أيام كاملة ، وحفزتني بشدة على كتابة قصائد أخرى غير «خيانة الدمعة» ثم ليأتي عهد كتابة الروايات بخيره وشره وجوائزه وخساراته . وبهذه المعطيات نفسها ، وأعني بها الجائزة المعنوية ، تم تكريم زميل طالب ، في المدرسة نفسها ، اسمه عبد الله ، كان عازف كمان مدهشا ، وعظيما .

كيف إذن تملأ فكرة عن مريض معطل الحواس بلا وسامة ،

ولا أمل في النهوض من جديد ، تعشقه ممرضة شابة في مستشفى حكومي؟ كيف تملأ فكرة عن مصممة ديكور ، تقوم بعمل الديكورات الداخلية لحظيرة مواش ، يسكنها قطيع من الأغنام؟ كيف تكتب رواية تستقطب جائزة كبرى ، بقلم كاتب لم يقرأ كتابا في حياته ، ولم يكتب إلا بعد أن سمع عن جوائز الكتابة التي ظهرت مؤخرا؟ وكيف نواجه هذا الزمن بمحاولة كسب حقيقي ، وليس محاولات الكسب من أنشطة لا نجيدها ، ويجيدها آخرون؟

إنها معضلة حقيقية ، ولست مؤهلا لمنح النصائح ، وحتى لو منحتها ، فليس هناك من سيستمع لنصيحتي ، الكل يركض بحسب قوانين هذا الزمان .

سؤال غربي

منذ فترة سألني قارئ إنكليزي ، عن رأيي في روايات الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي ، هل كانت ستكون أفضل أم أسوأ لو أنها كتبت الآن؟

أيضا سألني قارئ آخر ، لا أعرف من أين ، لكنه غربي ، إن كنت أشعر برهبة ما حين أقرأ رواية كلاسيكية مثل : «يوليسيس» ، و«ذهب مع الريح» أو «الحارس في حقل الشوفان» ، ومنذ يومين سألتني قارئة إنكليزية ، عن تخيلي لشكل كتابتي ، إن كنت موجودا ، وكتبت في فترة الخمسينيات والستينيات ، من القرن الماضي؟

حقيقة ، هذه أسئلة تتشابه كما هو واضح ، وتدور حول محور واحد ، هو محور المقارنة بين الكتابة بالحبر الكلاسيكي القديم ، والحبر التقني الجديد ، الذي نكتب به اليوم رواياتنا ، إن صح التعبير . أسئلة عن الماضي والحاضر ، ويمكن بسهولة أن نستخرج منها أداة الحنين ، أو سلطته ، تلك التي ترافق الناس في أي وقت وأي مكان . دائما هناك ثمة عالم قديم جميل ، وعالم معيش بشع ، نزينه بتخيل القديم ، الذي كان حاضرا

لدى البعض ، وبشعا أيضا في وقته ، والذين يشاهدون أفلام السينما القديمة التي صورت في منتصف القرن الماضي ، وقبل ذلك ، ويشاهدون الشوارع النظيفة ، شبه الخالية من الضجة ، والسيارات التي يقودها سائقون يرتدون حللا براقة ، ويفتحون الأبواب وهم منحنون ، لتركب النساء المتأنقات ، أو ينزلن ، وغير ذلك من العادات التي ربما كانت سائدة وانتهت ، يرددون : الزمن الجميل ، ولن يتخيلوا أبدا أن الزمن ذلك ، لم يكن جميلا لدى بوابين ، يحرسون القصور ، وطهاة يرصون موائد العشاء ، وعمال يستهلكون طاقاتهم في الشمس ليحفروا ويردموا ، ومتسولين ومشردين ، يجوبون تلك الشوارع ، بحثا عن رزق .

أعود إلى مسألة الكتابة القديمة والجديدة ، وتخيلي لكتابتي إن كانت في زمن الكتابات التي ذكرت أو قبل ذلك وبعده . بالطبع لكل زمن أدواته ، بعض الأدوات ، تستهلك ، وتمحي بانقضاء زمن ما ، بعضها يبقى ليرافق الكتابة إلى أزمنة تأتي ، وبعضها يتم اختراعه في كل زمان ، وهكذا ، تجدد الكتابة نفسها ، مع الاحتفاظ بمكتسباتها الجيدة التي ربما حققتها ، في أزمنة سابقة . ويبدو ذلك واضحا في الروايات التي تستلهم التاريخ ، حيث يقفز الكاتب إلى زمن بعيد ، محاولا استنطاق أدواته ، ووصف الحاضر المعيش آنذاك ، وأعتقد جازما أن كاتب اليوم ، مهما اجتهد في روايته

التاريخية ، وألبسها عتاقة الماضي في كل شيء ، يظل ثمة شيء ناقص ، هو الحياة التي لم يعشها الكاتب ، والمجتمع الذي لم يضمه كما ضم كاتبا آخر ، عاشه وتنفسه ، وكتبه في أعمال عدت كلاسيكية الآن . لذلك سأتخيل نصا حداثيا لماركيز مثل : «ذكرى غانياتي الحزينات» ، كيف كان سيكتب لو جاء في الفترة التي كتب فيها : «في ساعة نحس» ، مثلا؟ قطعا سيكون مسرح الكتابة ، بلدة صغيرة ، فيها بيوت من الخشب ، وقرويون بسطاء ، وأقاويل تتناقلها الألسنة ، وكنيسة مقامة على تل ، وراع للكنيسة ، يتحكم في سلوك السكان وأمزجتهم ، إلى حد كبير . سيكون بطل الرواية التسعيني ، الذي يذهب بثبات ، لمراقبة نوم الغانية الصغيرة ، في بيت تملكه امرأة ، تتقاضى الثمن ، سيصبح قرويا ، متوجسا ، يتلفت بحذر ، قبل أن يذهب في مشواره اليومي ، تصبح صاحبة البيت ، امرأة مراقبة من الجميع ، وتتحاوم سيرتها في المكان بلا توقف ، والفتاة النائمة ، سينحدر بها الحكي ، لتوصف بأنها قذارة ، ليست أصلا من القرية ، وإنما جاء بها الطريق .

هنا تنتفي حرية اختيار الحياة داخل النصوص ، تمحي كل المكاسب التي نالتها الشخصية الروائية ، لتوظف حسب معطيات الزمن الجديد ، حيث لا مراقبة ، ولا سيرة تلاك ، في مدينة لا يعرف الجار فيها ، ما اسم جاره ، ولا تلفت الفضيحة ، مهما كبرت ، إلا أنظار القليلين . ماركيز من الذين عاصروا

عقودا عدة ، بوصفه كاتبا مستمرا في الكتابة ، ولم يتوقف إلا قبل سنوات قليلة قبل وفاته ، لذلك ، كان يحمل قلما معبأ بحبرين ، حبر كلاسيكي قديم ، وحبر تقني حديث ، الحبر الذي أركب أبطاله القوارب الصغيرة في الأنهار ، والبحار الهائجة ، وذلك الذي أركبهم الطائرات النفاثة ، وأعتبر كتابه السيري : عشت لأحكي ، وذلك الذي كتبه الإنكليزي جيرالد مارتن بعنوان «سيرة ماركيز» ، من أقيم الكتب التي تجيب عن سؤال الكلاسيكية والحداثة .

بالنسبة للكتاب العرب ، يبدو الأمر مختلفا قليلا ، فالتطور موجود بالطبع ، والكتابة تواكبه ، لكن تظل نمطية الوصف سائدة عند كثيرين ، لم يتخلوا عنها ، تظل القرى ، إن كانت مسارح للكتابة ، هي نفسها القرى التي وصفت في زمن الشرقاوي وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، على سبيل المثال ، على الرغم من أن القرى الآن ، لم تعد تلك الحبلى بالنميمة ، ومراقبة سكانها لبعضهم ، واختراع الفضائح ، أو انتزاعها بالقوة ، من جيوب الكتمان . لقد دخل التلفزيون القرى منذ زمن ليس قريبا ، وجاء بتسلية بديلة عن مضغ الأقاويل ، دخلت الدراما ، وبرامج التوك شو ، دخلت الإنترنت ، وتقنية الهواتف المحمولة ، وأمكن لقروي ، في أي ريف ، من أي بقعة في العالم أن يحتك بالآخرين ، يطرح أسئلة ، ويدلي بإفادات ، وينشئ له ولعشيرته صفحات مطولة على الإنترنت ، يكتب

فيها كل شيء . القرى إن كتبت اليوم ، يجب أن تكتب هكذا ، قرى كونية ، وليست محلية في بلدانها .

بالنسبة لكتابة المدن العربية ، وألاحظها الآن ، في كتابات الشباب ، أو أولئك الذين من أجيال أقدم وما زالوا يكتبون ، فلا بد من كتابة علامات المدينة الآن ، في الماضي كانت العلامات مثلا : محطة للكهرباء يعمل فيها البطل ، مكتبا للبريد ، يستقبل الرسائل ويرسلها ، سينما تعرض أفلاما عربية وأجنبية ، ويغشاها الأبطال من حين لآخر ، وربما حديقة خضراء ، تمنح الرومانسية حضورا شيقا ، أما الآن ، فلا بد من علامات أخرى ، أهمها مولات التسوق العملاقة ، وأماكن بيع الهواتف المحمولة ، وكافتيريات متحررة ، تضم اللقاءات العاطفية ، وهكذا ، وقد كنت من المستفيدين من هذه الأدوات الحديثة ، التي ستصبح قديمة يوما ما ، في كتابة أجيال ستأتي ، وتتخيل زمننا القاسي ، المر هذا ، زمنا جميلا ، يتمنى المرء لو عاش فيه .

حظ المبخوت والرواية الأولى

كانت قد ، أعلنت في أبوظبي ، نتيجة الجائزة العالمية للرواية العربية ، المعروفة بين الناس ، بالبوكر العربية ، وحصل عليها هذه الدورة ، الكاتب التونسي الجديد شكري المبخوت ، بروايته : الطلياني ، من بين ست روايات تأهلت لها في القائمة القصيرة ، وكانت ثمة توقعات كثيفة ، وأشبه بالضغط من معظم القراء المتابعين لروايات القائمة ، نحو رواية «شوق الدرويش» للسوداني حمور زيادة ، التي وصفت بأنها الأجمل والأكثر فنية بين الروايات الست .

البوكر العربية ، منذ إنشائها وحتى الآن ، جائزة مثيرة للجدل ، وأحسب أن إثارة الجدل بهذه الطريقة المزعجة ، جزء من مميزاتها وطابعها ، وحتى جائزة مان بوكر البريطانية ، التي انبثقت منها النسخة العربية ، بجانب نسخ أخرى ، ما تزال تثير الجدل بأكثر من هذه الصورة ، رغم مرور عقود على إنشائها ، وفي كل عام حين تعلن القائمة الطويلة ، تعلن معها بوادر جدل صغير ، ما يلبث أن يكبر قليلا مع القائمة القصيرة ، ويتضخم تماما حين يعلن اسم الفائز .

نحن استوردنا خصائص الجائزة بلا شك ، مثل تلك الفرص العظيمة التي تتيح للفائزين أن يستمتعوا بنتاج كتاباتهم ، ويستقطبوا ذلك الإحساس العظيم الذي لا يحسه الكاتب العربي عادة ، وهو يكتب بإخلاص في مجتمع ليس قارئا جيدا ، ذلك حين تسافر نصوصه إلى لغات أخرى ، حين يترجمه الصينيون واليابانيون والكوبيون مثلا ، ويجلس في ركن زاه في أي بلد من البلاد البعيدة تماما عن خياله ، ليوقع كتابه للغرباء ، أو يلتقي في ملتقيات عالمية تضم النخبة من كتاب الغرب ، ويكون فردا في هذه الملتقيات يتحدث عن أدب العرب بلا أي إحساس أنه تطفل على أحد ، أو سرق وقتا من أحد .

نعم فالبوكر العربية ، كفيلة في رأيي ، عند الحصول عليها ، بإعالة النص حتى لو كان دون المستوى ، بترقيته إلى نص عالمي في أشهر قليلة ، وبالطبع يساهم الجدل المقرر من ضمن مزايا الجائزة ، في توزيع الكتاب بصورة مشرفة ، حتى الذين لا يقرأون ، تجدهم يقتنون رواية فازت بالبوكر ، ويضيفونها إلى مكتباتهم العامرة بكتب ربما لم تقرأ ، ولن تقرأ في أي يوم من الأيام . .

ولأن الجائزة ، حسناء هكذا ، وخلابة هكذا ، ولا تشبه الجوائز العربية الأخرى ، التي قد تفوقها في القيمة المادية ، مثل جائزة الشيخ زايد ، في الإمارات ، التي تأتي صامتة ، ولا يحدث النص الحاصل عليها أي صدى تقريبا ، فقد ازدادت

كمية الروايات التي تكتب كل عام من أجل أن تقدم للبوكر، ازدادت أعداد دور النشر التي تنشر الصحيح والمعافى، بجانب الوعكات والمرض، وتحول الناس بجميع طبقاتهم وانتماءاتهم ومستوياتهم التعليمية، إلى كتاب للروايات، التي ستحاول وتحاول أن تدق أبواب البوكر، عسى ولعل.

هذا الكلام بالطبع لا ينطبق على كل الأعمال المقدمة، أو المكتوبة بواسطة كتاب يجربون كتابة الرواية لأول مرة، فدائما ما يوجد كتاب جدد وكتاب قدامى، ودائما ما توجد خبرات تنتقل من جيل إلى جيل، ويوجد وسط ذلك كتاب من جيل موجود ومترسخ في ساحة الكتابة، يكتبون لأول مرة، ويكتبون نصوصا بديعة، وهذا ما يحدث كثيرا في أوروبا وأمريكا، ويحدث عندنا، وشكري المبخوت، لا بد قدم رواية ناضجة، وسلسة أهلتها للترشح للبوكر، والتفوق على روايات كثيرين، موجودين منذ زمن في سكة البوكر، ولم تلتفت إليهم.

رواية المبخوت بجانب موضوعها، الذي يتحدث عن طالب يساري، عانى في زمن مظلم، عن فتنة الجسد، وجمر الانتماء، وفساد أنظمة الحكم، وهي تيمات تكاد تكون مألوفة في الكتابة العربية من كثرة ما تناولتها، إلا أنها محظوظة بلا شك، فليس الجودة وحدها كافية لتمنح نصا ابتسامة، ونصا آخر، ملامح عابسة، ولطالما كنت وما زلت أردد: أن المسألة أذواق تتحكم في عملية الاختيار، وحظ جيد، يدفع بالنص

إلى الأمـام ، وإن كـانت منافسـتـهـا : «شـوق الدرويش» التي تحـدثت أيضـا عن القـهـر في زمن مـا ، وعن العـشق ، وكـتـبت بفنيات عالية ، ونالت بالإضافة إلى ذلك ، استحسان معظم قراء هذا العام ، الذين ينتظرون قوائم البوكر سنويا ، لينشغلوا بهـا ، إلا أن الحظ لم يكن قـويا ، وبالتـالي ظلت رواية جـيـدة تستحق القراءة ، بينما رواية المبخوت رواية جيدة ، ضمها الحظ وابتسم .

حقيقة لم أقرأ روايات القائمة كلها ، وبالقطع توجد روايات جيدة وسطها ، وأسمعهم يتحدثون عن «طابق ٩٩» للبنانية جنى الحسن ، باحترام شديد وحب ، وأسعى الآن لأقرأ ذلك النص المشاد به من كثيرين .

إذن الرواية الأولى ، ليست دائما رواية تجربة مهلهلة ، لن يدقق القارئ فيها بحثا عن أخطاء لغوية وإملائية ، وفنية ، وعيوب في السرد ، كما هي العادة ، فلربما تكون كبيرة في فكرتها ومستواها الفني ، كرواية شكري المبخوت ، وتستطيع في لحظة ما أن تمتلك حظها الجيد ، وأذواق المحكمين ، ليمنحوها الجائزة .

وإذا قارنا المسألة بجائزة مان بوكر البريطانية ، لوجدنا عددا من الكتاب حصلوا على الجائزة بنص أول ممتلئ ، وأذكر منهم الهندية : أراندوتي ، برواية : «إله الأشياء الصغيرة» ، وهي رواية فاتنة جدا ، وتمنح المتلقي فتنتها من الصفحة الأولى حتى

الأخيرة . أيضا رواية : «النمر الأبيض» ، للهندي أيضا أرافيندا أديجا ، وهي رواية ملحمية ، تحكي ميثولوجيا الهند ، داخل قصة رجل أعمال بدأ من الحضيض ، وعمل سائقا لدى أسرة من المترفين ، ليتحول بعدها إلى قاتل ، سيحقق طموحه ، بما غنمه من أموال ضحيته .

«النمر الأبيض» أيضا رواية عظيمة ، وتستحق مئة جائزة ، وقد فتحت الدرب لكاتبها الشاب ، أن يصبح علما ، ينتج بعدها أعمالا أجمل وأفخم .

لقد جاءتنا البوكر العربية بكل شيء ، بالأحلام المعطرة ، والطموح الواسع القوي ، وتوقع اصطياد البريق ، وجاءتنا بجانب ذلك بجدل لن ينتهي عند هذه الدورة ، أو أي دورة قائمة ، لكن الأسوأ أن العالم العربي كله ، تحول إلى كتاب روائيين ، ولا قراء يلاحقون كل هذه الكتابة .

رحيل الشعراء

في أيام متقاربة ، رحل عبد الرحمن الأبنودي ، ومحمد مفتاح الفيتوري ، اثنان من ألمع شعراء الزمن الجميل ، حين كانت للشعر مكانة عظيمة في دنيا الإبداع ، وللقصيدة سواء أكانت حديثة أم تقليدية ، نجومية تؤهلها للسطوع في أرقى الأماكن ، وللبقاء زمنا طويلا في أذهان القراء ، وأيضا لتردد في المجالس والطرق والمقاهي وقاعات درس التلاميذ ، ويستشهد بها الناس في خطبهم ومكتاباتهم النثرية ، وأيضا تقام لها المهرجانات والمسابقات الكبرى في كل مكان .

وعلى الرغم من قلة دور النشر ، ومحدودية توزيعها ، في الفترة التي ظهر فيها الأبنودي والفيتوري ، وكثيرون غيرهما من الشعراء وكتاب القصة والرواية العرب ، إلا أن انتشارهما كان كبيرا ، وما قدماه من إنجاز شعري ، كان يصل وفي كل وقت إلى عشاق الشعر في كل مكان . وأعتقد أن ذلك ناتج من انشغال الناس بالقراءة وسعيهم لاكتساب المعرفة المكتوبة ، بوصف فعل القراءة ، أداة الترفيه الوحيدة الموجودة في ذلك الزمان ، بعكس اليوم ، حيث تعددت وسائل اكتساب المعرفة ،

وانهزم فعل القراءة كثيرا ، لينحصر في الغالب ، في أجيال شهدت مجد الشعر والنثر .

بالنسبة لعبد الرحمن الأبنودي ، الذي يسمى الخال ، ربما لتواضعه ، وربما لإحساس الآخر الذي يطالع تجربته ، بقربه الشديد منه ، فقد تعرفت إلى تجربته مبكرا ، وكانت قصائده بالفعل شديدة القرب للمخيلة الشعبية ، ليس في مصر وحدها ، على الرغم من أنها باللهجة المحكية المصرية ، ولكن في الوطن العربي كله ، وتمنح الإحساس للذي يقرأها أو يستمع إليها ، بأنها كتبت في بيته ، وصاغها أحد أفراد أسرته ، أو جيرانه ، وأذكر كيف كان تفاعلنا الكبير ، مع خطابات الأسطى حراجي القط ، العامل في السد العالي في أسوان ، تلك الملحمة الشعرية الاجتماعية الشعبية ، وكيف كان إلقاء الشاعر لها ، يمنحها بعدا أسطوريا ، لتصبح في يوم ما القصيدة الأكثر رصانة ، التي يرددها الناس . كان حراجي هو الإنسان الرمز ، وفاطمة هي الوطن الخاص والعام . وغير خطابات القط ، كتب الأبنودي كما هو معروف ، كثيرا من القصائد الوطنية والعاطفية ، التي رددها المغنون ، والتي ظهرت بصوته في أشرطة مصاحبة لدواوينه ، وكان دائما حاضرا بقصائده في المناسبات الوطنية ، وصاحب قصيدة راعية للمقاومة ، والحرية والعدل ، ورأيي الشخصي ، أن شاعرا بحجم الأبنودي ، من المفترض أن يقيم كتجربة كبرى لا بقصيدة أو قصيدتين ربما كانتا أقل

وهجا ، وكذا التجارب الكبرى للمبدعين عموما ، تحمل الجمال والرصانة داخلها في الغالب ، وتشع ليستمتع بها الجميع .

ورغم أن الأبنودي كتب الرواية الا أن مايعجبني فيه وفاؤه لقصيدة العامية المصرية حتى النهاية . وهناك كثير من الشعراء ، كتبوا الرواية مبكرا ، ومشى إبداعهم الروائي جنبا إلى جنب مع الإبداع الشعري ، وكلا النتاجين كان مبهرا ، ولعل الألماني غونتر غراس ، الذي رحل هو الآخر في الأيام الماضية ، من الذين كتبوا الشعر والرواية ، حتى رحلوا . ولدينا عربيا على سبيل المثال ، الصديق إبراهيم نصر الله ، الذي أبدع تجربتين كبيرتين ، في الشعر والرواية .

محمد الفيتوري ، السوداني الليبي ، أو الأفريقي المختال بأفريقيته ، وتغنى بوسامة القارة السمراء منذ انطلاقته الأولى ، يبدو لي من الشعراء الأساطير ، بكل ما كانه ، وما قدمه للمكتبة العربية ، وللأخيلة العديدة ، أن تستعيده ولا تمل استعادته . وبلا شك كان الفيتوري من المؤسسين لحركة الشعر الحديثة ، جنبا إلى جنب مع شعراء من مصر والعراق والشام . وكان شعره أسوة بالشعراء السودانيين الذين عاصروه ، من أمثال محمد المهدي المجذوب ، ومحمد عبد الحي ، وغيرهما ، ممتلئا بالأساطير والنفس الصوفي ، وقد تميز بالفعل في الترميز بالصوفية ، وتحويل مفرداتها إلى شعر عذب ، طالما طرب له الناس ، وكل يعرف قصيدته «ياقوت العرش» ، وقصيدته

«معزوفة لدرويش متجول» ، وغيرهما من القصائد التي أصدرها في دواوين عديدة . وكنت دائما أحس بما يحس به الدرويش ، من نشوة ، يتمايل بها ، كلما قرأت شعرا للفيتوري . وقد ظل الفيتوري يكتب إلى عهد قريب ، لكن إنهاك المرض أوقفه ، لتتوقف التجربة عند حد معين ، كتجربة مميزة ورائدة ، في الشعر العربي الحديث .

أعتقد أن رحيل الشعراء ، خاصة من أرسوا دعائم ، أو رصفوا تجارب جديدة ، أو مهدوا الطريق لغيرهم ، ليس أمرا هينا ، نحن لا نتعامل هنا مع شخص قضى أزمنة سعيدة وحزينة في الحياة ، ومضى ، إنما نتعامل مع روح ، بذرت شيئا منها في حياة الناس ، وستظل تحلق دائما .

صياغة الإبداع منح ربانية ، ينالها البعض ولا ينالها البعض الآخر ، وكلما رحل مبدع ، سنظل نذكره ، ونظل نتعلم من تجربته ، وأعتقد وهذا ما أردده دائما ، بأن المبدع ليس مطالبا بافتعال المواقف ، إرضاء للناس ، وإنما يقوم بصياغة المواقف بناء على رؤيته الخاصة ، فينجح حينا ويخفق حينا آخر ، إنما تظل مخيلته ، هي المخيلة المحترمة ، التي علينا اتباع ما تنتجه ، ولطالما لم أحب أبدا ، أن يزج بمبدع ، في جدل بعيد تماما عن الإبداع .

مارجريت والكتابة

في كتابها «مفاوضات مع الموتى» ، الذي ترجمته للعربية عزة مازن ، وصدر عن المجلس القومي للترجمة في مصر ، منذ فترة ، واطلعت عليه مؤخرا ، تحاول الكاتبة الكندية المخضرمة مارجريت أتوود ، أن تجيب عن أسئلة الكتابة والقراءة الممددة في أذهان الكتاب والقراء معا ، وستظل ممدة دائما ، بلا خيار آخر .

تقول أتوود في كتابها الغني بالأفكار والتجارب ، وفي الوقت نفسه بالنظريات التي غالبا ما تكون وليدة حماسة للتنظير ، موجودة عند معظم من كتبوا إبداعا ، منذ عرفت الكتابة ، إنها كتبت في زمن لم يكن فيه متع كثيرة كما يحدث اليوم ، لم يكن ثمة سينما منتشرة ، ولا تلفزيون يقتحم عزلة البيوت ، ولا حتى رغبات مستعرة للتسوق مثلا ، كما يحدث اليوم . وبالتالي كانت هناك فرص جيدة للأفكار الكتابية أن تتلاطم في الأذهان وتخرج ، وأيضا احتمالات كبيرة أن يكون ثمة متلقون لهذه الكتابة ، أي قراء ، يمتعون أنفسهم بالمتعة الوحيدة التي تتوفر بكثرة في ذلك الزمان .

وبالرغم من قلة دور النشر في خمسينيات القرن الماضي ، في بلادها ، وعدم اعترافها بالكاتب المحلي وما ينتجه ، إلا أن الأمور كانت تسير بخطى لا بأس بها ، وحين تغير الزمن وجاءت الطفرات الكبيرة في كل شيء ، كان يوجد كتاب مؤسسون ، وكتاب واعدون ، وكتاب سيولدون لا محالة ، وأيضا يوجد جميع أنواع القراء المواكبين لتطور الكتابة . في الماضي ، كانوا يتحدثون عن الفن ، والكتابة من أجل الفن ، وكان على الشعراء أن يموتوا أو يتسولوا الطعام ، من أجل الفن ، والآن كل صاحب موهبة ، يملك بالضرورة ، نصيبا قويا من حكاية الكتابة ، واستثماراتها ، وربما يكون نجما في المجتمع ، تحاكي وقفته ونظرات عينيه ، وقفة ونظرات عيني نجم سينمائي .

أيضا وفي فصول أفردتها للقارئ وحده ، وما يمكن أن يقدمه للكاتب من نفع أو ضرر ، وصفت عملية القراءة بالتلصص ، وأن قارئك هو جاسوس اجتماعي لمعرفة دواخلك من خلال قراءة ما تكتبه ، لأن الكاتب حين يكتب ، فهو يضع شيئا منه في النص ، حتى لو لم يكن ذلك صراحة ، وبالتالي يتم نهب ذلك الشيء الغامض من قبل القراء المحترفين .

نعم هناك قراء يمرون على الرواية سريعا ، يبحثون عن شيء يريدونه ، مثل فتاة حسناء تتعرى في الصفحات ، أو بطل خرافي يسدد لكمة لخصم ، أو طفل صغير شقي سينجو من حادث سير ، ويصفقون له . هكذا ، لكن هناك آخرون في

المقابل ، يتشبثون بصفحات الكتاب لدرجة أن تصبح جزءا من تكوينهم ، وهؤلاء هم خصوم الكاتب غير الضارين كثيرا ، لكنهم ربما يضرون من دون قصد ، حين يسترون بعض العورات المكشوفة عن قصد من الكاتب ، أو يصححون الأخطاء التاريخية التي صيغت سهوا ، أو يفسدون على الكاتب متعة الكآبة والعزلة ، حين يقيمون أمسية نقدية ، يقلبون فيها المواجع .

لقد ذكرني كلام أتوود عن الترفيه ، واعتماد القراءة من ضمن أدواته في زمن ما ، بأوائل السبعينيات من القرن الماضي ، حين كنا نجتمع نحن صغار الحي ، في أحد البيوت ، ليقرأ علينا العم حمزة ، وهو رجل مسن ، ومثقف ، ويعمل بائعا في كشك صغير أمام المستشفى ، ويقيم مع إحدى الأسر بالجوار ، يقرأ من كتب كان يرصها تحت سريره ، وكانت في معظمها تأسيسا فريدا لذهنية القراءة ، لدى الأطفال . إنها كتب في المغامرات والألغاز ، وبطولات بعض الشخصيات التاريخية ، مثل صلاح الدين ، وأيضا شيء من السيرة الهلالية ، وغيرها من الروايات الخفيفة الخالية من المواضيع المعقدة . وأذكر أن قناة حمزة الترفيهية هذه كما أسميتها ، استمرت سنوات ، حتى أصبح بإمكاننا القراءة من دون مساعدة ، والبحث عن الكتب التي نريدها في المكتبات التي كانت موجودة في المدينة في ذلك الوقت .

لقد وصفت مارجريت أتوود ، فعل القراءة كترفيه ، يؤدي في الغالب إلى الإدمان ، في بلادها كندا ، في زمن خصب من أزمنة الفن ، وكان ما وصفته موجودا عندنا ، وربما في معظم دول العالم قبل غزو التكنولوجيا .

أسئلة الكتابة قائمة ما تزال : لماذا نكتب؟ لمن نكتب؟ هل هناك جدوى من الكتابة؟

تقول أتوود عن ذلك ، إن هذه الأسئلة لم تعد تؤرق الكاتب الذي تولد موهبته في هذه الأيام ، لأن مسألة الفن من أجل الفن ، قد فقدت بريقها ، وربما تكون تلاشت تماما ، لأن من السهولة جدا أن يحصل كاتب حديث على مبلغ من ستة أصفار ، دفعة أولى ، ذلك الرقم الذي يقضي فورا على أي سؤال خاص بالكتابة ، قد يدور في ذهنه . وسؤال : لمن نكتب ، أيضا لا لزوم له ، لأن شرائح القراء ، تعددت ، ولأن هناك جوائز سخية تقدم ، وسينما تنتج ما يكتب ، وأسفار بلا حصر ومحاضرات هنا وهناك ، وهكذا ، الكاتب يكتب ليعيش شامخا ، وليلمع وليصبح جزءا من رقي المجتمع ، وليجلس في صالات رائعة ، معطرة ، يوقع الكتب ، ويتلقى نظرات المعجبين ، ومصافحاتهم ، وغالبا ما يجده المعجبون كما تخيلوه تماما : أنيقا وجذابا ، بعكس تخيلات الماضي عن الكاتب ، حين تخيب تماما عند رؤيته ، ذلك أنه دائما عكس التوقعات ، وأفقر من أن يلفت حضوره أحد .

هذه اللمحات عن بلاد تحضرت منذ عهد ، وتجاوزت صيغة الماضي التي مـا تزال سـائدة عندنا ، هنا ، أعني في البـلاد العربية ، والكل يعرف ، أن الكاتب لا أحد في معظم حالاته ، ولو كـتب بأدوات الجن ، هو كـاتب فـقط من دون إضـافـات شيقة ، وربما يستهزئ منه البعض في صفحات الجرائد ، أو يضعون له السدود في أول درجة من درجات النجاح ، يصل إليها ، وربما يغتالونه معنويا بتضفير المعاناة ، وردمها في حياته .

لذلك ، نحن بعيدون عن محاضرات مارجريت أتوود المختصة بالكتابة ، ربما نكون قريبين من الماضي الـذي ذكرته ، لكننا لا نشبه الحاضر ولا المستقبل المرصود عندها ، وإن كان لا بد من تنظير ، فليكن تنظير يخصنا وحدنا .

نص يأكل البقية

هذا العام ٢٠١٥، رحل الكاتب الألماني العظيم غونتر غراس، عن عمر تجاوز التسعين، مما أهله لامتصاص كثير من التجارب المهمة، من أحداث بالقطع عاصرها، والعمل على كتابة ألمانيا بكل خسائرها وانتصاراتها، في نصوص تعتبر جزءا هاما من الذاكرة الجماعية، وركنا حيويا في متحف الإبداع العالمي. وكما أردد دائما، فإن الأدب الحقيقي المرتبط بحياة الشعوب، أصدق من التاريخ، الذي ربما تكتبه أقلام غير مؤهلة، أو أقلام استؤجرت لكتابته، بعكس الأدب الذي تكتبه المخيلات المبدعة، والبصائر المتقدة، والاستشراف الذي يطال مستقبل الحياة أيضا، وهناك نصوص عدة بقيت تمنح الأمل، بينما اندثر التاريخ الذي عاصر كتابتها، ولم يكن منصفا.

حين سمعت بوفاة غونتر غراس، تبادر إلى ذهني على الفور، نصه الكبير المؤثر، والحيوي «طبل الصفيح» الذي قرأته منذ سنوات، وما زال طعمه موجودا في حلق تذوقي إلى الآن، إنه من النصوص التي يجتمع فيها كل شيء، حيث نجد

المجتمع كاملا ، نجد الخير والشر ، نجد الحياة بمسارها الطبيعي الذي من المفترض أن يكون ، وبمسار آخر منحرف أيضا ، وعبر شخصيات حية ، نقرأ كل ذلك ، ونشاهده ، ونمتلكه أيضا ، وقطعا نتأثر به في الكتابة .

وبالرغم من أن غراس أنتج نصوصا عديدة ، سواء إن كانت رواية أو شعرا ، مثل : «سنوات الكلاب» و«تقشير البصلة» ، وغيرها ، إلا أن نص «طبل الصفيح» يظل هو الأكثر سطوة ، والذي يتبادر إلى الذهن بسرعة غريبة ، حين يذكر اسم كاتبه .

هذا بالتأكيد ، لا يقلل من أهمية النصوص الأخرى للكاتب ، ولكنها ظاهرة موجودة عند كل الكتاب تقريبا ، تماما كظاهرة الابن الأكثر إشعاعا داخل أسرة كل أبنائها مشعون . فينتج عن ذلك ، أن يذكر الابن المشع تلقائيا حين تذكر الأسرة .

أعتقد أن الكاتب الحقيقي ، أي ذلك الكاتب الذي يجتهد في مشروعه ، ويكون أسلوبه الخاص في النهاية ، تصبح عنده الكتابة حدثا حياتيا عاديا ، تماما مثل الأكل والشرب ، والسير في الطرقات والتسوق ، والسلام ورد السلام ، هو انتهى من عصر الصياغات المترددة الأولى ، وانتقل إلى عصر الصياغات الراسخة عنده ، وبالتالي فإن تأرجح المستوى الكتابي غير وارد كثيرا ، وإن حدث أي تأرجح ، فهو غالبا في كيفية معالجة الفكرة ، أعني طريقة تناولها ، وليس أسلوب كتابتها ، كذلك

فإن بعض الأفكار لا تعجب كثيرا من القراء، فيلجأون إلى تعميم عدم ارتياحهم منها، وسط قراء آخرين. لذلك فإن سطوة النص الواحد، لا تخضع لشخصية النص فقط لأنها شخصية شبيهة بشخصيات النصوص الأخرى كما قلت، وإنما شيء لا يمكن تفسيره على الإطلاق. هناك نص لمع بشدة وسط نصوص لامعة، أو نص لمع وسط نصوص معتمة، أو نص وحيد لكاتب، لمع وسط نصوص لآخرين من جيله نفسه، كتبوا بطريقة أفضل.

عند ماريو فارغاس يوسا، دائما ما تذكر رواية: «مديح الخالة» تلك الرواية القديمة، بالرغم من أنه كتب نصوصا أخرى غنية، مثل «شيطنات الطفلة الخبيثة» و«حفلة التيس» وغيرها. عند ماركيز، بالطبع «مئة عام من العزلة» النص الذي يعرفه طوب الأرض، من شدة لمعانه، وشخصيا أجد رواية «الحب في زمن الكوليرا» أكثر إغواء للقراءة من رواية العزلة، لكنني لا أستطيع أن أفرض تذوقي الشخصي. عند همينغواي «العجوز والبحر» وتولستوي «الحرب والسلام» وعند النيجيري تشينوا أشيبي، بالطبع «الأشياء تتداعى» أحد النصوص المؤثرة قطعا في الأدب الأفريقي عامة، لما احتوته من جرأة في منازلة الأساطير، وجرها صاغرة، إلى خيالات الكتابة، ولأشيبي نصوص أخرى بديعة أيضا، وتحمل الهم الأفريقي نفسه، بطريقة أو بأخرى، لكنها قطعا ليست «الأشياء تتداعى»

المحفوظة في ذهنية القراء ، ولا أظن أنها ستتزحزح يوما ، وأذكر عند وفاته ، أن كل من كتب عنه ، وهم بالآلاف ، ذكروا بلا أي تردد ، رواية «الأشياء تتداعى» .

لو جئنا إلى النصوص التي تتبادر إلى الذهن حين يذكر أدباء معينون ، بالنسبة للكتابة العربية ، لعثرنا أيضا على النص اللامع ، الابن المشع داخل عائلته ، ويلغي بقية أفراد العائلة أو يهمش أدوارها : «الثلاثية» عن العظيم نجيب محفوظ ، «يوميات نائب في الأرياف» عند توفيق الحكيم ، «قنديل أم هاشم» ، عند الرائع يحي حقي ، «موسم الهجرة إلى الشمال» عند الطيب صالح ، «الزيني بركات» عند الغيطاني ، وحتى بالنسبة للكتاب من الأجيال الجديدة ، نجد هذه الخاصية موجودة ، ولا أحد يستطيع إنكارها ، ويحدث أن يواجه الكاتب بصفة يومية أشخاصا انساقوا وراء لمعان إحدى رواياته ، وقرأوها أو قرأوا عنها كلاما كثيرا ، وجاءوا يصبونه على أذنيه ، ويكون الكاتب مؤكدا قد مل من نصه اللامع ذلك ، وأنتج نصوصا أرقى ولا أحد يلتفت إلى جديده ، إلا بمشقة ، أو بضغط منه ، حين يوجه قارئا ما ، نحو نصه الجديد .

وسط هذه الفرضيات التي ذكرتها ، يوجد كتاب ، لم يلمع لهم نص واحد وسط نصوصهم الكثيرة التي كتبوها ، وظلوا هكذا كتابا ، شبه معروفين أو غير معروفين إلا في محيط ضيق وسط أصدقاء ، وبالتالي تظل نصوصهم جميعها متساوية في

العتمة ، وإن انزاحت العتمة قليلا ، فعن النصوص كلها أو معظمها وليس نصا واحدا ، يحتلب الأضواء ، ودائما ما أفاجأ حين يرسل لي أحدهم رواية ما ، ويقول إنها روايته الخامسة عشرة أو العشرين ، ولا أكون سمعت بأي رواية من رواياته ، أو ألتقي بكاتب في بلد ما ، وأعرف أن له عالماً ، وقراء ، وترجمت بعض أعماله إلى نصوص أخرى ، ولا أكون سمعت عن نص واحد له . إذن الكتابة في مجملها ، مساحات شاسعة من المتناقضات ، وكل كاتب يشير إلى متناقضاته داخلها ويمضي ، ولو لجأنا إلى تفسير منطقي ، يجعل ذلك النص واسع القراءة ، ولامعا ، ويطفئ أخيه المولود من الرحم نفسه ، لما وجدنا تفسيرا . والأفضل بالطبع أن نقرأ فقط ، بلا أسئلة ولا أجوبة .

مراجعة الكتب

كنت وما زلت ، من المؤمنين بشدة بمسألة مراجعة الكتب ، أو وضع قراءة مختصرة لها ، تلك التي يقوم بها مثقفون غير متخصصين في الغالب ، في النقد وأيضا قراء عاديون ، تمرسوا على مطالعة الكتب لسنوات طويلة ، ويمكنهم بسهولة شديدة أن يغوصوا في أعماقها ويستخرجوا إضاءات جيدة ، ومن الممكن جدا أن يفيدوا حتى الكاتب نفسه ، حين ينبهونه إلى قصور ما في كتاب أصدره ، أو يوحون إليه بفكرة جيدة ، لم تخطر يوما بباله ، ويمكنه كتابتها في نص مستقبلي ، وكنت قبل أن أعيد كتابة روايتي القديمة : «صيد الحضرمية» ، الصادرة أواخر تسعينيات القرن الماضي ، وأصدرها تحت عنوان جديد هو : «اشتهاء» ، قد اطلعت مصادفة ، على قراءة «الصيد الحضرمية» ، في إحدى الصحف العربية ، من قارئ بعيد تماما عن الكتابة ، حيث نبهني إلى أشياء إيجابية ، وأشياء سلبية أيضا ، وكتب أن النص سيبدو أفضل لو أعاد الكاتب كتابته ، متخففا من الصور الشعرية الكثيفة .

هذا ما فعلته بالضبط ، حيث أعدت الكتابة متخففا من

الشعر ، وصوره المكثفة ، وتاركا للحكي أن يسيطر ، ومهما كان من نجاح النص الجديد ، أعني نص اشتهاء ، أو عدم نجاحه ، لكنه يدعم بشدة ، فكرة أن يستفيد الكاتب من رأي القارئ العادي ، سعيا من الجميع لأدب أفضل ، وقراءة أعمق ، في زمن لم تعد للقراءة فيه أولوية كبيرة .

شيء آخر جعل ما يكتبه المبدع متاحا ، وما يقرأه القارئ من مراجعات أو ملاحظات ، متاحا أيضا ، وهو انتشار سحر الإنترنت ووصول خطواتها الواسعة ، لأي شبر من أشبار الأرض ، وحتى إلى أماكن لا يتخيل المرء أن فيها بشرا ، إضافة لازدياد اهتمام الناس بفضائها الرحب ، وممارستهم لكثير من الأنشطة عبرها ، ومن أهم هذه الأنشطة : التسوق .

إذن الكتب أصبحت متاحة إما إلكترونيا ، وهذه ما زالت في طور البدايات من ناحية ممارسة القراءة عبرها ، في رأيي ، لأن القراء في معظمهم ما زالوا تقليديين في عشق الكتب ، ورائحتها المميزة ، وتقليب صفحاتها باستمتاع قبل الدخول في مزاج القراءة ، أو بطلب الكتب عبر مواقع الشراء الإلكترونية المنتشرة كمتاجر حرة ، تبيع الكتب وتوصل الكتاب لمن يطلبه في أي مكان ، يوجد فيه ، عبر البريد ، وقد جربت شخصيا التعامل مع موقع أمازون الواسع ، والرائد في بيع الكتب عبر الطلبات مباشرة ، لمن يملك حسابا فيه ، وطلبت كتبا لم أعثر عليها في المكتبات ، ووصلتني في عدة أيام ، وكنت مرة في

بريطانيا ، وطلبت كتبا علمية حديثة ، فوصلت في اليوم الثالث إلى العنوان الذي كنت أقيم فيه .

إذن الإنترنت سهلت الكثير من المشاق السابقة ، ومهدت لعلاقات إيجابية ، ستنمو بين القراء وبعضهم في مواقع خصصت للقراءة وحدها ، ولأندية مناقشة الكتب التي يكونها القراء الشغوفون بالمطالعة ، بحماسة شديدة ، لتتعدد ويتعدد دورها ، ولدرجة أن تسعى بعض تلك الأندية لاستضافة الكاتب الذي سيناقش كتابه ، لدى المجموعة ، شخصيا من أي بلد يوجد فيه ، إلى البلد الذي فيه أغلبية أعضاء نادي القراءة ، لمحاورته مباشرة ، بعيدا عن أي ساتر ، وكنت من الذين أسعدهم الحظ وخضت تلك التجربة وكانت صادقة ورائعة ، وتستحق الشكر عليها فعلا ، والتحية لنادي القراءة الذي أقام الفعالية .

تحدثت عن إيجابيات مراجعة الكتب ، بواسطة غير المتخصصين أكاديميا ، وهذه الطريقة هي نفسها المتبعة في الخارج ، وتجد إقبالا كبيرا ، والكتاب الذي تتم مراجعته بهذه الطريقة السهلة المختصرة ، التي هي في النهاية ، وجهة نظر لقارئ ، يشبه القراء الآخرين ، غالبا ما يحترم ، من أولئك الآخرين ، ويباع بطريقة جيدة . وأول ما يبحث عنه الناشرون إن أرادوا ترجمة كتاب ما من لغته إلى لغة أخرى ، هو ما كتب عنه من مراجعات بسيطة ، غير معقدة ، لا دراسات أكاديمية صعبة الاستيعاب .

الآن ، ما هي سلبيات المراجعة العادية للكتب؟

لقد انتبهت في خلال تجولي في الإنترنت ، إلى أن بعض الذين يدخلون مواقع قراءة الكتب ، ويسجلون ملاحظاتهم ، بعيدون تماما عن نهج القراءة المفترض أنهم دخلوا لإحيائه . هناك من يكتب صفحة كاملة عن موضوع آخر لا علاقة له بالكتاب الذي ينتظر مراجعته ، هناك من يضع قصصا وخواطر من صياغته ، هناك من يقيم الكتاب تقييما ضعيفا بلا أي وجهة نظر تدعم تقييمه ، وتقنع الآخرين ، وغالبا ما يكون مجرد شخص دخل للسياحة فقط ، وربما لمعاكسة قارئات مسجلات ومجتهدات ، وهناك من يرتفع بقيمة كتاب ، وأيضا لم يقرأه ، فقط هناك من سبقه بالإشادة وسار على نهجه ، والعكس ، حين يسير آخرون خلف رأي سلبي ، بلا قراءة .

في إحدى المرات وأنا أعبر بأحد تلك المواقع ، التي تلهمني كما قلت ، وتساعد في محاولة كتابة نص قليل العيوب ، وأيضا تلهمني ببعض المواقف وتمدني بشخصيات أحتاجها كوقود للكتابة ، لفت نظري قارئ يتحدث عن نص لكاتب قدير ، واصفا إياه بأنه بلا فكرة ولا لغة ولا تقنيات كتابية ، وبالطبع كان كلاما غريبا ، فلا يوجد نص في الدنيا حتى لو كتبته جدتي الأمية التي لا تفهم في التقنيات ، يأتي بهذه الأوصاف التي ذكرتها ، إنها مجرد فضفضة بلا معنى من واحد مسجل في موقع القراءة أراد أن يكتب شيئا في الفضاء الحر .

في مرة أخرى كانت ثمة قارئة ، تركت النص وفنياته وأسهبت في الحديث عن صورة الكاتب على الغلاف الأخير ، عن شعره غير المرتب ، ونظرته المتعالية على الناس وابتسامته المغرورة ، التي تغيظ كل من يقرأ كتابه . هكذا . وهذه بالطبع مسألة لا علاقة لها لا بالكتابة ولا بالقراءة .

أخيرا أود أن أقول بأننا فعلا نريد القراء متفاعلين ، ومستعدين للتفاعل معهم كقراء في المقام الأول ، من الذين أحبوا الكتب وما زالوا يحبونها ، فقط لو تستقيم بعض الأمور ، وتصبح المراجعة التي يخطها قارئ غير متخصص ، صحيحة وعادلة ، وبعيدة عن الفوضى التي لها أماكنها على الشبكة ، بكل تأكيد .

المهنة والتفرغ

هناك سؤال تعودت على سماعه كثيرا ، من قراء أعرفهم ولا أعرفهم ، وزملاء كتاب ، ومن جهات منظمة للملتقيات الثقافية ، كلما اعتذرت عن مؤتمر أو ملتقى ثقافي :

لماذا لا تترك مهنتك وتتفرغ تماما ، للكتابة الإبداعية ، وكتابة المقالات؟

هذا السؤال ، بالتأكيد ، سهل للغاية في الطرح ، لكن ما أصعب تدويره في الذهن من أجل إجابة وافية ومقنعة ، وأحسب أن كثيرين مثلي ، سُئلوا هذا السؤال نفسه ، وهناك من سأله لنفسه من الكتاب المهنيين ، وربما عثر على إجابة أو لم يعثر عليها على الإطلاق .

بداية لا بد من الاعتراف بأن الكتابة الإبداعية ، ينبغي أن تكون مشروعا مؤسسا ، أو في طور التأسيس دائما ، وله ما يسنده ، لدى من انصاع لضغط الكتابة على حياته وكتب . ومؤكد أن القراءة الواعية المتنوعة ، في أي وقت ، تعد من دعائم المشروع ، كذلك الوقت الذي يجب أن يقتطع ، ويثبت عند ساعات معينة ، وطبعا كثير من الطقوس الجدية التي تساهم

بجدارة في دعم المشروع الكتابي ، ولطالما كانت كل مشاريع الإبداع القائمة على هذا النهج ، ناجحة جدا ، خاصة في أوروبا وأمريكا ، حيث الكتابة الإبداعية ، وظيفة محترمة ، تغني عن كل الوظائف ، ويتبعها في العادة جيش من الوظائف الأخرى ، مثل وظائف التحرير والتصحيح والوكلاء الأدبيين والنشر ، وهكذا ليجد الكاتب نفسه في النهاية ، عنصرا مؤسسا لشراكة مهنية جيدة ، ويكون مشروعه مثار اهتمام ويتطور باستمرار .

حتى الصفحات الشخصية التي ينشئها الكاتب على الإنترنت ، وصفحات التواصل الاجتماعي ، التي ينشئ فيها حسابا ، تدار بواسطة آخرين تدربوا على معطيات مشروع الكاتب ، وأصبح بإمكانهم التصرف بكل حرية وبلا أي مشاكل ، من ناحية مخاطبة الناشرين ووكلاء الكاتب ، وبعض القراء المهمين حين يطرحون آراء يهم الكاتب أن يعرفها .

بناء على ذلك فليس أسهل من التخلي عن وظيفة امتهنها الكاتب في بداياته ، والتفرغ للعمل كاتبا فقط ، يستطيع اختراع وقته وطقوسه براحته ، يستطيع اختيار مكان الكتابة ، وزمنها ويسافر بلا لوائح تؤجل سفره أو تلغيه ، وبلا أعباء وظيفية تنتظره حين يعود ، إن كان قد عثر على حيلة وسافر . وقد كان التركي أورهان باموق مهندسا وأقلع عن الهندسة ، كما ذكر في كتابه : «ألوان أخرى» ، وكان ماركيز صحافيا وأقلع

عن الصحافة طبعا ، وكثيرون كانوا مهنيين ، وتركوا مهنهم الأصلية بلا رجعة ، وبالنسبة لأماكن الكتابة ، وكيفية اختيارها ، أعرف كتابا أوروبيين ، لا يكتبون إلا في أفريقيا ، حيث يقضون أشهرا في الكتابة حتى تنتهي أعمالهم ويغادرون ، وهناك من عاش في المغرب ، وكتب فيها أعظم كتاباته مثل بول بولز ، صاحب رواية «السماء الواقية الرائعة» ، ومن عاش في أوروبا من الكتاب الأفارقة والآسيويين المهمين ، من أجل الكتابة فقط .

أذكر في برنامج للتوقيع شاركت فيه ، في مهرجان طيران الإمارات بدبي ، منذ عدة سنوات ، أن شارك معنا كاتب إيطالي في حوالي السبعين ، لم يكن معروفا بطريقة جيدة ، بالنسبة لي في ذلك الوقت ، لكنه كان موجودا بكامل مقومات الكاتب التي من المفترض أن يكونها : كتب مترجمة لعدة لغات ، مرصوصة في معرض جانبي للكتاب ، وجمهور عريض من جنسيات عدة ، يشتري الكتاب ، ويقف في صف التوقيع ، والأهم من ذلك ، سكرتيرة تتولى كل شيء حتى إسناد الكاتب في المشي ، وكان كما بدا لي يعاني من شلل طفيف . وبالطبع ليست هناك مهنة من المهن العادية ، يمكنها أن تعوض كل ما ذكرته ، وتهب البريق الذي تهبه صنعة الكتابة .

أعود للذين ما زالوا يسألون عن الجمع بين مهنتين قاسيتين عند كاتب من المفترض أنه صاحب مشروع ، وذكرت كيف

يكون المشروع وما هو المفروض من أجل رعايته .

نعم . . لكن . . وهذا ينطبق على جميع الذين ينتجون باستمرار ولم يتوقفوا تحت أي ظرف ، في الوطن العربي ، إن الوظيفة هنا أهم من كل شيء آخر ، والذي لا يملك وظيفة لسبب أو لآخر ، من الكتاب سيسعى لامتلاك وظيفة بكل تأكيد . الكتابة عندنا جيدة ، وممكن أن تكون مبتكرة ، وممكن جدا أن تشد آلاف القراء ، وبالتالي عدة طبعات للكتب ، ومع ذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارها وظيفة ، وتخطيط الحياة ككل ، بناء على عائد قد يأتي منها ، وقد لا يأتي . ناشر سيدفع في سنة ، حقوق الكاتب ، ويغيب سنوات حتى عن مجرد التحية والسلام ، وإن حيا وسلم ، فليسأل : هل من كتاب جديد؟ وأيضا وهذه من مضاعفات الكتابة التي يصادفها كل من استكتب ذات يوم في جريدة أو مجلة عربية ، وخطط حياته على هذا الاستكتاب ، فما أسهل من إلغاء استكتابه في أي وقت من دون أن يعرف ، ومن دون حتى أن ينال حقوقه ، وقد كنت أكتب لإحدى الصحف زاوية أسبوعية ، بناء على رغبتها ، ثم فجأة ، غابت مقالاتي عن الصحيفة ، أرسل في موعدي ، ولا نشر ، أستفسر سائلا عبر الرسائل ، ولا رد ، لأجد بعد ذلك اسما آخر تحتل زاويته مكان زاويتي المقالة هكذا بلا إخطار ولا حقوق عن أشهر كنت أكتبها فيها .

رأيي الشخصي ، أن هناك أسئلة ينبغي أن تلغى من

الحوارات في الوطن العربي ، مثل سؤال المهنة والكتابة ، سؤال إلغاء المهنة والتفرغ للكتابة ، وسؤال ثالث ، أتردد كثيرا في الإجابة عنه : كيف تحصل على الوقت من أجل أن تكتب؟ لأن الإجابة عنه ، غالبا ما تدفع للمغص والكآبة .

هدايا الكتب

من الأشـيـاء المعتـادة ، وعند زيارة أي مـبـدع لبلد مـا ، أن يلتقي بمبدعي ذلك البلد ، أو مبدعين آخرين من بلاد شتى ، يجتـمعون في ملتقى ، أو مؤتمر ثقافي ، يتم خـلاله التعارف الجيد ، وتبادل الثرثرة ، في الثقافة وغيرها ، وربما صداقات تمتد إلى أزمنة أخـرى ، لكن أهم مـا يحـدث في رأيي هو هدايا الكتب التي قد تطغى على كل أنواع التواصل الأخرى .

حقيقة أي مبدع ألف كتابا ونشره ، ووزعه ، وتأكد أن ثمة قراء اقتنوه ، وتغلغلوا في مادته ، يحمل طموحا من نوع خاص ، أن يقرأ كـتابه بواسطة مـبـدع زميل ، إما من جيله أو أجـيـال أخرى تسبقه أو تأتي بعده ، وتكتمل سعادته بالفعل حين يخبره الزميل بأنه قرأ الكتاب ، وأعجبه .

بعض الكتـاب يكتفون بهذه الإشـارة ، ويحتضنونهـا ، وبعضهم يمعن في استنطاق الزميل الذي ذكر بأنه قرأ ، ليتأكد فعلا أنه قرأ الكتاب ، وأدلى بذلك الرأي الإيجابي عن قناعة ، وليس عن مجاملة . وهنا من المؤكد أن هناك من لا يهتم بهديته من الكتب ، وقد لا يعـود إليـهـا أبدا وسط تراكم أشـغـاله

الخاصة . وهناك من لا يحملها أصلا من الفندق الذي تلقاها فيه ، لأسباب عديدة ، منها كثرة الكتب التي أهديت ، وضيق الحقيبة ، وتنقله من بلد لبلد ، في جولة قد تنتهي بعد زمن ، والأهم من ذلك ، ثقته المفرطة بأنه لا يملك وقتا لقراءة كل ما يقتنيه شخصيا من المكتبات ومعارض الكتب ، ناهيك عن هدايا وصلته من أصدقاء ، أو كتاب يافعين ، ولا يعرف قيمتها بعد .

لذلك وفي جولات على أسواق الكتب القديمة ، في كل المدن تقريبا ، من الطبيعي أن تعثر على كتب مهداة لشخص ما ، وما زال الإهداء مؤطرا على صفحتها الأولى ، تباع هناك ، وغالبا ما يكون المبدع قد تركها حيث أقام ، وعثر عليها نادل أو عامل نظافة لا علاقة له بالكتب وبالثقافة ، فقام ببيعها ، لتعرض بتلك القيمة الزهيدة . وأنا شخصيا من الذين اعتادوا التنزه في أسواق الكتب القديمة ، أو المفروشة كما تسمى ، وحدث أن عثرت على كتب عليها إهداءات لكتاب معينين ، وكان بعضها ذا قيمة كبرى ، لكن الذي أهديت إليه ، لم ينتبه ، وسط أكوام الكتب الأخرى التي أهديت له ، وشكلت عبئا كبيرا . وقد أخبرني كاتب كبير راحل ، أردت أن أهدي إليه كتابا في بداياتي ، أثناء مروره بالبلد الذي أقيم فيه ، بأنه سيقبل كتابي ، ويتعهد لي بقراءته ، فقط لو قبلت أن أحمل هداياه من الكتب التي قدمت له هنا حتى الآن ، لأنه لا

يستطيع التنقل بها ، ولا يستطيع أن يتركها ، وأيضا لن يستطيع قراءتها على الإطلاق . وكان أن حملت أكثر من ثلاثين كتابا ، قلبتها فيما بعد على عجل ، وكان معظمها خواطر إنشائية ، بلا قيمة إبداعية ، وفيها كتابان جيدان يحويان نظريات نقدية كما أذكر ، لكن وبالرغم من ذلك ، لم يقرأ الرجل كتابي كما أعتقد ، وربما تركه في مكان آخر ذهب إليه ، أو أهداه لكاتب مبتدئ آخر ، جاء يهدي إليه كتابا .

بعد أن أصبت بداء السفر ، والمشاركة في الملتقيات المتعددة ، هنا وهناك ، ولقاء الأصدقاء من الكتاب ، وأيضا لقاء كتاب شباب ، يهمهم أن أقرأهم ، أصبحت أتلقى هداياي من الكتب ، بعضها مباشرة من أيدي من ألتقيهم ، وبعضها مرسل بواسطة آخرين ، وأحيانا أجد كتبا ملقاة أمام غرفتي حيث أقيم ، وعليها إهداءات ، وبلغ في إحدى زياراتي لدولة عربية أن وصلني سبعون كتابا تتراوح بين الشعر والرواية والمسرح والخواطر ، سهرت في تقليبها ليلة سفري لبلدي ، ولم أعرف كيف أحملها ، وأيضا كان من الصعب تركها ، وكان أن وضعتها في حقيبة إضافية ، وحملتها معي ، بما يشكل وزنا زائدا لحقائب السفر ، وعبئا على الذهن أن يفكر حتى في إمكانية قراءة كل ذلك .

أعتقد أن الكتاب هو بطاقة الكاتب التعريفية ، وبها يمكنه أن يكتسب معارف وأصدقاء ، وأيضا يمكنه أن يقدم نفسه لدور

النشـر التي لا تعـرفـه ، وللمسـتـشـرقين الأجانـب حين يزورون بلده ، طمعا في ترجمة .

الكاتب المبتدئ أو الشاب ، أكثر حاجة لبطاقته التعريفية ، ودائما ثمة عشم في كتاب كبار ومخضرمين أن يطلعوا على نتاجه ويقيموه ، وأعرف شخصيا من ذكريات البداية ، أن الكتاب المطبوع لكاتب شاب ، لم يظهر هكذا في المكتبات أو في يد صاحبه ، بمعجزة ، لكنه ظهر بعد خوض كثيف وطويل في وحل غير ضروري أبدا ، وصيره الطموح المرافق لجرثومة الكتابة ، وحلا ضروريا . الشاب يتعب كثيرا ، ويطرق أبواب النشر ، ويوفر من ماله ، ويدفع ، ويفرح حين يرى الكتاب ، ويود أن يفرح حين يخبره الكبار بأنهم قرأوه وأحبوه ، ولا أكثر من إحباط حين ينتهي كتابه بعد هذه الرحلة الطويلة ، إلى طاولة في غرفة فندق ، أو سوق تباع فيها الكتب المستعملة ، من دون أن يكون الكتاب قد استعمل . وفي الوقت نفسه كما قلت ، يكون الكاتب القديم المقصود بالهدية ، والمؤمل أن يقرأ التجربة ويقيمها ، مثقلا بأعباء لا تسمح له بالتحرك بوصة بعيدا عنها ، وبذلك يكون الإحباط مضاعفا ، عند من أنتج بمرارة ، ومن لا يستطيع تقييم الإنتاج ، بمرارة أيضا .

بالنسبة لي شخصيا ، ومنذ سنوات لم أعد أحمل كتبا في حقيبتي إلا نسخا قليلة ولأصدقاء معينين أثق أنهم سيقرأوها ، أو قراء يتابعونني ، وتجمعهم بي صداقة ، ولم يحصلوا على

كتاب معين لي حيث يقيمون ، وبذلك أعفي الآخرين من عبء امتلاكهم لكتبي المهداة ، وأعرف أنهم سيقتنونها من أي معرض للكتب إن أرادوا قراءتها بالفعل .

طبعا لا أريد لتقليد إهداء الكتب أن يتوقف ، ففيه تقدير كبير من الذي يهدي للذي يهدى إليه ، وفي الوقت نفسه ، لا بد من العثور على صيغة تجعل الهدايا مقدرة ، في الحقائب ، وفي جداول قراءتنا بعد ذلك .

داخل مول تجاري

أثناء زيارتي الأخيرة للقاهرة، للمشاركة في الملتقى السادس للرواية العربية، الذي انتهى منذ عدة أيام بشكل جميل ورائع، وبحصول كاتب قدير هو بهاء طاهر، على الجائزة هذا العام، طلب مني الناشر الشاب أحمد سعيد، أن أجلس قليلا في مول تجاري كبير، لأوقع كتابي الأخير: «ذاكرة الحكائين»، الصادر عن داره، للقراء الذين سيأتون حتما. وأوضح أن الفكرة ليست جديدة، ولا تخصه هو، لكنها فكرة حداثية وشابة، وتم تطبيقها بنجاح من قبل، في المول التجاري نفسه المزدحم بكل الأفكار، بما فيها أفكار القراءة.

لقد تحدثت كثيرا عن حفلات التوقيع هذه، في الوطن العربي، واعتبرتها من الفخاخ غير المحكمة، لأنها في الغالب لا تصطاد شيئا كثيرا، وربما تكون لها آثار جانبية سيئة على نفسية الكاتب، خاصة إن كان من الشباب، وما يزال يملك طموحات وآمالا، وأحلاما، يود لو صمدت معه في مشيه الطويل على درب الكتابة. هذا إن كانت تلك الحفلات في معارض الكتب، وتحت سمع وبصر أشخاص، جاءوا أصلا

لشراء الكتب أو على الأقل ، تقليبها والاستمتاع برائحتها ومناظر أغلفتها ، وأثناء ذلك ربما تلفت أنظارهم فتاة جميلة متزينة ، توقع كتابا لها ، فيسارعون إلى اقتنائه ، أو كاتب معروف ، محشور بين البيع والشراء في جناح دار نشره ، فيسرعون لمعانقته والتقاط الصور معه ، واقتناء الكتاب الذي كان يوقعه .

لكن ماذا عن المول التجاري؟ وكيف يحتمل مكان أنشئ غالبا بمواصفات حسناء مغوية ، أن يستوعب الثقافة وعناوينها وممثليها الفقراء ، ويسمح بفرصة التسوق من الكتب أيضا؟

الحقيقة أن فكرة إنشاء مكتبة ، داخل مول تجاري ضاج بالسلع ، شيء جيد حتما ، فوسط الماركات الكبيرة للأزياء والأحذية والساعات ، وغيرها من السلع الجذابة ، مما يشكل مفاتن المول أو مفاتن الحسناء كما أسميها ، لا بد من وجود معارضة ، والمعارضة هنا ، هي المكتبات ، سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، ضخمة وتحتل مساحة مذهلة ، داخل المجمع التجاري ، كما هو الحال في مكتبة مول دبي ، أو صغيرة وتقف باستحياء في ممر ، داخل المجمع ، كما هو الحال في المكتبة التي من المفترض أن تتبنى توقيع كتابي ، في المول المصري . المهم في الأمر ، هو فكرة وجود معارضة ثقافية للسلطة التجارية .

كلنا يعرف أن الفرص لن تتساوى ، والذي تكبد عناء الوصول لذلك المجمع ، وعناء التجول في مساحته الكبيرة ، لم

يتكبد ذلك من أجل كتاب ، ولكن طالما أن المعارضة دائما تربك حسابات السلطة ، حتى لو لم تنلها ، فالمكتبة تربك حسابات السلع التجارية ، إلى حد ما .

طبعا حاولت التخلص من حرج الجلوس في المول التجاري ، وحلت المسألة بأن جلست في كافيتريا قريبة من المكتبة ، وتبدو متواطئة مع الثقافة ، ولا مانع إن احتل الكاتب موقع الكتاب ، وأصدقاؤه ، جميع مقاعدها وطاولاتها ، وقد حدث أن احتللنا جزءا من تلك الطاولات الجميلة ، بلا أي مشكلة .

التجربة لم تكن ناجحة كثيرا ، ولم أكن أتوقع نجاحها بالطبع للأسباب التي ذكرتها ، إنما كانت مغامرة ، لا بد من خوضها وتدوينها كتجربة في ما بعد . كان القراء الذين يقتنون الكتاب من المكتبة الصغيرة ، يأتون في الكافتيريا ، أو «الكوفي شوب» ، يحصلون على التوقيع والابتسامة ، وصورة تذكارية مع المؤلف ، بهواتفهم النقالة ، التي باتت الآن ، أهم وسيلة لاقتناء الذكريات ، وأهم ذاكرة ، تعض على تلك الذكريات ، ونادرا جدا أن تجد شخصا في هذا الزمن ، لا يحمل ذاكرته النقالة معه ، ولا يبكي قهرا وحزنا حين تضيع أو تسرق منه .

ولأنني من الذين يحبون صيد الحكايات ، فقد خرجت بحكايات لا بأس بها ، من جلستي في الكوفي شوب ، من تأملي للضجيج وفوضى التسوق أو فوضى الفرجة المجانية ، من

مشاهدة حكايات العشق الحية ، وحكايات الأحلام التي أتصورها وأنا أتابع .

كان من أغرب ما حدث في تلك الساعة التجارية ، أن فتاة اقتنت كتابي ، وجاءت للتوقيع والتقاط الصور بذاكرتها النقالة ، وجرى بيني وبينها حوار قصير ، وضحت فيه : أنها لم تقرأ كتابا ، خارج مقررها الدراسي من قبل قط ، لا رواية ولا قصة ولا شعرا ، ولا أي إبداع ، ولا كانت تلك الأمور من اهتماماتها أصلا ، لكنها فجأة قررت اليوم بالذات أن تقرأ شيئا ، وكان كتابي الذي التفتت إليه بسبب اسمي الغريب ، أول ما اقتنته ، وستقرأه لتعرف أولا ، ما معنى أن تقرأ بحرية ، بعيدا عن المقررات الدراسية . وثانيا ، ماذا تعني قراءة الإبداع؟ وقد أخبرتها بأن كتابي ليس إبداعيا ، وإنما هو تجميع لمقالات أكتبها عن الإبداع ، فأبدت ارتياحها ، لأنها كانت تخشى أن تقرأ شيئا إبداعيا ، من دون دراية .

حقيقة سعدت بأن نورهان ، وهذا اسمها ، ستبدأ سكة القراءة وهي في أوائل العشرينات من العمر ، وبكتاب من كتبي ، لكن بت خائفا أن لا ينجح كتابي معها ، أو لا تتذوق مقالاتي التي بلا شك تحتاج إلى مزاج ، وشيء من طول البال ، من أجل التفاعل معها ، وبالتالي تفر من القراءة ، فكتبت لها أسماء عدة روايات لباولو كويلهو ، وأنا واثق من أنها ستتفاعل بشدة مع تجربته ، فلن تكون استثناء في عالم تفاعل كله تقريبا

مع كتاب الخيميائي ، وشخصيا أعتبره كتابا بسيطا جدا ، وشبيها بكتب الناشئين الملخصة عن كتب للكبار ، من أجل إدخالهم في درب القراءة .

الحياة مغامرة كبرى ، والكتابة مغامرة داخل مغامرة ، ومحاولات مواكبة التحديث والموضات جيدة لجيل مثل جيلنا ، وهكذا لم تكن تجربة المول التجاري خاسرة تماما . هنا كسبت جلسة جميلة وسط أصدقاء جميلين ، وكسبت قارئة مثل الفتاة التي ربما أعجبها وتقرأني مرة أخرى ، وربما يعجبها كويلهو ، وتبحث عن أعماله وأعمال آخرين .

الأدب الراقي والتجاري وباختين

منذ فترة ليست بعيدة ، نشر أحد النقاد مقالا طويلا ، وضع فيه أسماء عدد من الكتاب العرب المعروفين وسط القراء بغزارة إنتاجهم ، وانتشار أعمالهم بصورة جيدة ، وفيهم ظواهر ، تحتل مكانا دائما في قوائم الأكثر مبيعا ، واصفا أدبهم بأنه أدب تجاري ، يكتب خصيصا لإرضاء القراء ، بلا أي عمق ولا خلفية ثقافية ، وأن مصير هذا الأدب ، هو أن يندثر يوما ما ، ليبقى الأدب الحقيقي .

ولأن الناقد اكتفى بذكر الأسماء فقط ، من دون أن يوضح لنا ما هي النتوءات والحفر التي عثر عليها في نصوص أولئك الذين ذكرهم ، ووصمتها بالتجارة ، وأيضا ما هو الأدب الراقي الذي سيبقى في المستقبل ، بدا لي مقاله ناقصا ، ويحتاج لتكملة .

بديهي أن النص لا يبقى نصا خاصا بكاتبه ، بمجرد أن ينشر ويطلع عليه الناس ، ومن حق كل من يطالعه أن يدلي برأيه فيه أو لا يدلي ، ورغم ازدياد عدد النصوص الروائية المكتوبة في السنوات الماضية ، واستحالة أن يتابعها أحد بنزاهة

وضمير يقظ ، وأيضا يضيئها بمصابيحه الساطعة أو المعتمة ، يبقى بعض النقاد مثابرين ، ويحاولون أن يتواصلوا مع الكتاب من جميع الأجيال ، وأعرف نقادا ليسوا من دارسي الأدب في الأصل ، لكنهم مهنيون في مجالات أخرى ، مثل الهندسة والقضاء والطب ، واتخذوا النقد هواية إبداعية ، تماما مثل هواية كتابة الشعر والقصة ، وشخصيا أثق في كتابة هؤلاء وأقدرها كثيرا ، فهي تمنح الخلاصات بعيدا عن الجمل الكبيرة ، والكلمات التي تحتاج لدرج طويل ، من أجل ارتقائها ، مثل : هوية النص في استجابته للتأويل ، وغيرها من الجمل ، وأهم من ذلك أنها لا تورد اسم الروسي ميخائيل باختين ، الذي يشبه حبة الكرز أو الفراولة ، التي توضع في منتصف التورتة لتزيينها .

فكل مقال نقدي ، لا بد فيه ميخائيل باختين ، وأي حديث جانبي عن الكتابة في مقهى ، من حق باختين أن يتصدره ، وأذكر أنني التقيت مرة بناقد من دولة عربية ، لم يظهر منها روائيون كثيرون ، رغم حب مواطنيها للآداب ، حدثني مباشرة حين تعرف إلي ، وبمنتهى الدماثة والأدب ، بأنه قرأ لي رواية وحيدة اسمها : «العطر الفرنسي» ، وهو شخصيا لا دخل له في أنها ليست رواية على الإطلاق ، لكن قواعد ميخائيل باختين التي طبقها عليها ، هي التي تقول ذلك ، وأنه يعتذر لي بشدة ، ووعدني بأنه سيقرأ لي مرة أخرى ، عسى أن

يرضى باختين عني في المرة المقبلة .

هذا الناقد الذي ذكرته ، هو معظم النقاد المتوفرين حاليا ، النقاد الذين لديهم نموذج مكتوب للرواية ، له : حوش مدهون بلون معين ، وأبواب ونوافذ تطل على فناء معين ، ، وتسكنه لغة معروفة من عائلة : لم ينبس ببنت شفة ، وارتعدت فرائصه ، وكان عريض المنكبين ، إلى آخر تلك العائلات التي لم تعد تشد للقراءة أبدا ، وأيضا له مرجعية نقدية ، هي ما أسسه الروسي ميخائيل باختين ، الذي عاش بين أواخر القرن التاسع عشر ، ومنتصف سبعينيات القرن الماضي ، وبالتالي لا بد كان خارج سياق التنظير منذ الستينيات ، بسبب تقدم العمر . ولذلك ومهما اجتهدت الجوائز المنتشرة في الوطن العربي ، في محاولة إيجاد محكمين نزيهين ، لإعطاء كل ذي حق حقه ، لن تعثر إلا على القليلين ممن طوروا أدواتهم ، ولحقوا بقطار الإبداع الذي بات سريعا ، ومن الصعب اللحاق به .

الأمر في تحكيم الجوائز هنا ، ليس عدم نزاهة أبدا ، ولكن اتكاء على النموذج المعروف ، ارتواء من ماء النموذج المعروف ، ونوما عميقا في ظل النموذج المعروف ، وحين يأتي مبدع حاملا نصا جديدا فيه تجريب وابتكار وجهد في البناء المغاير والفنيات المغايرة ، لن يلتفت إليه أحد ، وإن التفت ، فبالتفاتة باختين ، التي تطرده تماما من الإبداع . ولذلك لن تُقيم أبدا نصوص رائعة مثل نصوص : سمير قسيمي ، وأحمد عبد اللطيف

صاحب كتاب «النحات» ، ومحمد ربيع صاحب الروايات الجريئة الصادمة ، وغيرهم كثيرون .

أعود إلى ناقد الأدب الذي صنف بعض الكتاب بالتجاريين لمجرد انتشارهم من دون أن يخبرنا بقاعدته هذه المرة ، وحقيقة أن الأدب التجاري هو الذي يحتل قائمة الأعلى مبيعا في العادة ، في جميع الأماكن ، لما يحتويه من بساطة في الفكرة والكتابة ، وأدوات التعبير التي يفهمها المراهقون وكبار السن على حد سواء ، وأيضا لما يحتويه من غراء لاصق وبهارات تزين الخلطة ، وطبعا لا بد من جنس كثير ، وإثارة ، وخروج عن المعتقدات ، وإيحاءات ليست بريئة بأي حال من الأحوال ، وأظن أن رواية «شنغهاي بيبي» ، ورواية «الزواج من بوذا» للصينية وي هو ، من أشهر تلك النماذج التي انتشرت كأعمال تجارية .

في المقابل ليس كل أدب منتشر ، وموجود على لوائح الأكثر مبيعا ، من النوع التجاري ، وليس كل كاتب مقروء بكثرة وله جماهيرية عريضة ، هو كاتب متشرد ، بلا معنى ، وبلا أدوات راقية ، وليس هناك أعظم من جابرييل غارسيا ماركيز ، ولا أكثر انتشارا منه ، وهو يكتب بحبر من الرقي ، على ورق راق جدا ، ويوجد آخرون على غرار ماركيز ، قدموا لنا الآداب في أبهى زينتها ، وانتشروا ، واحتلوا قوائم الأكثر مبيعا ، مثل الإسباني أنطونيو غالا ، والتركي أورهان باموق ، والإيطالي

أنطونيو تابوكي، صاحب الرواية العظيمة «بيريرا يدعي»، وعندنا في بلاد العرب، نماذج كثيرة، يعرفها القراء جيدا، بعيدا عن ذكر الأسماء.

أعتقد أن الإدلاء برأي ما في كتابة أحدهم، ينبغي أن يكون مدروسا، وينبغي أن يكون من نتاج قراءة حقيقية، وبعدسات محايدة تماما، وليس ناتجا عن غيظ أن هناك من يكتب كثيرا، وهناك من يكتب كل عشرة أعوام رواية، الأمر هنا يخرج من نطاق توظيف الأدوات النقدية بتعقل وحكمة، فهناك من المبدعين من يستطيع أن يكتب يوميا بلا معوقات، وهناك من لا يستطيع الكتابة بشكل منتظم، وهناك أيضا من كتب نصا واحدا، وابتعد تماما. إنها مسائل لا تخضع لقانون موحد.

تدمير الكتب

يعتبر كتاب : «كتب تحترق» ، الذي ألفه الباحث الفرنسي المعروف لوسيان بولاسترون ، وأصدرت نسخته العربية ، وزارة الثقافة والفنون في قطر ، قبل عدة سنوات ، ويحكي عن تاريخ تدمير الكتب في العالم ، أحد أهم الكتب المعرفية ، التي ينبغي الاطلاع عليها بواسطة عشاق القراءة ، لما يوفره من معلومات كثيفة في موضوع ضياع المكتبات ، أهم أسبابها ، وتداعياتها ، وأشهر المكتبات التي ضاعت عبر التاريخ ، وتلك الموجودة الآن ، ويمكن أن تضيع في أي لحظة ، إذا لم نقم بحمايتها . ولا بد من ذكر أن الكتاب ترجم بطريقة جيدة فعلا ، وكان ثمة أسلوب أدبي رائع للمترجمين : هاشم صالح ومحمد مخلوف ، حيث نقلا لنا المادة الخشنة المؤسفة ، والمؤثرة للكتاب ، بطريقة نقل الروايات ، وبالتالي ، حقق الكتاب في رأيي ، متعة كبيرة في القراءة .

كان من الواضح أن المعرفة بنفسها ، كانت هدفا مدروسا من أهداف الإنسان ، حتى في عصور قبل الميلاد ، وقد عرف الإنسان الكتابة مبكرا ، كتب على الرمل والطين ، ولحاء

الأشجار ، كتب على أوراق شجر البردي ، واهتدى إلى تجميع كتابته تلك في أماكن معينة ، لا يصلها التلف في العادة ، وهذه هي نواة المكتبات . وقد سرد الكتاب ، طقوسا كثيرة تخص المكتبات ، واعتبر تخزين المعرفة ، ليستفيد منها الآخرون ، وظيفة سامية جدا ، وتخزينها من دون السماح للآخرين بالاطلاع عليها ، شحا ، يشبه شح المال في كل شيء ، ولطالما كانت المعرفة ، أقيم حتى من المال .

لكن ، لماذا تضيع الكتب في العادة؟ ، لماذا هي دائما مثلما كانت الهدف الأسمى للتنويريين ، يحدث أن تصبح هدفا أولا لأعداء المعرفة ، يدمرونها بتشف ، وسعادة غامرة .

المسألة ، أعني مسألة تدمير الكتب ، خاصة حرقها ، ليست جديدة ، على الإطلاق ولا اختص بها شعب عن شعب آخر ، أو طائفة دينية عن طائفة أخرى ، فقد حدث ذلك كثيرا ، ويسرد لنا المؤلف ، كيف أن أمما كثيرة وطوائف ، كانت تتشفى بحرق كتب غيرها من الأمم والطوائف ، وهناك في المسيحية واليهودية ، أشخاص عبر التاريخ ، تخصصوا في حرق الكتب ، لا لشيء سوى أنها ربما اختلفت مع معتقداتهم ، وروى أن يهوديا ، اعتنق المسيحية ، في القرن السادس عشر ، في فرنسا ، أبلغ القساوسة عن إساءات بالغة في أحد كتب اليهود ، للدين المسيحي ، فعمد القساوسة إلى تجميع نسخ الكتاب ، وحرقها في ساحة عامة ، وقامت محكمة التفتيش

بعد ذلك ، بتجميع كتب اليهود كلها بما فيها التلمود لحرقها . في المقابل حدث كثيرا أن جمعت كتب مسيحية ، وأحرقت وسط الضجيج والصخب ، في ساحات عامة لليهود ، وهكذا ، تأتي قصص المغول وتيمورلينك ، وحرق مكتبات العراق وسوريا ، والاعتداء على المعرفة في فلسطين ومصر ، وغيرهما من البلاد ، بواسطة أفراد أرغموا أنفسهم على كراهية العلم والنور ، واستوطنوا بعقولهم في سرر الظلام ، أو بواسطة جيوش بربرية غازية لإقليم ما ، وأول ما تفكر فيه ، سبي النساء ، وتدمير المعرفة بحرق الكتب .

بالنسبة لعادة الحرق عامة ، ينسبها المؤلف إلى التشدد الديني ، أو التشدد في رفض معتقدات الآخر ، وأيضا الرغبة في معاقبة الآخر ، بحرق جهده وكفاحه كما حدث حين أحرقت كتب لمؤلفين أنفقوا أعمارهم في كتابتها . فالمتشدد الديني ، لأي دين سواء أكان الإسلام أم المسيحية أم اليهودية ، وحتى الأديان التي لا تملك أي مرجعية ، وليست سماوية مثل البوذية والهندوسية ، يمكنه ببساطة شديدة أن يحرق كل الكتب التي يظنها مسيئة لعقيدته ، أو غير ضرورية لتوجد بجانب كتب عقيدته ، ويمكن أن يفعل ذلك بمجرد السماع بالشيء ، ولا يكون مطلعا عليه ، كأن يخبر أحدهم متشددا مسيحيا بوجود إساءة للمسيحية ، في كتاب ألفه مسلم ، فيقوم بالبحث عنه وتدمير ما يجده من نسخ ، بلا صبر ولا ترو . وذكر

المؤلف مذهبا بعينه في المسيحية ، أوجده راهب صوفي متشرد ، كان يحرق كل الكتب بلا استثناء ، بما فيها كتب المسيحية ، وقام بوضع كتاب اسمه : حرق الكتب ، يتحدث فيه عن مذهبه ، ثم قام بحرقه أيضا ، وكلما كتب تعليمات في ورق لأتباعه ، قام بحرقها ، وهكذا . . المتشدد خاصة ، لا يدمر الكتب فقط ، لكنه يدمر ذاكرة الحضارة كلها ، يدمر التاريخ ويدمر المعاني السامية ، والعلامات الإرشادية ، وما تركه الذين أنفقوا أعمارهم كلها من أجل تلك المعرفة .

إذن أستطيع القول إن قتال الكتب وهزيمتها ، ونحرها أو حرقها بكل تلك المتع وفي أزمنة مختلفة من التاريخ ، تمثل المعارك الأكثر دناءة للإنسان ، المعارك التي يخوضها بسلاح مظلم ، ويهزم فيها النور إلى حين ، ودائما ما نجد أن الظلام يذهب في النهاية ، وينهض النور من رقدته حتى لو طالت ، ليغمر الدنيا من جديد . وللأسف الشديد ، تأتي معارك تدمير الكتب دائما سريعة ، وغادرة ولا يكون هناك من استعد لها ، وأيضا دائما ما ترتبط بالتوحش والبربرية ، ولذلك لن تجد من يتصدى لمنعها ، لأنه لن يعيش طويلا ليفعل ذلك . وتحضرني أمثلة حديثة لشعراء وكتاب ربما أجرموا في بعض نتاجهم ، وأساءوا الأخلاق ، وتم الاتفاق على حرق كتبهم ، كنوع من الاحتجاج على ما فعلوه ، لكن أقول دائما إن ذلك لن يجدي ، والأجدى هو محاورة من أساء ، لربما يعود عن الإساءة ويعتذر ،

وأيضا يوجد سلاح المقاطعة ، وهو أن تهمل كتبه ولا يتناولها أحد بالدراسة ، والمراجعات ، فتموت معنويا لكن تبقى على الرفوف ، دليلا أخاذا على تحضر من أساءت لهم وعفوا عنها .

أمثلة حرق الكتب والمكتبات كثيرة ، ويقول مؤلف كتاب : «مكتبات تحترق» ، إن اليهود بالذات كانوا أكثر الأمم استفزازا للكتب ، وأكثرها تشددا في تأديب كتب من يخالفهم ، ومن الأفعال الغريبة ، أن هناك يهود متدينون ، أحرقوا كتب موسى بن ميمون ، أحد منظري اليهود .

الخلاصة ، وفي سبيل اقتناء المعرفة ، لا بد من كتاب ، وفي سبيل الحصول على كتاب ، لا بد من صيانة ما نملكه وما نستطيع أن نملكه من كتب . المعرفة تبقى ، وتعيش بعدنا ، ولو حدث ودمرت لأي سبب من الأسباب ، لا تبقى سوى الحسرة .

تمدد الكتابة

كنت نشرت على صفحتي في موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك ، مقطعا صغيرا من نص جديد أعمل عليه . كان فيه وصف لأحد العطور الحديثة ، بأنه عطر ملائكي ، صمم ليبقى على الجسد أياما طويلة . وفوجئت بعشرات الرسائل ترد إلى بريدي ، وتؤيدني في وصفي للعطر ، وكانت من أشخاص إما يعرفون ذلك العطر ويستخدمونه ، وإما التقطوا اسمه حين ذكرته وجربوه ، و اقتنعوا بإيحاء أنه ملائكي . وكانت إحدى هذه الرسائل من موزع للعطور أعرفه ، وبدا في رسالته متحمسا لإدخال العطر إلى تجارته ، وليصبح من ضمن العطور التي يتولى بيعها والترويج لها .

وقبل عام تقريبا ، كنت تلقيت رسالة من منظمة الصحة العالمية ، تخبرني عن نشاط فيروس إيبولا القاتل ، الذي يسبب الحمى النزيفية ، أي البلاد غزا مؤخرا ، وأي البلاد يتوقع أن يغزو في المستقبل القريب ، وما عدد ضحاياه ، وكانت تلك الرسالة رد فعل علمي أو طبي لرواية متخيلة لي اسمها «إيبولا٧٦» ، فيها القليل من الحقائق والكثير من الهواجس ،

كتبتها عام ٢٠١٢عن فيروس إيبولا ، وبالتحديد عن هبته الأولى حين ظهر عام ١٩٧٦ في الكونغو وجنوب السودان ، كفيروس مرعب وخطير وحاصد للأرواح بلا أي رحمة .

أيضا أخبرني زميل ، عن كاتب يعرفه ، كتب قصة عن قرية متخيلة ، تشبه قرى بلاده كثيرا ، ذكر فيها أحداثا وقعت في النص ، لكنها يمكن أن تقع في الواقع أيضا ، وذكر أسماء معينة ، تشبه أسماء كثيرة يتم تداولها في القرى عادة ، وفوجئ حين نشرت قصته بواحد من سكان القرى ، يقدم شكوى ضده ، بوصفه أساء إليه ، حين استخدم اسمه كاملا في النص ، وألبسه لشخص غير جدير بحمله ، كان يقوم بأشياء معيبة ، بينما هو بعيد عن كل ذلك .

ما أردت قوله من هذه المقدمات ، هو أن الكتابة بكل حسناتها وسيئاتها ، تصل إلى أبعد مما يمكن أن يتخيل الكاتب . ولكن الكاتب قد لا يعرف ذلك ، إلا إذا أخبره أحد ما ، أو عثر أحد على عنوانه وراسله ، هنا لا أعني القراءة العادية التي يمكن معرفة نتائجها من مواقع القراءة ، ومن الاحتكاكات التي تحصل كثيرا بين المؤلف وقرائه ، وأيضا من الأصدقاء المتوفرين بكثرة على صفحات المؤلفين في المواقع الاجتماعية ، بعضهم يكتب ، وبعضهم لا يكتب لكنه يتابع الكتابة . هنا أعني أولئك الذين لا تهمهم القراءة في العادة ولا يحسون بوجودها أصلا ، إلا إذا تناولت شيئا يخصهم ، فلا

أعتقد أن موزع عطور مثلا ، يهتم بفقرة من نص في صفحة لمؤلف ، ويسعى لتذوقها والثناء عليها ، أو وضع علامة الإعجاب الشهيرة ، التي أعتبرها شخصيا نوعا من عرض الوجه أمام الصديق ، ولفت انتباهه ، أكثر من الإعجاب بنصه ، لا يفعل ذلك إلا إن كان هناك ما يهمه . موزع العطور سيفرح إن كتب اسمه أو اسم عطر يوزعه ، أو عطر آخر سيسعى لتوزيعه بعد أن التفت إليه مصادفة .

منظمة تعمل في شؤون الصحة ، ومكافحة الأمراض ، والسعي للقضاء عليها ، لا يملك أعضاؤها وقتا أو مزاجا ، لتصفح رواية ، إلا إن كانت تتحدث عن مرض ممدد في يومهم ، ويسعون لمكافحته ، وأجزم أن الأطباء غير المهتمين بالأدب عادة ، يمكن أن يقرأوا «إيبولا٧٦» ، و«الحب في زمن الكوليرا » لماركيز ، و«الطاعون» لألبير كامي ، لكن من المؤكد أنهم لن يقرأوا «مئة عام من العزلة» ، أو «شيطنات الطفلة الخبيثة» ، لأن العزلة ليست مرضا يسعون خلفه ، والأطفال بمفهوم العاملين في حقل الطب ، كائنات هشة ، تجب رعايتها في أي وقت .

بالنسبة لكتابة الجو العام لمكان ربما يعرفه المؤلف ويتقن تفاصيله ، ويستخدم خاماته في إنتاج نصه ، فهذا شيء مشروع ، وما دام الأمر خياليا بحتا ، ستزداد مشروعيته ، وما سيجعله غير مشروع هو أن تصل الكتابة المتخيلة هذه بواسطة

أشخاص يقرأون إلى أشخاص لا يعرفون عن القراءة ، أو لا يهتمون بها ، وفقط سيهتمون بذلك التشابه ، ويسعون لنيل حقوفهم من المؤلف ، الذي يعتبر مارقا في نظرهم .

إذن نحن أمام تمدد الإبداع بشكل أو بآخر ، إيجابيا كما حدث في تذكر مؤلف إيبولا وشكره على مجهوده ومده بمعلومات جديدة ستساعده ، إن كان سيكتب مرة أخرى ، وسلبيا حين يسعى أشخاص حقيقيون ، لمحاكمة مؤلف كتب نصا متخيلا عن أشخاص متخيلين وأحداث متخيلة . وبالنسبة لكل ما يكتب على الإنترنت خاصة ، فهو يصل لا محالة ، الذي تمتدحه وتثني عليه ، يصله مديحك ويصلك انتشاؤه ، والذي تسبه وتنتقص من قدره ، يصله سبابك ، ويصلك استياؤه ، وحدث أن كتب أحدهم في مدونة مغمورة عن كاتب صديق ، نعتز به ، وصفه بالغبي الذي لا يفهم معنى كلمة رواية ، ويلقى برغم ذلك رواجا من الناس ، فوصلت حماقته للصديق ، ووصله استياء الصديق وسخريته .

الكتابة تصل ، وتصل بسرعة غريبة ، ومهما كان الكاتب مغمورا ، أو غير جدير بالقراءة ، لكن يصل حين تصبح قراءته أمرا ضروريا عند اللزوم ، وقد فكرت جديا في استغلال مسألة الاهتمام من غير القراء بنصوص معينة ، والإمساك بهؤلاء لينضموا إلى ركب عشاق الكتب ، وقرائها المميزين .

صناعة الأعداء

أذكر حين كنا تلاميذ صغارا في المدرسة الابتدائية ، نتكدس في فصول يضم الواحد منها خمسين تلميذا أو أكثر ، على أقل تقدير ، كان البعض منا ينتظر يوم الإعلان عن نتائج الامتحانات السنوية ، وفي الغالب أولئك الكسالى العاطلون عن أي موهبة أو رغبة في دراسة قد تؤازر مصيرهم في المستقبل . كانوا ينتظرون بعصي مدفونة بالقرب من المدرسة ، حتى إذا ما انتهى إعلان النتائج ، وظهرت أسماء المتفوقين ، طاردوهم في الطرق ، ضربوهم بالعصي ، وركلوهم بالأحذية ، في طقوس كانت عادية للغاية ، يتفرج عليها التلاميذ جميعا ، ولا يفصحون عن مرتكبيها إن وصل الأمر إلى المستشفى ، أو إدارة المدرسة . ولو نظرنا لمصائر من كانوا يفعلون ذلك في مدرستي ، لعثرنا على مصائر قاتمة فعلا لكثير منهم ، بعكس الآخرين الذين أشرقت مصائرهم بشدة .

في الواقع كان أولئك المتفوقون الأذكياء ، ومن دون أن يدروا ، قد اخترعوا لهم أعداء من الوسط نفسه الذي يعيشون فيه ، ويمنح فرص اقتناص المستقبل للجميع بلا تمييز ، ومن

المفترض أن يحاول كل من منحت له الفرصة ، الاستفادة منها ، لا تحويل البيئة إلى صراع غير إنساني ، سينجو منه الضحية ، لكن الجاني هو الذي لن ينجو .

لو طبقنا تلك الطقوس القديمة ، التي من المفترض أنها انقرضت الآن بتطور العملية التعليمية نفسها ، وصعوبة حتى تسجيل طفل ليتعلم ، ناهيك عن فرصة ابتكار الغل لأحد ، لو طبقناها على مجال الإبداع ، أي إبداع إنساني ، كتابة ، غناء ، تمثيلا وغيره ، لعثرنا على الأبجدية نفسها ، موهوبين نشيطين ، صيادين للهم الإنساني ، وينسجون حريرهم في صمت بلا ترقب لمكافأة من أي نوع ، وآخرين بلا أي موهبة أو نشاط ذهني وقاد ، يدفنون عصي الضرب المعنوي ، في داخل نفوسهم ، ليستخدموها في أي وقت في محاولة القضاء على من تفوقوا . هنا أيضا المبدع ، ومن دون أن يدري أو يفكر في أي شيء ، قام بصناعة أعداء لن يتركوه يبدع ، ولن ينجو إلا إذا ابتعد بحاضره ومستقبله عن السكك التي يسلكها هؤلاء ، أو لديه خيار أن يصمد ويقاتل ، وغالبا ما يفعل .

في الماضي ، حين لم يكن هنالك عالم افتراضي ، ينتهك خصوصية المبدعين ، ويستدرجهم للإحاطة بكل ما ينتج من عصي مرفوعة لاقتناصهم ، كانت المقاهي المنتشرة بكثرة ، في المدن ، هي من يرعى الإبداع وضده ، من يرعى الأفكار الخصبة الجديدة ، والأفكار القديمة المستهلكة ، من يمنح فسحة من الوقت

لمبدع أخاذ ، أن يحكي ويبهر ، والفسحة نفسها لآخر متأخر جدا ، لا يستطيع أن يخفي عصا العداوة التي سيجلد بها .

كنا نجلس في تلك المقاهي ، نستمع للجمال وضد الجمال ، معا ، ولكن المبهر في تلك الحقبة ، هي أن كل ما يقال ، يذوب تماما في مكانه ، فلا فضاء ثرثار ، وله ذاكرة ، تحتفظ بغل ربما فاض من أحد في لحظة ضعف ، وانتهى .

من وسائل صناعة الأعداء المهمة ، غير الوجود النشيط ، والصيت العالي ، والجمهور العريض لمبدع ما ، مسألة أن يكون محكما في جائزة ، ينتظرها الناس ويحلمون بعائدها المادي والمعنوي ، المبدع المحكم هنا يتبع أولا معايير الإبداع التي يعرفها ، ويحاول تطبيقها كلها ، أو بعضها على العمل المعروض عليه من أجل أن يقوم بتقييمه ، وثانيا إن نجح العمل وتعدى تلك المعايير ، يأتي دور التذوق الشخصي ، وهذا شيء لا يمكن التخلص منه ، وبالتالي ربما تظلم بعض الأعمال ، ولكن في الغالب يكون المبدع المحكم قد أدى دوره بكفاءة ، وليس من المفروض أن يلومه أحد . طبعا أتحدث عن الطرح المثالي لعملية التحكيم ، ويوجد بالطبع طرح غير مثالي حين تضم لجان ما ، محكمين غير جديرين أن يحكموا . وحين تظهر نتائج الجوائز أيضا ، يفاجأ المبدع المحكم أنه وبعدم ترشيحه لأعمال معينة لم ترق للمستوى ، قد صنع أعداء جددا ، لم يكن في باله أن يصنعهم على الإطلاق . . وأيضا سيجد العصي المدفونة

بالقرب من فضاء إبداعه ، جاهزة لجلده وإقصائه .

بالنسبة للكتابة القصصية والروائية ، خاصة ، توجد وسيلة منتشرة جدا ، يمكن بواسطتها صناعة مئات الأعداء ، خاصة إن كان المبدع متوفرا في أماكن من السهل العثور عليه فيها ، مثل وسائل التواصل الاجتماعي .

هنا يتلقى الكاتب الذي تعرض لعداء التلاميذ في الماضي ، وعداء مجايليه والذين سبقوه ، وأتوا بعده ، ونجا رغم ذلك ، يتلقى مخطوطات كثيرة وبشكل شبه يومي ، من أعمال أنجزها شباب ، ويطمحون أن يحققوا بها نصرا ماديا ومعنويا في مستقبل الكتابة . هذا شيء إيجابي لا غبار عليه ، أن يبدع الإنسان ويمتلك الثقة في إبداعه لدرجة أن يرسله إلى أحدهم من أجل قراءته وتقديمه ، لكن من غير الممكن في مثل ذلك الطرح ، هو أن الكاتب المتلقي للمخطوطات يرزح تحت ضغوط كثيرة ، لا تمنحه فرصة لقراءة عمل جيد كان أو غير جيد ، وإن قرأ ، لا يجد فرصة أن يكتب شيئا مشجعا . توجد وظيفة رسمية في عالم لا تعتبر الكتابة فيه وظيفة ، ولن يأتي يوم تصبح فيه كذلك . توجد أسرة لها احتياجاتها ، وثمة وقت من المفترض أن يخصص لها . توجد التزامات كتابية ، تجاه جهات صحافية ، وفي النهاية يوجد وقت الإبداع نفسه لواحد ، ابتدأ تلك السكة وما زال فيها ، ومع الأسف توجد أربع وعشرون ساعة فقط في اليوم .

الذي يحدث أن الكاتب المتلقي ، ينهار عند الكاتب المرسل ببساطة شديدة ، إن لم يستطع أن يفعل شيئا تجاه مخطوط ينتظر . وتظهر العصا المدفونة سريعا ، ليقال : محاربة الأجيال الشابة ، عدم إعطاء فرصة ، تكبر . . غرور . . هكذا .

أذكر في بداياتي أن سلمت مخطوطا لرواية لي لكاتب راسخ في الكتابة ، وانتظرته طويلا ولم يرد عليّ ، وعرفت بالتزاماته كلها ، ولم ألمه ، وحين صدرت الرواية ، سارع هو بقراءتها وأرسل لي رأيا ليس إيجابيا تماما ، لكني ما زلت أعتز به . ولا أذكر أن ذلك الكاتب دخل عندي في الرف المخصص في الذهن ، لصناعة الأعداء .

لذلك وحتى يكون الإبداع نقيا ، ومحترما من الناس ، علينا تنقية قلوبنا جيدا ونحن نكتب وننشر ، الإبداع من المفترض أن يظل مسالما بلا عداوة أو أعداء .

تغير الزمن والكتابة

حين كنت تلميذا في المرحلة الابتدائية ، كنا نقيم في مدينة بورتسودان الساحلية ، وكنا نفر سنويا في عطلة الصيف من حر تلك المدينة الرهيب ، إلى قريتنا الصغيرة في شمال السودان ، حيث نقضي عطلة جيدة ، وسط أهل بسطاء في حياة بسيطة ، ومفردات غريبة على تذوقنا بالطبع ، لكننا نتآلف معها سريعا ، وخلال شهري العطلة ، نكون بالفعل أبناء أصيلين لتلك القرية ، نرتدي الثياب البيضاء الفضفاضة ، ونقص الشعر كاملا ، وأيضا نستخدم الدواب المتوفرة كمواصلات وحيدة ، وغير مكلفة ، في ذلك الزمان .

كانت توجد في تلك القرى المتراصة في شريط ضيق بين النيل والصحراء ، شخصيات حية ، إما تسكن في القرى أو تعبر بها ، وقد تمت أسطرة بعضها وأصبحت شخصيات عامة ، يعرفها الجميع هناك ، ويسعون للتعرف إليها واتباع خطواتها ، التي كانت خطوات مقدرة بشكل كبير .

كانت ماشطة شعر النساء مثلا ، التي في الغالب امرأة مسنة من الأعراب المرابطين بخيامهم وبيوت الشعر ، حول تلك

القرى ، نجمة حقيقية ، تتصدر مجالس النساء ، وتنقل الأخبار من بيت لبيت ، وغالبا ما يتم إكرامها بسخاء ، حماية للأسرار أن تظل دفينة في صدرها . كان هؤلاء النسوة يدخلن في الأغنيات التي تضفر في ذلك الحين ، ويذكرن في محافل كثيرة ، ولعل كتابة مثل تلك الشخصية في نص روائي ، في ذلك الحين وحتى عهد قريب ، كان سيبدو ساحرا فعلا ، ومميزا فعلا ، وفيه اكتشاف لبيئة قد يهم القراء معرفتها ، وتتساوى في ذلك قارئات البخت ، وراميات الودع اللائي ، يستلهمن المستقبل ، ويحاولن تضفير الطرق بالورود للذين سيعبرونها .

كانت قارئات المستقبل أيضا نجمات ، يمنحن كل من جلس إليهن نصيبا من الحلم الجميل : الموظف سيترقى في عمله إلى رتبة أعلى ، الفتاة العزباء ستتزوج فورا ، ومن رجل ثري ، التلميذ سينجح في دراسته وقد يصبح ضابطا أو طبيبا أو وزيرا ، ، والجدة العجوز التي تقترب من النهاية بخطى حثيثة ، ستحج ، وتعتمر وتعود إلى أهلها سالمة غانمة . وأعتقد أنني كتبت عن شخصية قارئة المستقبل ، بوحي من تلك المشاهدات ، ولا بد توجد شخصيات مشابهة ، في أعمال كتبت في فترات ازدهار القرى بتلك الثقافة ، ولكن لا أعتقد أن معظم النصوص الحديثة التي تكتب الآن ، يمكن أن تستوعبهن إلا ضيفات قليلات الإقامة في الصفحات .

أيضا من الشخصيات التي كانت أسطورية بالفعل ، في

ذلك الزمان وتمثل أقصى طموح للفتيان في القرى ، أن يصلوا إلى مقامها ، وفتيان أحلام للفتيات الحالمات في ليالي العتمة القروية ، حيث لا شيء سوى الثرثرة ، وتضفير الأحلام ، سائقو اللواري السفرية بين القرى والعاصمة ، الذين كانوا يعبرون بكل القرى تقريبا في رحلاتهم الدؤوبة من العاصمة وإليها ، حاملين البضائع والمسافرين ، في شوارع رملية غير ممهدة ، صنعتها عرباتهم .

كان هؤلاء بالفعل شخصيات روائية عظيمة ، وشخصيات دخلت في صميم الثقافة الشعبية ، وهناك ملاحم عديدة ، تحدثت عن سفر الحبيبة من بلدتها ، مع سائق من أولئك ، وكان الشاعر يوصيه باتباع الأخلاق وعدم إغواء حبيبته . وأذكر أسماء لسائقين من نجوم تلك الفترة مثل ، كمال ، وختوم حسن ، ودوشي ، وصابر الشهير الذي لو امتلك السائقون لغة توقيع الأوتوغرافات ، لوقع لجميع سكان القرى الواقعة على شريط النيل ، من شدة وهجه .

أردت القول إن كتابة رواية عن تلك المناطق في تلك الفترة ، لن تكتب إلا ببهارات تكون تلك الشخصيات من بينها أو بالضرورة ، ستكون أبطالها . لا بد من قصة حب بين ريفية جميلة ، رشيقة ، حالمة وسائق يوصف بالوسامة والجرأة والمغامرة ، وكيف يضع الطاقية بطريقة مختلفة على رأسه ، يسافر ويعود ، ويهجر ، ويصل . . هكذا . لا بد من ماشطة

شعر ، تتسلى بالانتقال اليومي من بيت إلى بيت ، وتنقل في تجوالها أخبارا ملفقة ، أو حقيقية لكنها مزعجة . لا بد من ظهور ذلك الرجل الشجاع الذي يمكن أن يغطس في النيل في زمن الفيضان ، لينقذ شخصا من الغرق ، أو يجر إلى البر غريقا طافحا جاء به النيل من بعيد ، حيث سيعثر عليه أهله في ما بعد ، وقد كان في قريتنا رجل بهذه المواصفات اسمه بشير ، وكان نجما يمكنه أن يدخل أي نص روائي ، فقط كانت النصوص التي كتبت في السودان ، وعن هذه البيئة قليلة جدا ، بحيث لم يتسع المجال .

رامية الودع ، قارئة المستقبل ، هي الأوفر حظا في الكتابة ، كما أعتقد . الناس تخاف المستقبل ، وتريده زاهيا في أي وقت ، ودائما ما يوجد من يستطيع تلوين الغبار ، وإضاءة الظلام الدامس بشيء من ضوء موهبته ، وهكذا قارئات المستقبل . شخصيا كتبت هذه الشخصية في نصوصي الأولى كما ذكرت ، وهناك غيري من كتب عنها ، وتوجد شخصيات مشتركة بين البيئة السودانية ، وبيئات عربية أخرى ، كتبت أيضا في نصوص لكتاب تلك البلدان .

إذا جئنا للكتابة في هذا الزمن ، بمعنى أن نستوحي رواية من تلك القرى نفسها الواقعة بين النيل والصحراء ، في شمال السودان . هل سنتحدث عن وسامة السائق ختوم حسن ، وغوايته للفتيات ودغدغته لأحلام الشباب؟ هل سنتحدث

أصلا عن عربة بدفورد ، تنقل سفاسف الأمور بين القرى والمدن ، وهل ستكون ثمة ماشطة للشعر ، تضفر النميمة ، وقارئة بخت ، تتلون بحسب ما تمنح من نقود؟ وبشير الذي يتحدى الفيضان ، ليخرج غريقا على وشك أن يضيع ، وميتا ، يسبح من قرية إلى قرية؟

لا بالطبع ، لأن القرى لم تعد هي القرى الموجودة في النصوص التي كتبتها سابقا ، البيوت لم تعد بيوت الطين المشققة ، الكثبان الرملية لم تعد مقاهي الثرثرة التي يتكئ فيها الناس ، والنجوم القديمة سقطت وتهاوت تماما .

الرواية التي تستلهم مفردات القرية الآن ، ستستلهم مقاهي الإنترنت ، ومحلات السوبر ماركت ، والطرق المسفلتة ، والبيوت المبنية بطريقة هندسية نظامية ، وربما عربات من ماركة اللاند كروزر والنيسان ، رابضة أمامها . وأي شيء يكتب عن تلك البيئة القديمة ، لن يغري لأنها لم تعد تملك سحرها القديم .

خلاصة الأمر ، أن الكتابة كمادة ، تأخذ من الواقع وتمنحه ، لا بد أن تتأثر بتطور ذلك الواقع ، وأيضا بتأخره إن تأخر لأي سبب ، لذلك أتوقع في السنوات المقبلة ، وبعد أن تم تدمير كثير من المجتمعات ، وانعدمت وسائل العيش العادي فيها ، أن تأتي نصوص ، تعيدنا إلى زماننا القديم .

مواضيع ممنوعة

منذ حوالي سبع سنوات، كنت أحضر محاضرة مهمة في الخرطوم، وكان يجلس إلى جانبي أحد النقاد المحليين المعروفين. كنت منتبها للمحاضرة التي كان يلقيها حيدر إبراهيم، المثقف العظيم الذي يحمل أدوات التنوير في ذهنه، بالقدر نفسه الذي يحمل به أعباء الحياة الأخرى، وكانت محاضرته عن الماضي والحاضر، وما هو الاختلاف بينهما؟

فجأة قطع الناقد انتباهي، سألني همسا: لماذا تترك رواياتك بلا إثارة؟ لماذا لا تملأها بمشاهد حميمية يحبها القراء؟ ومن ثم تنتشر أكثر؟ ومنذ حوالي عامين بعد أن انتهت فعالية في بلد عربي، شاركت فيها، اقتربت مني فتاة حاضرة للفعالية، وقالت مباشرة، إنها لن تقرأ لي مرة أخرى، ذلك أنني لا أكتب شيئا عن الجسد، وأترك أعمالي مغطاة كثيرا، وهذا لا يجذبها للقراءة، ويمنحها إحساسا بالملل، ومنذ عدة أيام وفي رسالة خاصة، قال أحد القراء، إن الرواية إن لم تكسر كل ما هو ممنوع، لا تعد رواية، وهكذا هذه التساؤلات وغيرها متعلقة بالموضوع نفسه، ومواضيع أخرى لا أتطرق لها، دائما ما

تواجهني في أي مكان أكون فيه حاضرا .

حقيقة تعودت أن لا أهمل وجهة النظر القارئة ، حتى لو كانت ساذجة أو سطحية ، أو مجرد كلام بلا معنى ، وأعني هنا وجهات النظر التي تصلني بطريقة أو بأخرى ، مثل أن تأتي رسالة في البريد الإلكتروني ، أو ما يكتبه المشاركون في موقع جودريدز للقراءة ، على شبكة الإنترنت ، الذي أمر عليه أحيانا ، وربما ما يكتبه أصدقاء لي في مواقع التواصل الاجتماعي .

ورغم أنني قد لا أرد مباشرة على من يسأل ، لكن تبقى وجهات النظر في ذهني أدرسها ، وأحاول أن أضيف شيئا في مستقبل كتابتي إن اقتنعت بوجهة نظر لقارئ ربما كتبها هكذا عفوية ولا يدري أن الكاتب التقطها ويحاول أن يستفيد منها . وبهذه الطريقة كما أعتقد يمكن أن تتطور الكتابة ، ولا تفقد صلة القربى اللصيقة بالقراءة ، فكلاهما ، أعني الكتابة والقراءة ، يتشاركان هما واحدا ، هو اقتسام المعرفة .

مسألة الكتابة الممنوعة التي هي كتابة عادية لمعظم من يكتبون رواية الآن ، سواء كانوا قدامى في الصنعة ، أو يسيرون على الدرب بخطى مترددة ما تزال ، ليست بالضرورة بهارا جيدا لمن يستطيع أن يكتب نصه ، وينشره وفي داخله إحساس يقيني ، بأنه أنجز نصا . ومن الأشياء الملاحظة حقيقة في السنوات الأخيرة ، وجود المشاهد الجنسية ، والعبارات الخادشة للحياء العام ، وما يمكن أن يسيء للمعتقدات ، بشدة في

الكتابة الروائية . الكاتب يتعذر بمسألة عدم وجوده في الرواية ، وأنها آراء شخصيات تناقش بعضها في نص خيالي ، ذلك بالنسبة لكسر حاجز الدين ، وكتابة ما هو موجود في الحياة ، وبشكل يومي ، ذلك بالنسبة للجنس ، والقارئ إما مؤيد لمثل هذه الكتابات ، ويبتهج لها ، وإما منتقد لها ، ويلوم الكاتب ، أو يتعدى عليه بما هو أكثر من اللوم ، إن صادف ووجده .

لا أحد من المفترض أن يتعدى على حرية الرأي ، إن كانت حرية رأي حميدة ، وخالية من سوء النوايا ، الذي يفعل نعتبره متطرفا ، ويصادر حريات الآخرين بغير حق ، والذي يطالب أن تكون الرواية عارية تماما ، مثل الذي يطالب بإلباسها نقابا ، بحيث تغدو بلا ملامح واضحة ، يتعرف إليها أحد ، وكلا النموذجين ضاران بالكتابة الأدبية ، في رأيي الشخصي . وحتى في الشعوب التي تعيش بحرية مطلقة ، ولا تملك حدودا مقيدة ، تعتبر رواية مثل : «خمسون ظلا للرمادي» ، للإنكليزية ، أي ال جيمس ، تلك التي تتحدث عن الجنس سلسا وعنيفا ، وتحت كل الظروف ، تعتبر عملا خارجا عن القاعدة ، وهناك من يوجه لها نقدا ، وكثيرون لن يقرأوها ، ولعل رواية : «شنغهاي بيبي» ، للصينية : وي هيوي ، ورغم وجود كثير من الجماليات في موضوعها ولغتها ، كانت عملا محرضا لجماعات ناشطة في الصين ، قامت بحرق نسخها في الميادين العامة .

نعم ، الحياة تضم كل شيء ، حتى الممنوع ، ومن المفترض

للروائي حين يكتب ، أنه إما يكتب الحياة كما هي ، داخل دراما قصته ، أو يأخذ منها ويضيف شيئا من خياله ، عن أشياء لم تحدث حتى الآن ، مثل قاعدة أدب الخيال العلمي ، لكن في المقابل ، هل كل ما يحدث في الحياة ، بالضرورة يجب أن يحدث داخل رواية ، حتى لو كان موضوعها بعيدا عن شيء ممنوع؟ ، هل من الضرورة حشد المشاهد الحميمة كبهار ، من دون أن يكون هناك طبق يخصها ، وبحاجة لبهار؟ . .

إذن نعود إلى مسألة موضوع الرواية التي تكتب ، وإن كانت بحاجة لكتابتها بصورة أو بأخرى ، حسبما يراه كاتبها ، وشخصيا في كل أعمالي تقريبا ، لم أصل بشخصيات إلى مرحلة تجبرني أو تضغطني ، لأرصف لها سكة الغواية ، ومن ثم كتابة الممنوع ، كثيرون يفعلون ذلك كما ذكرت ، بعضهم عن وعي ، وإحساس بحاجة الرواية لذلك ، وبعضهم مجرد بهار ينثر ، قد يمنح الطبق طعما جيدا أو يفسده لا يهم كثيرا .

القراءة أفكار ومشارب ، والكتابة أفكار ومشارب ، الكاتب يقدم ما يظنه جيدا ، ومنصفا لنصه ، والقارئ يحتفي أو لا يحتفي ، وبعد تجربة طويلة في التعامل مع النصوص قراءة وكتابة ، لم يعد يفاجئني أي رأي يخصني ، ومن الجيد أن يعلم من يتابعني أن لدي نصوصا وضعت فيها طاقتي القصوى ، من تشنج ومغص ، وحبس انفرادي حتى أنجزها ، لم تنجح على مستوى القراء ، وأخرى كتبتها سريعا ، بلا تشنج كبير ، نجحت كثيرا .

تساؤلات في العنف

أرسل لي أحد القراء المخلصين من السعودية ، رسالة ، يبدو أنها جاءت كرد فعل سريع ، على مجزرة باريس الأخيرة ، التي قتل فيها صحافيون ، ورسامو كاريكاتير ، نشروا رسومات تتهكم بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وكانوا دأبوا على نشر مثل تلك الرسوم التي تسخر من كل الأفكار والعقائد على حد سواء .

يقول القارئ في رسالته : لماذا العنف كوسيلة للدفاع عن العقيدة ، وليس الحوار الثري المتكامل الذي ربما يقنع من يحاورك بأفكارك ، ويجبره على الاعتذار إذا كان قد أساء؟

لماذا لا نحمل أدوات الإقناع المسالمة بدلا من حمل المسدس والرشاش؟ وما هو دور الثقافة التي تنتمون إلى قافلتها ، في مثل هذه المحن الكبيرة ، التي تضر بديننا ، وتثبت ما يريد الغرب أن يثبته دائما تجاه الإسلام والمسلمين ، ولا زلنا حتى الآن نختنق بثقل تداعيات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول البعيد ذلك ، حين فجر مقر التجارة العالمية ، وظهر إلى الدنيا مصطلح اسمه : الحرب على الإرهاب ، وكانت في الحقيقة ، حربا خصصت لنا بالتحديد؟

رسالة القارئ السعودي تبدو واعية كثيرا ، وفيها تلك التساؤلات التي لا ننفك نطرحها جميعا على أنفسنا ، وفي الغالب لا نعثر على إجابة شافية . نعم هناك تجاوزات من الغرب تجاه العرب والمسلمين بحجة حرية الرأي التي تتيح لمنتج أبله ، أو مخرج سينمائي بلا مؤهلات أن ينتج شريطا سينمائيا بلا معنى يسيء بصورة سافرة إلى أعظم الشخصيات في التاريخ ، ويتوقع أن يسكت الناس؟ نعم ، تلك التجاوزات التي تظهر العربي دائما مغبرا ، متربا ، شهوانيا ، بلا عقل ولا إحساس ، متبوعا بحريمه وخرافه ، بينما الغربي يبدو سيدا في كل حالاته ، حتى وهو أسير لدى هذا العربي ، في خيمة منصوبة في الصحراء ، ويبدو أن ذلك التنميط الذي حدث منذ عرف الغرب كيف يغزو الشرق ويستعمره ، لم يتغير إلى الآن ، رغم التغييرات الهائلة التي طالت كل ثوابت الدنيا ، ومنها انهيار أنظمة ديكتاتورية ، مرعبة ، كانت تظن نفسها لن تنهار أبدا ، وارتفاع أصوات لضعفاء ما كانوا يظنون أن أصواتهم قد ترتفع ذات يوم .

وفي رواية «السماء الواقية» ، مثلا للأمريكي بول بولز التي تتحدث عن الصحراء الغربية ، ورغم أن بولز من عشاق بلاد العرب وعاش في طنجة في المغرب ، ومات فيها ، لا تختلف صورة العربي كثيرا ، وإن كانت محسنة بعض الشيء بحكم المحبة ، وغير بولز يوجد كتاب غربيون كثيرون فتنوا بالشرق

واستوحوا منه القصص، لكنهم في النهاية، وحين يضعون شخصيات عربية أو مسلمة، لا يضعونها كما يجب أن تكون، لا يتحدثون عن الكرم، ولا عن الشهامة في وقت الشدة، ولا عن البيوت التي فتحت للغرباء حبا ومودة، وإنما يذكرون الطائش وغير المألوف في السلوك، وبعض الحماقات التي يمكن أن تصدر من أي شخص في أي مجتمع، عربي مسلما كان أو غربيا.

أذكر أن الشاعر السوداني الراحل النور عثمان أبكر، كان ترجم كتابا لعالم نباتات ألماني ، زار السودان في القرن السابع عشر أو الثامن عشر، لا أذكر اسمه بالتحديد، ترجمه عن الألمانية، ترجمة رائعة، مليئة بالشعر والحماسة، واللغة الرائعة، لكنه حين انتهى، انتبه إلى تلك العيوب المهولة التي خصصها عالم النباتات كهجو مبالغ فيه لبلد فتحت له بابها الواسع، آوته بيوتها الفقيرة البسيطة، وأكرمه أهلها، بما يملكون من موائد ليست زاخرة بما لذ وطاب ولكنها عامرة بالمحبة، كانت ثمة استهانات، وأوصاف مزرية وصفت بها النساء، وكانت ثمة إساءات لسمعة بلادنا أكثر من تمجيدها، وكانت النتيجة أن النور لم ينشر ذلك الكتاب وهو حي وأظنه نشر بعد وفاته.

في المقابل يوجد في الغرب بالطبع من يقدر عالمنا العربي والإسلامي، ويوجد من يحتفي بثقافتنا، ويروج لها، ويوجد

من يبحث عن المداخل المسالمة، والمخضرة الوارفة، ليدخل منها، ومن يمد يده مصافحا في أي وقت، لكن ذلك ليس كل شيء. فالنظرة العامة هي النظرة العامة، تلك التي قتلت فتاة في حديقة عامة، لأنها كانت تغطي رأسها، فقط لا غير.

سؤال الثقافة وظاهرة العنف، جدير بالمناقشة أيضا، وإن كانت مناقشة محسومة نتائجها سلفا، فالثقافة ومنذ زمن طويل، لم تعد اليد اليمنى للتنوير، ولا صاحبة الكلمة الأعلى في قوانين الحياة، فقد أخلى المثقفون مقاعدهم، أو أخليوا منها بالقوة، ثمة مثقفون انخرطوا في أجندات الأنظمة في بلادهم وروجوا لطهرها وعفافها، مثقفون ضاعت أعمارهم في السجون وخرجوا صامتين. ومثقفون لا تتعدى خطوات تنويرهم بيوتهم والمقاهي التي يجلسون عليها، حتى أدوات الثقافة الحية من تلفزيون وسينما وكتاب، لم تعد مجبرة على تنوير أحد، أو مده بالمعلومة المناسبة ليستخدمها، وكانت في ما مضى، تستخدم تلك الأدوات بفعالية كبيرة، وتطارد الناس حتى في أماكنهم البعيدة، لتمدهم بالتوعية، وما زلت أذكر ما كان يسمى السينما المتجولة، التي شاهدتها في قريتنا في شمال السودان، حين كنا نذهب إليها في الصيف، كانت تلك السينما المحمولة على عربة تابعة للدولة، وتعمل بالبطاريات في ريف بلا كهرباء في ذلك الوقت، تبث أفلاما توعوية خاصة بالديمقراطية والانتخابات، والزراعة والرعي، وأيضا أفلاما تشرح كيفية

الوضوء الصحيح ، والصلاة الصحيحة ، وماذا يجب على الحاج أن يفعله منذ ينوي أداء فريضة الحج حتى يعود إلى بلاده .

ما الحل إذن ، لإعادة أداة الحوار المفقودة ، إلى زمن العنف هذا؟ كيف يمكننا أن نجادل بسلام ، ونقنع بسلام ، ونحمل تنويرا بعيدا عن العنف الطاغي ، الذي لا يفرق بين عدو وصديق ، ثم كيف نغير صورة العربي المسلم ، لدى الغرب؟ تلك الصورة النمطية القاحلة التي لم تتعدل كثيرا منذ أن اخترعت .

منذ عدة أيام أرسل لي أحدهم رسالة يقول فيها : إن كل ما يكتب الآن من أدب في معظم دول العالم ، خاصة عالمنا العربي ، لا يمثل أي قيمة إذا ما قورن بالأدب الروسي الكلاسيكي ، وما كتبه الأمريكان قديما ، وإن من يدعون أنفسهم كتابا حديثين ، هم في الحقيقة مجرد قراء صغار ، كتبوا كما يكتب القارئ ملاحظاته ، على أي كتاب يقرأه ، لكن سذاجة القراءة ما جعلتهم ينجحون . وأضاف كاتب الرسالة : إنه يعتقد نفسه قارئا مهما ، وله الحق في إبداء الآراء الصريحة ، المناهضة لآراء معظم من يقرأون بلا تبصر ، وستصل رسالته هذه لمن يهمه الأمر بكل تأكيد .

بالطبع ليست هذه هي الرسالة الأولى التي تصل إلى بريدي ، وتطعن بعمق في صنعة الكتابة التي ليست صنعتي وحدي ، ولا أملك فيها أي تميز أو حظوة خاصة ، ولكن عشرات

الرسائل ترد لي ولغيري من الذين يحاولون برغم المعاناة ، إضافة معنى لحياتهم أولا ، وللآخرين ثانيا . ومنذ أن أصبح الفضاء متاحا بجنون ، والكتابة بأي لهجة أو حبر أو مستوى ، تصل بكل تأكيد للذين توجه إليهم ، والمبدعون بشتى أنشطتهم ، مستهدفون : هناك من يمجد أعمالهم ، هناك من يلعنها ، هناك من يقترح أفكارا وعناوين ، وكتبا لتقرأ بواسطة المبدع ، وهناك من ينصب نفسه ناقدا أدبيا بلا وجه حق ، وقد يستغرب البعض من ذلك الذي كتبت عنه مرة ، وكان قد قال بأنه يملك مخزنا للأفكار ، ومستعد لبيع الفكرة الواحدة للروائي الذي يعاني من جفاف الإيحاء ، بعدة مئات من الدولارات .

إنها الإنترنت ، أعظم الاختراعات وأضلها أيضا ، وأتهمها صراحة بأنها السبب الرئيسي في الإساءة إلى الإبداع ، وصفعه باستمرار ، حين نجد تلك الاستفزازات المسماة كتابة ، وحين تنتهك خصوصية الكاتب ، بحشر آلاف المغالطات في بريد يستخدمه من أجل الإبداع أيضا . وقطعا يوجد أشخاص يمتلكون موهبة ملاحقة الكتاب ، في كل زمن منذ عرفت الكتابة ، فقط الذي اختلف في هذا الزمن ، أن الكاتب شاء أم أبى أصبح ملما بكل ما يقال عنه ، وبكل ما يوجه إليه ، بعكس الماضي حين كان البريد العادي يصل أو لا يصل ، والصحف المحلية في بلد ما ، يمكنها أن تنبح في حق كاتب ليل نهار ، ولا يعرف الكاتب المقيم في بلد آخر ، ماذا قيل وماذا

يمكن أن يقال . وبالطبع لم تكن للفضاء قنوات مزعجة تبرمج الجهل والخرافة ، وتبث سوء الظن والفهم أيضا ، ولا موقع للتواصل الاجتماعي ليصادق من يحملون السكاكين الافتراضية ، المستعدة للقتل .

أذكر تلك الحملة الكبيرة ضد كاتب نجح ، في سبعينيات القرن الماضي ، وكنت طالبا صغيرا ، كانت الصحف في بلده تكتب باستمرار ، والبرامج الحوارية تتحاور في التلفزيون ، وجمع من الأدباء المحليون يتحدثون بمغص وبازدراء عن ذلك الذي نجح خارجا ، وينفون عنه وطنيته . وبعد عدة سنوات التقيت الكاتب وحدثته عن تلك الحملة ، فقال إنه لم يسمع بها قط .

الآن أعود لمفردات تلك الرسالة ، التي يظن صاحبها بأنه امتلك قواعد الكتابة ليصنف من يكتبون بأنهم قراء صغار ، كتبوا بأقلام الهواة . نعم كان الأدب الروسي الكلاسيكي ، أدبا عظيما ، ولن ينسى أحد أعمالا مثل «الحرب والسلام» لتولستوي ، أو «الجريمة والعقاب» و«الأبله» لدوستويفسكي ، و«الأم» لمكسيم غوركي ، تلك الرواية العظيمة حقا . وأكيد كتب هيمنغواي ، وجيمس جويس وكافكا وغيرهم آدابا عظيمة ، تعلمت منها أجيال عدة ، لكن ليس معنى هذا أن الآداب انتهت أو توقفت في تلك الأيام ، وأن ما أتى ، وما سيأتي بعد ذلك لن يكون شيئا .

لقد كتب التركي أورهان باموق، وهو أحد كتابي المفضلين، في كتابه السيري «ألوان أخرى» إن الرواية الخالدة التي ستبقى إلى الأبد، لم تكتب بعد، وهو شخصيا سيسعى لكتابة روايته الخالدة.

لقد اعتبرت كلام باموق، مجرد كلام عام للاستهلاك ليس إلا، وشبيها بقول القارئ الذي خفض من قيمة الأدب الحديث، وألغاه تماما. ونحن باستمرار، نقرأ أقوالا كثيرة مثل هذه يتم تداولها باستمرار بين الناس، باعتبارها أقوالا عظيمة وخالدة، ولم أكن يوما مؤمنا بها، هناك من يقول جملا براقة عن المرأة، عن الكتابة، عن الحياة الزوجية، وهكذا، وكلها في رأيي الشخصي، أقوال تخص من يطلقها ولا يجب أن تعمم دساتير، يتبعها الجميع.

أعود لرسالة صاحب القانون الافتراضي الذي ألغى به إنجازات عظيمة، أنجزها العالم الإبداعي حين أنجب ماركيز ويوسا ولوكلزيو، ومحفوظ وآلافا غيرهم، لأؤكد فجيعتنا التي تساوي فرحتنا حين اكتشف أحدهم ما سمي بالشبكة العنكبوتية، وحين استطاع آخرون تطوير ذلك الاكتشاف المذهل ليستخدمه الناس بلا حدود، ولا ضوابط وفي أي بقعة من بقع الدنيا. ثم لتأتي الهواتف النقالة وتساعد في التقاط الصور وبثها، وكتابة الآراء وتضمينها للرسائل بكل سهولة، في طوفان لن يستطيع إيقافه أحد.

في الحقيقة لا أحد ولا حتى ناقد محترف ومعترف به ، يستطيع أو يجرؤ على إلغاء المنجزات الإبداعية . بالقدر نفسه ، لن يستطيع هذا الناقد نفسه أن يكتب عن الهذيان المنتشر في الفضاء الافتراضي ، كلمة سلبية قد تؤلب عليه الكثيرين ممن أصبحوا كتابا نافذين من خلف الـ«كيبورد» ، ولهم قراء نافذون أيضا ، خلف شاشة الحاسوب .

المشكلة هي مشكلة الكاتب الحقيقي ، حين لا تلاحقه حقوقه المشتتة في الدنيا لتعود إليه ، بل تلاحقه الآراء السلبية حتى في أحلامه .

البوعزيزي والكتابة

سنوات عدة مرت، منذ أن أحرق بائع الخضروات التونسي الشاب، محمد البوعزيزي، نفسه في ساحة بلدية سيدي بوزيد، احتجاجا على قطع رزقه البسيط، لتندلع بعد ذلك ثورة تونسية كبرى، مشحونة بالهياج والغليان وتلاشي الخوف، أطاحت بمنابت الظلم، ثم ثورات عربية في عدة بلدان مقهورة أخرى، بعد ذلك، بما سمي بالربيع العربي، الذي في رأيي، لم يعط تلك البلدان سيئة الحظ حقوقها بعد، ولم يمنح الشعوب ما كانت تحلم به، بل على العكس، ضاعت بلاد كثيرة، كانت تملك شيئا من الهيبة والوقار، والاسم الممنوح لها كدول، حتى وهي محكومة بالقهر والاستبداد.

ما يهمني ليس الحديث عن نتائج سياسية أو اقتصادية، تغيرت سلبا أو إيجابا، بعد ثورات الربيع العربي، وإن كان ثمة أمل في رفاهية قادمة أم لا؟ فالذي يقرأ واقع المنطقة العربية الآن، يحس قطعا بالتوعك، ذلك الهواء المحقون برائحة الدم، تلك الحروب والتناحرات التي تسحق الأوطان ولا تنميها، تلك الهجرات المهولة من بلاد لبلاد، وركوب الأخطار برا

وبحرا ، للوصول إلى نقاط آمنة ، قد لا يصل إليها الفارون أبدا .

من المؤكد أن نمط الكتابة الإبداعية ، تغير كثيرا من بعد حادث بوعزيزي وما تلاه من أحداث حتى اليوم ، وفي هذا السياق ، صدرت كتب شعرية وقصصية وروائية كثيرة في البلدان المعنية بالثورات ، وحتى بلدان مستقرة ، وعرضت مسرحيات أيضا ، تجسد أحداثا وقعت ، وأحداثا قد تقع ، ويستطيع القارئ الذي يريد أن يتأكد من التوثيق الإبداعي لتلك التغيرات ، أن يعثر على ضالته في أي معرض للكتب يصادفه ، أو في المكتبات التي ما زالت تعرض الإبداع بعد أن خفت صوت الإبداع .

لكن هل تغير نمط الكتابة ، بعد تلك الحراكات كان في صالح الكتابة فعلا؟ وهل كنا بحاجة لربيع إبداعي يواكب الربيع الثوري ، لنتجدد قليلا ، ونبتعد عن أنماطنا السائدة منذ زمن؟

بالطبع هناك إيجابيات وسلبيات في أي تغير يطرأ على الدنيا ، سواء إن مس ذلك الناس مباشرة ، مثل الأحوال الاقتصادية والمعيشة ، أو مسهم من بعيد مثل التغير الثقافي ، ولا ننسى ذلك الجدل الذي نشأ واستمر طويلا بعد أن انكسر عمود الشعر المألوف ، على أيدي شعراء محدثين ، في خمسينيات وستينيات القرن الماضي ، لترسخ التجربة بعد ذلك ، وتأتي بعدها تجربة أخرى ، أكثر خطورة وأشد تحريضا

للجدل ، هي تجربة قصيدة النثر ، التي استمرت رغم السيوف والحراب ، ولعنات متذوقي القصيدة المفعلة ، لتصبح هي الشعر اليوم . الشاعر الآن هو كاتب قصيدة النثر ، وهذه أيضا بدأ صوتها يخفت ، وهويتها تنطمس ، بعد اعتماد الرواية ، بوابة سيدخل منها الناس بموهبة وبغير موهبة ، إلى بيت الإبداع .

الشيء الإيجابي في زمن الربيع العربي ، هو الكتابة من دون خوف ولا رهبة ، ولا عيون زائغة تترقب السجن والنفي ، بين لحظة وأخرى ، خاصة في الأعمال التي تتحدث عن السياسة . لم يعد مقبولا أن تغطى الكتابة بملاءات من أي نوع أو لون ، ولا مقبولا أن نتحدث عن الفقر والجوع ، والفساد والاستبداد ، بلحاف من الجمل الأدبية المزخرفة ، التي توهم المفسدين بأنها مدح لهم .

ولذلك نجد معظم الروايات الصادرة حديثا ، واضحة المعنى منذ بداياتها ، كذلك وبمباركة الديمقراطية الحديثة ، حتى تابوهات الكتابة الأخرى ، مثل الجنس ، بات الكثيرون ، من أخلص الذين يكسرون أضلاعها ولا يهتمون بأي شيء ، سوى ما سمي بحرية التعبير . ورأيي الشخصي ، أن حرية التعبير يجب أن تكون متاحة ، ولكن للمجتمع نظرته أيضا حين يصبح التعبير الحر لدى أحد ما ، تعبيرا قاتلا ومدمرا لدى آخرين . ولأن الكتابة في حد ذاتها ، استخراج ما يمكن استخراجه من المجتمع المحيط ، وتدوينه أدبيا ، من أجل الإمتاع الذهني أو

إكساب المعرفة ، تصبح إذن بلا معنى متى ما أصبحت مشبوهة وملاحقة ، ولا يمكن لكاتبها أن يعرضها حتى في بيته .

السلبيات في الكتابة الجديدة موجودة أيضا ، منها اللهاث المحموم للكتابة عن الثورات واستلهام شخصية بو عزيزي ، وشخصيات أخرى مشابهة ، ثم خروج النصوص بفنيات منخفضة للغاية ، وغالبا من أشخاص لم يكونوا يملكون الخلفية المؤهلة للكتابة ، ولا كانوا قراء أصلا ، ولا من أصدقاء القراءة ، وقد ذكرت من قبل وفي بداية اشتعال الكتابة الروائية ، بعد اندلاع ثورات الربيع العربي ، أنني أخشى أن يخرج إلينا كل هتاف هتف في ميدان التحرير ، في القاهرة ، أو جندي ساهم في تحطيم بوابات باب العزيزية ، في طرابلس ، أو قضى الليل متشردا في برد سوريا ، برواية عن الربيع العربي .

هنا أنا لا أمنع الكتابة ، كما قد يتصور البعض ، فكثير من الذين يتعرضون لمواقف غيرت مصائرهم ، في أوروبا أو أمريكا ، كالسجن أو النجاة من حادث تفجير مثلا ، يكتبون مذكراتهم ، فقط يكتبونها بمعاونة محرر مختص ، يتولى الصياغة للمادة الخام التي يزوده بها صاحب الفكرة ، أو صاحب الأحداث التي ستنشر باسمه ، وهو ما نفتقده هنا ، فتأتي الكتابة تحت مسمى رواية ، تساهم بشكل أو بآخر في تعذيب القراء القليلين المتبقين ليقرأوا .

عموما ، وأيضا بالنسبة للربيع العربي ، فما زالت نتائجه

غير مشجعة لكتابة عمل إبداعي ينحاز لصفه . بعض الثورات أخفقت ، بعضها سرقت ، بعضها ما زالت نتائجها غائمة .

نشجع تغير أنماط الكتابة مع تغير العالم ، فقط لتكن الكتابة إضافة إلى جدتها وحداثتها ، تحمل قيمة أعلى .

أن تكون كاتبا عربيا

اعتدت من حين لآخر، وأثناء كتابتي للمقال، أن أستشهد ببعض مفاصل تجربتي في الكتابة، ليس بإطرائي لتلك التجربة التي ولدت ومضى عليها الزمن بخيرها وشرها قطعا، وعثرت على الذين ساندوها منذ البدايات، والذين تفهوا من أمرها وما يزالون حتى الآن، وهذا شيء طبيعي، وغير محبط بالتأكيد، ولكن لأن الكاتب أو الشاعر أو أي شخص عالق في هم مرهق مثل هذا، حين يكتب، لا بد يستشهد بتجربة هو يعرفها أكثر، وأصبحت من مواد الخبرة التي يستقي منها أحيانا .

ولا أجد شخصيا أي مشكلة في ذلك، ما دام الكاتب حياديا تجاه تجربته، وليس مفتتناً بها، أو يروج لها بطريقة مخلة، فقط قد يتحدث عن مناسبة كتابة عمل ما، ومن أين استوحى مفرداته، أو يجيب عن أسئلة ربما تعلق في أذهان القراء الحقيقيين، أي الذين يهضمون التجارب ويسعون لترسيخها في أذهانهم أكثر، وليس أولئك الذين لم يألفوا القراءة أصلا، ولا كانت هما من همومهم في يوم من الأيام،

ولذلك لا يعرفون علاقة الكاتب بتجربته ، وعلاقة تلك التجربة بالقارئ والمجتمع .

وفي كل الندوات التي كنت حاضرا فيها ، استمعت إلى تجارب متعددة ، يرويها أدباء من مختلف الجنسيات ، ومختلف مدارس الكتابة ، وكلها تستقي من التجربة الشخصية للأديب ، كيف عثر على موهبته أولا ، وفي أي وقت من أوقات حياته كان ذلك؟ ، كيف فرح ، وترجم إحساسه إلى لغة في الورق ، ثم كيف كتب النصوص الكبيرة بعد ذلك وصنف كاتبا أو شاعرا ، سيضيف إلى سكة الكتابة أعمالا جديدة بعد ذلك .

هذا السرد الذي ذكرته ، يسمى الشهادة الإبداعية ، وهي سكة مشروعة من سكك الكتابة ، في أي مكان ، ومن حق كل كاتب أن يكتب شهادته في الكتابة ، ويلقيها في أي مناسبة تحتم إلقاءه شهادة ، أو ينشرها في صحيفة أو كتاب بعد ذلك ، بغض النظر عن جودة أعمال ذلك الكاتب من عدمها ، وبغض النظر أيضا إن كان كاتبا محبوبا ويملك جماهير مساندة ، أو كاتبا أخفقت أعماله في الوصول حتى لآخر الشارع الذي يقطن فيه . وقد تحولت تلك الشهادة إلى فن في حد ذاتها ، وأصبحت تكتب عند البعض بكثير من التقنيات الجيدة ، والأفكار التي لا يجدها الأديب ملقاة على الأرض ، وإنما يبتكرها كما يبتكر الرواية أو القصيدة أو المسرحية .

ولطالما نوهت بإعجابي الشخصي بشهادات عربية وغربية

كثيرة ، منها ما وصف الكتابة باللصوصية لأنها سرقة واضحة لمفردات المجتمع الذي صيغت منه ، تحدث في خفية عن الناس ، وبعزلة تامة ، ومنها ما وصفها بالأمطار التي يخضر بعد هطولها حقل جاف ، حين يكتب أحدهم عن بيئة غير مكتشفة ، ويتم اكتشافها بعد كتابته ، ومنها ما وصفها بمضادات الاكتئاب ، التي ترتاح الأعصاب كثيرا بعد اقترافها . وأيضا هذه الشهادة لا يفهم مغزاها من لا يعرف ماذا تعني الكتابة ، وماذا يعني أن يكون في المجتمعات كتاب يحترقون ، وقراء يسارعون بإطفاء الحرائق .

هذا على صعيد الشهادة الإبداعية ، ماذا عن الإشارة في صفحة الكاتب الشخصية على الإنترنت ، لكتاب جديد صدر ، أو كتاب سيصدر في وقت قريب ، أو لقاء مع الكاتب سيتم في مكان ما ، ثم نشر صور ذلك اللقاء بعد ذلك؟

في الغرب ، هذا النشاط مشروع أيضا ومشروع بشدة ، فما دامت الكتابة صنعة ، فهي بحاجة إلى تنويه عنها ، وما دام الكتاب نشر ليباع ، فلا بد من الإشارة إلى وقت توفره ، ومنافذ بيعه ، ونشر مقاطع منه بغرض التشويق ، وإلا سيموت حتما ، بلا قارئ واحد . وأيضا لا بد من الإشارة لوجود الكاتب في بلد ما ، أو احتفالية ما ، من أجل أن يعرف من يحبه في ذلك البلد بوجوده في تلك الاحتفالية ، فيلاقيه ، ولو طالعنا صفحات كتاب غربيين كثيرين ، أو حتى كتاب عرب وأفارقة

يقيمون في أوروبا ، سواء إن كانت صفحات شخصية ، أو من ضمن مواقع التواصل الاجتماعي ، لعثرنا على كل ما يحرم على الكاتب العربي أن يفعله ، موجودا في صفحاتهم ، تجد التنويه عن الإصدارات الجديدة ، متى تصدر ومن أي دار نشر ، وإلى أي لغة ستترجم ، وهكذا ، ولعثرنا على جدول بالفعاليات التي سيشارك فيها الكاتب لعام كامل ، موضوعا في صدر تلك الصفحات ، ولعثرنا على صور للكاتب في معظم مناسبات الكتابة التي كان ضيفا فيها .

حتى كتاب تجمهرت شهرتهم في كل مكان ، وأصبحوا نجوما بفضل جوائز حصدوها ، أو جماهيرية كاسحة حصلت عليها مؤلفاتهم ، تجد صفحاتهم تحمل المحتوى الدعائي نفسه ، بلا عقل مغلق ، يتدخل ليقمعها ، ومن أمثال هؤلاء المشاهير ، كتاب مثل : النيجيري وولي سوينكا ، واللبناني أمين معلوف ، والإسباني كارل رويس زافون ، صاحب رواية : «ظل الريح» ، إحدى أجمل الروايات .

الكاتب العربي مسكين فعلا ، مسكين حين يجد نفسه وقد أصيب بداء لا فكاك منه ولا علاج له على الإطلاق ، مسكين حين يحصي عائدات اجتهاده وسهره ، ومحاولاته المضنية لصناعة عالم متميز على الورق ولا يعثر على عائد ، مسكين حين لا يسانده وطن ، ولا تتصدى لإعالة منجزاته مجتمعات مات من أجلها عشرات المرات ، ومسكين جدا ،

حين تسن الألسنة في بلاده لتجرمه ، وتصفه بالتفاهة لأنه أشار مجرد إشارة إلى ما أنجزه ، كحق مشروع من حقوقه الضائعة .

المرح لغة عالمية

الذين قرأوا رواية «المئوي الذي هبط من النافذة واختفى» ، للكاتب السويدي : يوناس يونسون ، والتي تحولت بعد ترجمتها إلى لغات عدة ، إلى نص مطلوب بشدة للقراءة ، ويحقق مكاسب مادية ومعنوية كبيرة ، لا بد أنهم استمتعوا كثيرا بكمية المرح التي تتدفق عبر سطور الرواية .

فالمئوي ألن الذي قفز من النافذة كان يؤدي دورا مرحا ، تمثل في وصف الكاتب له ، في الشكل والمشية والكلام ، واستخدامه لتصرفاته -اللامبالية حد الإدهاش- في رسم كاريكاتيرات عديدة ، أيضا في الشخوص الذين التقاهم ألن بعد أن فر من بيت المسنين ، في يوم عيد ميلاده المئة ، واستند بهم النص في تدفقه .

وقد رسم الكاتب هذه الشخوص بريشة ساخرة ، مثل شخصية اللص المسن الذي التقى ألن في محطة القطارات المهجورة ، ورافقه في فراره حاملين حقيبة مسروقة من عصابة مخدرات ، وأعضاء العصابة أنفسهم ، من اسم مجموعتهم : «ليس ثانية أبدا» ، إلى ألقابهم المضحكة كالبرغي ، والسطل ،

وشخصية صاحب بسطة النقانق بني ، الذي رافق المسنين ألن وصاحبه كسائق لهما في البداية ، ثم شريك بعد ذلك في محتويات الحقيبة ، إنه شخصية فذة ، فقد تعلم على مدى ثلاثين عاما عشرات الصنع ، ولم يكمل تعلمها حتى النهاية ، فأصبح شبه طبيب وشبه بيطري وشبه مهندس وشبه حداد ، وشبه كناس ، وشبه أي مهنة قد تخطر على بالك .

ثم تأتي شخصيات النساء ، فيمنحك النص شخصيات نسائية غريبة أيضا ، تتمنى لو أن أدوارها تستمر حتى النهاية ، مثل شخصية الجميلة التي سقط بني في حبها حين استضافت الجميع في مزرعة ريفية أثناء الفرار من السلطة وعصابة : ليس ثانية أبدا بحقيبة محشوة بملايين الكرونات .

الحكاية تروى بعادية شديدة ، كأنها حكاية واقعية فعلا ، وتاريخ ألن الحافل ذو المئة عام ، يروى بعادية أيضا لا تحس بأن المؤلف يبالغ فيها ، بل تحس أن الأحداث قد وقعت بالفعل ، والرجل الذي من المفترض أنك تقرأ ماضيه وحاضره كبطل خيالي ، قام بإنقاذ الجنرال فرانكو حين ذهب إلى إسبانيا وشارك في الحرب الأهلية بتفجير الجسور ، وكان في الأصل خبير متفجرات منذ طفولته ، فجر أماكن كثيرة في محيطه ، وانتهى الأمر بتفجير منزله الشخصي قبل أن يغادر منطقته في السويد إلى كل الدنيا بعد ذلك .

ألن هذا ، داخل النص طبعا ، وصل إلى الشواطئ

الأميركية ، في باخرة ركبها من إسبانيا بعد أن انتهت الحرب الأهلية هناك ، ليتم استجوابه من قبل الأميركان ، ومن ثم إلحاقه في وظيفة أشبه بوظائف الفراشين في مختبر نووي في إحدى المدن الأميركية البعيدة ، ليتدخل في صناعة القنبلة الهيدروجينية ، بأن يعلم العلماء كيف يفجرونها ، وبالتالي سنعتبره ركنا أساسيا في تلك التفجيرات النووية التي محت بها أميركا مدنا ، وأبادت شعوبا كما هو معروف في هيروشيما ونغازاكي اليابانيتين ، وفي ذلك المختبر التقى بالرئيس هاري ترومان وتصادقا لدرجة أن ينادي رئيس الولايات المتحدة باسم هاري ويناديه الرئيس ألن ، ويشربا عددا من زجاجات الفودكا .

هذا المشهد الساخر كان متقنا كفاية في مرحه ليمنح المشاهد ابتسامات عدة متتابعة ، الرئيس يصاحب السويدي الذي لم يكن أكثر من مساعد متواضع أو فراش ، في مختبر سري وحيوي ، وبغض طرف صداقته عن العلماء الذين يحملون جميعا درجة بروفيسور ، هكذا ، ثم لتمضي الرواية حاملة داخلها قدرا كبيرا من السخرية والمرح كما ذكرت .

رواية المئوي الذي قفز من النافذة واختفى ، ذكرتني بجدارة برواية عربية تشابهها في المرح ، الذي كتبت به ، ورسم به شخوصها ، هي رواية : أبو شلاخ البرمائي للأديب السعودي الراحل غازي القصيبي ، والتي كتبها منذ سنوات طويلة ، وبالطبع سابقة لرواية المئوي .

إنها رواية لطيفة، ساخرة بامتياز، وفيها شخصية البدوي أبو شلاخ الذي كان يقيم في الصحراء عاملا في شركة النفط، ثم تقلب في الأدوار المرحة، والمستحيلة طبعا لولا الرسم الساخر للرواية، الذي يميزه القارئ من الصفحات الأولى.

لن يحيل القارئ أي شيء إلى المنطق، ولا بد أن يلغي رأسه وهو يتتبع قفزات أبو شلاخ، من بدوي بسيط، إلى مسؤول كبير في شركة حيوية، إلى زوج لابنة مدير أجنبي، إلى مسافر في مهمات وطنية، ثم بالضبط مثل ألن بطل يوانسون، سيكون ضيفا على الرئيس الأميركي وصديقا له.

لقد نجحت رواية السويدي يوانسون لأنها رواية كتبها أوروبي، وترجمت إلى عشرات اللغات، ولا أعتقد أو لم أسمع أن رواية غازي ترجمت حتى إلى لغة واحدة مثل الإنجليزية أو الفرنسية، وهي في رأيي لا تقل فراسة ولا ذكاء مرح عن رواية يوانسون، وفيها من مواقف الإدهاش ما يجعل القارئ فاغر الفم والعينين، طيلة فترة القراءة.

أبو شلاخ هو ألن العربي، وقصته التي أضحكتنا وصنعت للقارئ العربي يوما أو يومين من المتعة الساخرة كانت تحتاج إلى أن تنتقل لقارئ آخر يزيدها تفاعلا، ولا أعتقد أن ذلك حدث بحسب علمي.

التقاء الرواية الغربية والعربية في هذا الطرح اللطيف يقودني إلى شيئين، أولا يؤكد أن المرح لغة عالمية وليست

حكرا على شعب من دون شعب ، فكما كان شارلي شابلن أميركيا مرحا ، ومستر بين إنجليزيا مرحا ، كان إسماعيل ياسين عربيا مرحا ، وكذا يوجد بالتأكيد في أي مكان في العالم .

الشيء الآخر هو مأزق الأدب العربي الذي لن يستطيع الخلاص منه بسهولة ، أو لن يتخلص منه على الإطلاق ، وهو عدم التصديق بأنه أدب جيد ورفيع المستوى حتى بالنسبة للغربيين الذين قرؤوه وأعجبهم ، وأحيانا لبعض القراء العرب أنفسهم ، الذين ما إن يسألوا عن كتابهم المفضلين ، حتى يأتوا بأسماء غربية ربما ليست معروفة جيدا حتى في بلادها ، ولم يسمع بها أحد سواهم .

لذلك وحتى لو ترجمت رواية غازي فلا أعتقد أن أحدا سيصدق أنها من الروايات الذكية المرحة ، وكانت تتنقل ببطل بسيط إلى موائد الرؤساء قبل أن يكتب يوانسون روايته ربما بخمسة عشر أو عشرين عاما .

مشاريع الاحباط

كتب لي منذ مدة من وصف نفسه «بالشاعر الكبير» ، ولم أكن سمعت به من قبل ، يخبرني بأنه بصدد إصدار مجلة إلكترونية ثقافية جامعة تحتوي على نصوص ودراسات ، وسيطلق عليها اسم «الكتابة التالفة» ، وأنه يحتاج إلى دعمي -ودعم عدد آخر من زملائي- معنويا من أجل أن ينجح مشروعه ، وتعبر «الكتابة التالفة» إلى القراء .

وسبق أن خاطبني منذ أشهر عدة مثقف آخر لا أعرفه ، يشير إلى عزمه على تكوين تجمع على الإنترنت يسميه «ذهب مع الريح» ، وكذلك لا بد من وجود كتاب مثلي ليسهموا في ذلك المشروع حتى لا تذهب جهوده في الريح .

كما أنني أعثر باستمرار على عشرات الرسائل التي تتحدث عن مشاريع ، إما افتراضية وإما ورقية ، أو ميدانية ، مثل إنشاء ناد ثقافي في بلدة صغيرة ، وجعله وسيلة جذب ، أو جلب فنانين من العالم البعيد ليرسموا جداريات في بلدة أخرى ، وأيضا يتحدث البعض عن السينما ، وكيف سيعملون على تطويرها بأدوات لم يسبقهم إليها أحد .

في ما مضى ، أعني قبل أن نكتشف الإنترنت بسنوات طويلة ، كانت للمبدع حين تحبطه مسألة النشر ، ويكون واثقا مما قدمه في مجال كالشعر أو القصة أو الرواية ، طرقٌ أخرى يشير بها إلى نفسه ، أو يلفت بها أنظار الآخرين .

وكانت صفحات التعارف في الصحف والمجلات غاصّة بالصور والهوايات الكبيرة والصغيرة ، والتي تبدأ من قراءة الكتب والمجلات وكتابة القصة والشعر ولعب الشطرنج ، إلى قيادة سيارات السباق والطائرات العملاقة ، وكان دائما ثمة من يستقبل رسائل من آخرين شاهدوا صورته وهواياته ، وتفاعلوا معها ، وكانت هواية جمع الطوابع ، هي أكثر الهوايات شعبية على الإطلاق ، ومن المؤكد أن ذلك يعود إلى انتشار المراسلات بين الناس آنذاك ، وإمكانية أن يعثر الهاوي في بيت أسرته وبيوت أقاربه على طوابع متنوعة يشبع بها هوايته .

كانت هناك هواية تبادل الكتب ، وهي هواية جادة بالطبع لأن الهاوي هنا لا يكتفي بوضع صورته فقط لكن عليه حين يراسله أحد ما ، يشاركه الهواية نفسها ، أن يذكر كتّابا قرأ لهم ، وكتّابا يملك مؤلفاتهم ، ويود أن يستبدلها بمؤلفات آخرين لم يقرأ لهم بعد ، ويجد صعوبة في الحصول على إنتاجهم ، إما بسبب عدم وجوده حيث يقيم أو عدم وجود إمكانيات للشراء حاليا ، وكانت هذه الهواية بالذات تصعب ممارستها على نطاق واسع ، ولا يمكن أن تزدهر إلا بين أفراد يقيمون في المدينة نفسها أو

الحي نفسه، وغالبا يدرسون في المدرسة ذاتها.

إذن، ماذا عن هوايات كتابة الشعر والقصة آنذاك؟

في الواقع، كانت كتابة الشعر والقصة هي السائدة، فلم يكن لكتابة الرواية صيت على الإطلاق، وحقيقة أعتقد بأن ثمة خوفا كان يحدث من الرواية وهواية كتابتها، وشخصيا كنت أعتقد وأنا صغير -كما يعتقد كثيرون مثلي- بأن كتابة الرواية لا تدخل ضمن الهوايات العادية للبشر، وإنما هي هواية تدرّب الدولة عليها بعض الناس وتعينهم كتاب روايات.

وأعتقد بأن ظني ذلك ليس ساذجا تماما، بدليل أن العصر الحالي جاء بورش الكتابة التي يتدرب فيها الموهوبون على الروايات. وأما الفوضى الحادثة في الكتابة، فهي طبيعية، لأن لكل عصر فوضاه الإبداعية، والتي يمكن بقليل من الصبر أن نستخرج منها انضباطا ذا قيمة.

الآن أعود إلى «المشاريع المحبطة»، المشاريع التي لا تُقترح إلا رغما عن إرادة من حلم بها تحت ضغط الحاجة لأن يصبح ذا اسم وجمهور وحياة تسميه: المبدع.

ولأن المسألة كلها -وأعني مسألة أن تعثر على مقعد صغير في غابات الحياة المعاصرة- قائمة على المال، ولأن المال ليس متوفرا في الغالب لدى معظم من يكدون ويكدحون من أجل العيش ولا يحتمل كدهم تمويل أي نشاط لا علاقة له بالأكل والشرب، لن تنشر رواياتهم بطريقة جيدة، ولن تنشر

مـجـمـوعـاتهم الـقـصـصـيـة والـشـعـرية ، ولن يمثّلوا أحـدا في المهرجانات الكثيرة التي تقام هنا وهناك ، وقد لا يسافرون على الإطلاق من قـرية في أقـصى بلد ، حتـى إلى قـرية مجـاورة ، أو عاصمة البلد الذي يعيشون فيه .

هنا يصـبح الإنتـرنت المتاح حاليـا في كل شـبـر من أشـبـار الكرة الأرضية هدفا مؤكدا للأحلام ، وللمجلات الكتابة المنفية ، والتـالفـة ، وبعـيـدة المدى ، والسـوداء والحـمـراء والملونة ، والتـي تذهب في الريح ، ويأتي كثيرون ممن ظُلم إنتاجهم أيضا ليدعموا تلك المشاريع ، لتصبح في نظر من وضعوها مشاريع ناجحة .

أعتقد أن الإنترنت وبقدر ما قدّم من شوارع مرصوفة لتسير عليـهـا الأفكار الجـيـدة ، قدم أيضـا حفـرا عـمـيـقـة لتـسـقـط فـيـهـا الأفكار غير الجيدة .

صحيح أن كل مـن أبدع في أي مجـال يحتاج إلـى مسـاندة ما ، ممن يستطيعون تقديم مساندة ، وحتى المبدع المكرس يحتاج ليسـتـمـر مكرّسا إلى مـسـاعـدة ، ورأيي أن تقـوم الدول بـتـفـعـيـل أدوات الـثـقـافـة المعطلة لديهـا وتعـمـل على اجـتـذاب المشـاريع الجادة ، ورعايتها بأبوة حقيقية ، بدلا من تركها تختلط بمشاريع الفوضى على الإنترنت وتضيع .

ولو افـتـرضنا أن المبـدع صـاحب التـاريخ الإبداعي يسـتـطيع الدعم فعلا ، فلا ننسى أنه فرد في مواجهة قبائل كلها احتياج وتنتظر .

السينما مشروع دولة ، والمجلة الثقافية مشروع دولة ، ونشر الإنتاج الشبابي الواعد يحتاج لميزانيات تستخرج من الدول ، ويأتي دور الكاتب المكرّس هنا حين يشجع على تقديم الأعمال الجيدة للقراء .

لقد اعتبرت مسألة اقتراح المشاريع المحبطة على الإنترنت هواية عصرية ، شبيهة بهوايات الماضي التي ذكرتها ، لا أقل ولا أكثر .

طموح القراء الجدد

في رسالة رقيقة تلقيتها مؤخرا ، تقول فتاة في الثامنة عشرة ، من السودان ، إنها عشقت القراءة منذ كانت في العاشرة ، وتقدمت فيها بتقدم العمر والمراحل الدراسية ، وتستطيع الآن أن تقرأ كل شيء ، بالمتعة نفسها التي اكتشفت بها عالم القراءة ، وتسعى لإقامة مكتبات في الشارع ، خاصة في الأماكن التي فيها مقاهٍ ، وأماكن ترفيه ، تضم كتبا متنوعة ، يطالعها العابرون ، وربما تنجح الفكرة ، وتتوسع مستقبلا .

قبل ذلك راسلني طالب من مصر ، يدرس في المرحلة الثانوية ، ليخبرني بأنه يقرأ بمتعة ، وسرعة ، وقرأ في الرواية لكتاب كثيرين ، منهم ماركيز ، وطاهر بن جلون ، ونجيب محفوظ ، وغيرهم ، وأيضا قرأ في الفكر ، والفلسفة ، وخصص لنفسه وقتا للدروس ووقتا للقراءة المعرفية ، ويحلم بإقامة مكتبات في الشواطئ ، حيث يستطيع الناس أن يقسموا وقت الصيف بين الترفيه ، وبين القراءة الجادة .

حقيقة تفرحني مثل هذه الرسائل الشابة ، في زمن اختل فيه كل شيء ، وما عاد للمعرفة الجادة أي وجه تظهر به وسط

المعارف الكاذبة ، والمضيعة للوقت ، مثل سياحة الإنترنت ، ومواقع الدردشة والتواصل ، التي لم تترك حيا ، يستطيع أن ينقر بأصابعه على جهاز حاسوب ، ولدرجة أن هناك صبية دون العاشرة يملكون حسابات في تويتر ، ويكتبون تغريدات مثلها مثل أي تغريدات أخرى ، وربما يجمعون ما كتبوه ، في كتب تحمل عناوين : أفضل التغريدات ، أو غرد في الحب ، أو لنغرد من أجل عينيها ، هكذا .

قلت إن هذه الرسائل تفرحني وتطمئنني بأن هناك جيلا جديدا ، هو جيل أبنائنا ، فيه بعض الأمل ، ويمكن عن طريقه أن تستعيد القراءة القديمة مجدا أفل بشدة . ففكرة إنشاء مكتبات في الشوارع ، فكرة كبيرة حقا ، ومن المفترض أن تكون مشروعا تتبناه جهات تستطيع توفير الكتب ، ومكان رصها في الشوارع ، وأمناء يسلمونها للقراء ، ويستعيدونها بعد قراءتها ، وهكذا تتطور الأفكار من مجرد أحلام تداعب خيال فتاة نهمة للمعرفة ، إلى مشاريع ، يشارك فيها المجتمع كافة .

أيضا مشروع مكتبات الشواطئ ، ليس مشروع شاب صغير طموح ، ولا مشروع جماعة ناشطة في حب المعرفة ، بل هو مشروع منظمة كبرى ، من المفترض أن ترعاه ، وترعى غيره من الأفكار الكبيرة ، التي ربما لا ترد إلى أذهان الكبار ، ولكن ترد إلى أذهان الصغار الملتصقين بالمعرفة .

كثيرا ما شاهدت صورا ترد من أوروبا ، لمكتبات متنقلة ،

تجرها سيارات ، أو سيارات تمت إعادة صياغة هياكلها لتصبح مكتبات ، أيضا شاهدت صورا كثيرة لمحطات انتظار باصات أو قطارات ، وقد رصت فيها الكتب ، والمنتظرون يطالعون بنهم ريثما يصل الباص أو القطار الذي يستقلونه .

إنها ظاهرة جيدة ، أن يصحبك الكتاب في كل مكان ، أن يحاصرك حتى لو لم تكن متفرغا لمطالعته ، وبالتالي ، قطعا ، ستلتقط شيئا من المعرفة . ومثل هذه الممارسات ، أي المطالعة في فترة انتظار موعد ما ، أو وسيلة مواصلات ما ، موجودة عند بعض الأفراد في بلادنا العربية ، لكنها نادرة جدا ، وطوال احتكاكي بالناس في بلاد شتى ، لم يصادفني إلا عدد قليل ممن تكون الكتب في أيديهم ، ويستمتعون وهم ينتظرون مواعيدهم ، بدلا من التأفف والإحساس بالملل ومطالعة الساعة بين حين وآخر ، وأذكر منهم رجلا في نحو الخامسة والستين ، كان يغشى العيادة الطبية التي أعمل فيها ، وبيده رواية جديدة أو كتاب فلسفي ، في كل مرة يأتي فيها . ولم يترك تلك العادة إلا بعد أن اعتل بصره بسبب مرض السكر ، وكان حزينا لأنه لم يعد يستطيع الاستمتاع بانتظار دوره للدخول على الطبيب .

وبالمقارنة ، تجد أنه حتى الصحف والمجلات الخفيفة التي توضع في بعض أماكن الانتظار ، مثل عيادات الأطباء الخاصة ، ودكاكين الحلاقين ، وصالات البنوك ، نادرا ما تلفت انتباه أحد .

لكن إذا طرحنا فكرة مكتبات الشوارع ، ومكتبات الشواطئ ، والمكتبات التي قد تقام في أركان المدارس ، كطرح جاد ، ستجد من يقول إن القراءة ضرب من الهواية ، مثلها مثل كرة القدم والشطرنج ، والكرة الطائرة ، وإن الذي يود القراءة سيعثر على الكتب التي يريدها بأي ثمن ، ومهما كان فقيرا ومشغولا ، وذلك لإرضاء هوايته ، مثلما سيعثر هاوي لعب الكرة على هواة يصادقهم ، ويمارس تمارينه معهم .

هذا صحيح إلى حد ما ، ولكنه ليس موضوعا نهائيا ، بمعنى أن لفت النظر ، وإقامة حصار معرفي خاصة في السن التي تبدأ فيها الغرائز بالتكون والشخصية بالنمو ، سيأتيان بنتائج جيدة حتما .

الطفل الذي لا يعرف متع الحياة كلها ، حين تحاصره بكتاب بوصفه أفضل متعة ، سيظل وفيا لمتعته الأولى ، وسيطاردها ، ويستزيد منها ، وهكذا ، وأنظر الآن إلى جيلنا الذي نشأ في وقت كانت فيه القراءة هي المتعة المتوفرة ، بجانب السينما التي كانت متعة لا تستطيع الحصول عليها بسهولة ، والتلفزيون الذي كان يتحكم فيه الآباء فيفتحونه في أوقات نشرات الأخبار ، ويغلقونه في أوقات اللهو والدراما والأغنيات .

أنظر لذلك الجيل الذي لحق شيئا من التكنولوجيا الجاذبة ، واللاهية عن الكتاب ، لكنه ظل وفيا لمتعته الأولى وما زالت

في الصدارة ، برغم حسابات تويتر وفيسبوك وإنستغرام ، وغيرها .

عالم خدمة القراءة ، عالم جميل ، وبالتأكيد سأفكر شخصيا في كيفية دعم فتاة السودان ، في مشروعها الحلم ، لإنشاء مكتبات في الشوارع ، وأيضا ذلك الشاب الذي يحلم بأن تتحول الشواطئ ، في فترة الصيف ، من ملاهٍ ، وسنانير لاصطياد الغرائز ، إلى بؤر للمعرفة ، ومتعة القراءة .

المعرفة والمعرفة المعلبة

خلال محاولاتي المستمرة لمتابعة الشأن الكتابي والقرائي معا، على مدى سنوات طويلة، انتبهت إلى أن هناك قراء كثيرين لا يمكن تصنيفهم على أنهم قراء يداومون على قراءة القصص أو الروايات، أو الكتب الإبداعية عامة، لأن بعضهم يعترف صراحة بأنه لم يقرأ كتابا إبداعيا من قبل، واعدا بأنه سيحاول فعل ذلك مستقبلا.

لكن بالرغم من ذلك تجد هؤلاء القراء يتحدثون كثيرا عن القصة والرواية، عن التجارب الأولى والحديثة للكتاب، وأسماء أهم الكتاب عالميا وعربيا وما أنتجوا، وتكتشف بعد ذلك أنهم متابعون لتلك الكتب التي تهتم بالتنظير الكتابي، سواء كان تنظيرا أكاديميا يسطره أساتذة جامعيون بعد أبحاث جادة تستغرق وقتا، أو تنظيرا ناتجا من تجارب إبداعية كبرى عمد أصحابها إلى صناعة حوار مواز بينهم وبين القراء، في شكل كتب مختلفة الأحجام، تخبر القارئ المهتم عن بعض المحطات المهمة التي يمر بها الكاتب قبل أن ينضج وينتشر، وبعض العقبات الكبرى والصغرى للكتابة التي قد يواجهها.

وأيضا ربما يوجد ثمة مطبخ إبداعي ، يتم عرض خاماته التي تستخدم ، وناره السريعة أو الهادئة التي سيتم بها إنضاج النصوص .

من تلك الكتب المتداولة ، والتي يهواها الكثيرون كما قلت ، ويتخذون منها متكأ معرفيا يختالون به وسط موقدي الثقافة ، ومستهلكيها على حد سواء ؛ كتاب لغابرييل غارسيا ماركيز يتحدث فيه عن كيفية كتابة رواية .

الكتاب -بلا شك- ينطلق من تجربة كبيرة وراسخة ورائدة أيضا في فن الواقعية السحرية . لكن العنوان يبدو لي خادعا ، فلا أحد في الواقع يستطيع أن يعرف كيف تُكتب الرواية ، إذا لم يغلق كل الكتب التي تدعي تلقينه ذلك ، ويمشي بنفسه في الدرب ، رافعا رأسه الإبداعي ، ورافعا عصا من الإرادة الحرة يهش بها كل المعوقات .

أيضا يوجد كتاب في هذا الشأن لماريو فارغاس يوسا كما أذكر ، وهو عن تجاربه الأولى أيام كان يافعا في العمر والتجربة ، وربما يجد فيه القارئ ضوءا ما أو إشارة ما ، أو لمحات ممتعة عن الكتابة وشجونها ، لكنه لن يكون معلما جيدا لمن أراد أن يكتب شيئا ، وينتظر بحماسة أن يتعلم من ذلك الكتاب .

كما أعتقد أن الإيطالي الكبير أمبرتو إيكو كتب أيضا كتابا مثل هذا ، وكتب التركي أورهان باموق مقالات كثيرة جمعت في كتابه السيري «ألوان أخرى» ، وكانت عن أجوائه وطقوسه ،

وأهم المحطات التي استزاد فيها بالمعرفة، ومن أين رضعت تجربته حتى استوى عودها وأوصلته إلى نوبل.

وهناك أيضا من كتب في الآداب العربية لمحات من تجربته مثل جمال الغيطاني، وهناك من يكتب مقالات منتظمة عن الكتابة، ذاكرا فيها خيرها وشرها، متى تشرق؟ ومتى تغيب؟ وهكذا.

يحاول القارئ الذي يتداول هذه الكتب التي تكتب غالبا بسلاسة وبلا أي تعقيد أدبي أو فلسفي، التفاعل مع قرّاء الروايات ولا يملك صبرا أو مزاجا لقراءة الروايات، فيجد مداخل يتحدث بها، بعد استعارتها من هذه الكتب، أو من مقالات لكاتب ما، ويبدو وسط الجميع ملما بكل شيء.

هذا القارئ الذي ذكرته يود -في الغالب- هو نفسه لو كتب، ولا يلوح له أي مدخل للكتابة، ويظن خيرا في كتاب ألفه واحد من المبدعين يرصد فيه تجربة أو يضع حلولا لمحاولي الكتابة، كي يقتفوا أثرها كما فعل غارسيا ماركيز، ولا أظنها كانت لفتة بارعة من صاحب اللفتات البارعة أبدا.

فالذي تعلمه ماركيز كثير جدا، ومقلق جدا، لو أراد أحد آخر أن يتعلمه أو يفتح وعيه ويتلقاه من ذلك الكتاب، فأفضل ما في المعرفة كما أعتقد دائما هو أن تتلقاها من دون أن تدري أنها معرفة، أي أن تقرأ روايات من كتبوا روايات في كل الأجيال، أن تقرأ القصائد بكل مدارسها وأطيافها، أن تقرأ

كتب الطب والحكمة والتاريخ والتراث ، أن تقرأ ماركيز مبدعا في «الحب في زمن الكوليرا» ، لا منظرا في كتابه التنظيري ، وفارغاس يوسا مبدعا في «حفلة التيس» ، لا منظرا يهندس تجربته ، ولن يُسمح للآخرين بهندسة تجاربهم مثلها .

وهكذا يُفضّل أن تقرأ أدونيس شاعرا لا صاحب نظريات في الشعر ، وأن تقرأ الكتب التنظيرية بإحساس من يقرأ عملا أدبيا كاملا ، وأن لا تترك مجالا للاحتكاك بذوي التجارب الجيدة والناجحة إلا توغلت فيه .

وبالإضافة لموهبة الكتابة ، تتشكل في اللاوعي دروب مضاءة بعنف ، تستطيع أن تمضي فيها وأنت مغمض العينين ، نحو نجاح أكيد .

لقد سألني أحد الزملاء مرة عن رأيي في تلك المقولات التي يتناقلها الناس عن كتاب وفلاسفة وشعراء ، ويزينون بها حوائطهم في مواقع التواصل ، أو يتخذونها مقدمات لنصوصهم الإبداعية ، فقلت له إنني لا أعترض على صاحب تجربة أن يدون لمحات من تجربته في عبارات مقتضبة ، لكن في النهاية هذه العبارات تخص من يطلقها ولا يمكن اعتبارها عظات للآخرين ولا فوانيس أو شموعا في ليالي الآخرين المظلمة .

من يشبّه الكتابة بالمجرة البعيدة ، والقلم بالضوء الباهر ، والمرأة بالصندوق السحري الغامض ، أو العنكبوت ، يفعل ذلك بتجاربه الذاتية ولن يلزمني باتباع شيء أو بأخذ عبارته

ووضعها على الصفحة الأولى لكتابي كمفتتح له .

إذن وبعيدا عن اصطياد المعرفة المعلبة أو الجاهزة من مطابخ الآخرين ، دعونا نستلهم معرفتنا مما أنتجه هؤلاء المبدعون وغيرهم من العلماء والفلاسفة ، وحتى المجتهدين في الدين . وإن قرأنا كتبهم المعلّبة ، فلنقرأها بعيون وأنفاس تتذوق الإبداع .

كتب المبدعين

من الكتب التي أعتبرها مشوقة جدا ، وتكسر الملل الذي ينشأ أحيانا من القراءة المتواصلة للإبداع من شعر ونثر تلك التي تتحدث عن حياة المبدعين من التي إما يكتبونها بأنفسهم في شكل مقال طويل ، أو عدة مقالات ، أو يكتبها أشخاص كانوا لصيقين بهم لفترة من الزمن .

هنا لا أعني السيرة الذاتية الكاملة التي تمثل حياة المبدع في شتى صورها فهي معروفة ومنتشرة ، وإنما التي لها علاقة بالقراءة والكتابة ، أي كيف كان يفكر ذلك المبدع؟ ماذا قرأ وكيف كان ينتقي النصوص التي سيقرأها؟ وماذا تحوي مكتبته بخلاف المكتبات المألوفة لهواة القراءة؟ وما رأيه في المبدعين الآخرين الذين عاصروه أو سبقوه أو أتوا بعده؟

من الكتب التي استهوتني في هذا المجال ما كتبه التركي أورهان باموق في كتابه «ألوان أخرى» ، وهو حقيقة تجميع لما كتبه باموق من مقالات منذ بداياته وحتى أصبح نجما إبداعيا حاصلا على نوبل الآداب .

هنا لا نجد سيرة كبيرة لإسطنبول التي اعتاد باموق أن

يجعلها رصيفا أو متكأ وارفا لذكرياته، ذلك أن الكتاب يخص الأدب وحده، وقد حمل مجموعة قراءات شيقة لآثار كتاب معلمين مثل البيروفي يوسا، والروسي ديستوفسكي، وكافكا بالطبع الذي كان ولا يزال معلما كبيرا لشتى أجيال الكتابة، ويعد عمله «المسخ» من أجلّ ما كتب في الأدب.

أيضا تحدث باموق عن كيفية قراءته للنصوص، وكيفية الاستعداد لكتابة نص، وماذا تمثل المكتبة لديه، والشارع لديه، والسفر الذي تعرف إلى سكته مبكرا بحكم إقامة والده في أوروبا، ولعل الآراء التي ذكرها في الكتابة والكتاب وبينت مواضع افتتانه ومواضع استيائه هي التي تجعل كتابه عملا حرا ومطلوبا للقراءة بشدة.

كتاب السيرة الذي كتبه البروفيسور البريطاني جيرالد مارتن عن ماركيز يبدو أكثر قربا للآراء الأدبية من كتاب ماركيز الشخصي «عشناها لنرويها»، ذلك أن ماركيز كتب سيرته كاملة منذ بداية حياته في تلك القرية الكاريبية من قرى كولومبيا وحتى أصبح علما أدبيا كبيرا.

لكن جيرالد مارتن -الذي قضى سنوات طويلة ينبش في حياة ماركيز، ويقترب منه ويبتعد وثق لقراءاته المتنوعة، وتأثير الآخرين فيه، وكيف كان يقرأ أو يكتب، وعن فترة وجوده في أوروبا صحفيا مراسلا لإحدى الصحف في بلاده، أو مشردا بعد ذلك- سيسير في سكة لا يدري أنها ستوصله للمجد.

لقد أحسست وأنا أقرأ كتاب مارتن بأنني أعرف ماركيز فعلا ، أعرفه كقارئ مشارك للقراء الآخرين في اكتشافه للأدباء ونصوصهم ، وأعرفه كاتبا مبتدئا ، يطرق سكك النشر ولا يجد استجابات كبيرة ، والأهم من ذلك أعرفه مبدعا لن ييأس ، وهو يحمل ثقة كبيرة أنه يقدم شيئا جديرا بالوقوف عنده .

أتحدث الآن عن كتاب الأرجنتيني ألبرتو مانغويل الذي سماه «مع بورخيس» وأصدرته دار الساقي من ضمن ما تصدره من كتب عظيمة تخص القراءة ، خاصة لمانغويل الذي نعتبره أحد أهم أساتذة علم القراءة ، وقد وثق لتاريخ القراءة في كتاب عظيم ، وتحدث عن المكتبات بوعي كبير ، وكان مبهرا في محاضراته التي يلقيها في جميع أنحاء العالم .

«مع بورخيس» كتاب يتحدث عن فترة عدة سنوات من منتصف ستينيات القرن الماضي قضاها مانغويل في بوينس آيرس قريبا جدا من المعلم بورخيس ، وكان يقرأ له الكتب في شقته بعد أن فقد بورخيس بصره إثر مرض وراثي يتنقل في العائلة .

الكتاب يطلعنا على ممارسات لا نعرفها عن بورخيس ، ويملأ فراغات كثيرة كانت ممددة في معرفتنا بذلك الكاتب والشاعر العالمي العظيم الذي لم تختلف مكتبته كثيرا عن مكتبات عامة الناس من حيث مساحتها المتواضعة ، ووجودها في الزوايا المهملة من شقة صغيرة كان الكاتب يقيم فيها مع

أمه وخادمة، لكنها تختلف من الناحية النوعية، أي أنها تحوي كتبا مهمة للغاية، وكيف أن بورخيس كان مهتما بإبداع غيره أكثر من إبداعه.

كان يملك طبعات عدة لكتب بعينها لجيمس جويس، وإليوت، وعدد من الكتاب والشعراء المهمين عالميا، بينما لا يوجد كتاب واحد يحمل اسمه، كان يفخر بأن الأسماء الموجودة في مكتبته هي التي تسند المكتبة، ولا حاجة لوجود اسمه بينها.

كذلك تعرض مانغويل لمسألة الذكاء المعرفي عند بورخيس، فهو على الرغم من أنه كان أعمى فإنه لم يفقد معرفته بالكتب أبدا.

كان يتحسس رفوف المكتبات التي كان يرتادها سابقا قبل أن يفقد بصره، ينتقي كتبا معينة، يتعرف إليها بإحساسه كما يقول، وفي مكتبته الخاصة كان يعثر على الكتاب الذي يريده بسهولة ليلتقطه، ويمرره للشخص الذي سيقرأ له في ذلك اليوم.

ولأن مانغويل -الشاب آنذاك الذي التقطه بورخيس من عمله في مكتبة كبرى في العاصمة كان يرتادها- هو الذي يقرأ له بعد أن كبرت أمه ولم تعد تستطيع أن تقرأ له كثيرا فقد أتيح له أن يلم بالطقوس القرائية والكتابية لذلك المبدع الاستثنائي.

وقد ذكر مانغويل أن بورخيس كان يكتب نصوصه في

ذهنه ، ويقوم بتصحيحها أيضا ، وتعديل بعض فقراتها ، وحين يقوم بإملائها على أحد تكون في صورتها النهائية .

من الأشياء الرائعة التي أعجبتني في سلوك بورخيس واهتمامه بالكتابة والقراءة -بلا أي زيادات أو بحث عن الترف- أنه تلقى نسخة من أحد كتبه المترجمة للألمانية ، وقد جعلها الناشر في غلاف سميك مزخرف وموشاة بخيوط من الذهب تقديرا له ، فاستلمها بورخيس وعرف شكل الكتاب فردد أن الناشر حوله من كتاب إلى حلية ، ثم قام بإهدائه لساعي البريد الذي جاء به .

كتاب «مع بورخيس» جميل فعلا ومعرفي إلى أقصى حد ، ومحتشد على الرغم من قصره بمواقف كثيرة تستحق تأملها في حياة واحد من الذين اخترعتهم الكتابة الجيدة ، وأخلصوا لها ، وكان شيئا مبهجا أن تقرأ عن خورخي لويس بورخيس بقلم ألبرتو مانغويل أحد أساتذة المعرفة المطلوبين بشدة هذه الأيام .

أدب إسكندنافي

اطلعت مؤخرا على رواية «المئوي الذي هبط من النافذة واختفى» للكاتب السويدي يوناس يونسون، وكانت من الروايات التي صادفت هوى لدى القراء في مختلف أنحاء العالم، وصدرت ترجمتها العربية من دار المنى، في سعيها الحثيث للتعريف بالأدب الإسكندنافي، ولا بد من الإشارة إلى رواية «عالم صوفي» الشهيرة، للنرويجي جوستاين غارنر، التي أتاحتها لنا دار المنى أيضا في ترجمة عربية.

رواية يوناس، تبدو ذكية في اختيارها لبطل عاش مئة عام بخيرها وشرها، وفر من نافذة بيت المسنين وهم يجهزون ليحتفلوا بعيد ميلاده المئة، بحضور زملائه المسنين، وإدارة البيت، ومسؤولين من السلطة المحلية لمقاطعته.

فعبر بطل بهذا العمر الوارف، يمكن للكاتب أن يتنفس بعمق في كل سطر وكل صفحة، كما يمكنه أن يكتب الأحداث الكبيرة والصغيرة، أن يكتب الزلازل والعواصف والفيضانات، إن حدثت، ولا بد وأنها حدثت في سنة ما من تلك المئة، وأيضا يكتب أشياء صغيرة مثل الابتسامات على

الشفاه ، والدموع على العيون ، والخطوات المكسرة وهي تبحث عن درب .

ولأن الرواية مشهورة بشدة وقرأها الملايين حول العالم ، وبلغات بلغت الخمسين ، فقد توقعت أن أحظى فيها بمتعة كبيرة ، وأحصل على معرفة لم تكن عندي .

الرواية مليئة بالمعرفة ، التصقت فيها حياة ألن المئوي بمئات الحوادث ، وفيها ما غيّر وجه التاريخ ، مثل الثورات الروسية ضد حكم القياصرة ، وظهور الاشتراكية اللينينية ، والحرب الكورية ، والحرب العالمية الثانية ، وحتى حرب الشرق الأوسط .

ولم يترك المؤلف شخصية رئيسة أو ثانوية ، إلا دخل في أعماق تفاصيلها ، وخرج بشيء كتبه .

ففي حين كان ألن -الذي عمل في صباه المبكر في شركة ديناميت ، ثم أنشأ معمله الخاص لصناعة الديناميت- منهمكا في حياته السابقة والحالية ، بعد أن فر من النافذة واختفى ، نعثر على حياة كاملة لأبيه الذي فُصل من العمل بسكة الحديد بسبب عنفه ، ثم هاجر إلى روسيا لينخرط في الاشتراكية ، وبعدها يموت بسبب استيلائه على قطعة أرض سماها جمهوريته الخاصة ، وأعلن استقلالها عن روسيا .

كما نجد حياة أمه التي كافحت لتعوله بعد سفر والده ، وماتت بالسل تاركة ديونا لدى تاجر في المقاطعة ، ثم نقرأ عن حيوات كثيرة لرجال ونساء يظهرون ويختفون ، ولدرجة أن

التفاصيل المتعلقة بحياة كل داخل في النص وخارج منه تغدو -مع مرور الوقت- عبئا قد يحاول القارئ تجاوزه بالفرار من بعض الصفحات .

لقد قيل عن هذه الرواية إنها كتبت بطريقة الكوميديا السوداء ، أي كتابة المأساة بقلم ضاحك ، وقراءتها بعيون تضحك أو تبتسم ، ولذلك سيجد القارئ نفسه منساقا وراءها حاملا ابتسامته إلى نهايتها .

وبالرغم من أنني قرأت النص العربي ، إلا أن المترجم كان -كما يبدو- بارعا في نقل بهارات النص التي كتبت باللغة الأصلية ، فهناك مئات الجمل التي تثير الدهشة والإعجاب في حوارات ألن والذين يصادفهم ، أو في السرد نفسه ، واللغة جيدة بما يكفي ليردد القارئ في النهاية أنه استمتع بهذا النص ، ويود أن يقرأ لهذا الكاتب مرة أخرى .

شيء آخر أعتبره من ضمن مخصصات أسلوب الواقعية السحرية ، وهو كتابة الدهشة كأنها لا دهشة ، أي كتابة مفارقة ما بوصفها شيئا حادثا ومبررا ، وهو الأسلوب الذي أعشقه شخصيا ، وأعتمد عليه في كثير من كتاباتي .

فحين يجد القارئ بطلا مثل ألن يعيش في إحدى مقاطعات السويد ، مسؤولا عن صراع بين الاشتراكية والرأسمالية ، مثلا ، أو اندلاع حرب قبلية في مكان ما ، فلا بد أن يندهش ، لكنّ صيغة الكتابة تحيل الدهشة غير المصدقة إلى

دهشة مصدقة لكل حرف قيل .

«المئوي الذي هبط من النافذة واختفى» تضيف كثيرا لمكتبة الرواية العالمية ، وبوصفها أدبا إسكندنافيا ، تؤكد ثبات ذلك الأدب ومنهجيته ، واحتلاله مكانة جيدة في نفوس القراء .

لقد كانت «عالم صوفي» المكتوبة عام ١٩٩١ مدخلا ممتازا ليتعرف القارئ البعيد على أدب أوروبي غير متداول كثيرا ، وقد حكت حوارات الطفلة صوفي والمفكر الذي يراسلها ، كل تاريخ الفلسفة تقريبا ، ودخلت في مجال روايات المعرفة المهمة ، وكانت ممتعة برغم تعرضها لمادة خالية تقريبا من الإمتاع .

وظهرت أيضا عام ٢٠٠٥ أولى روايات الصحفي السويدي الراحل إستيغ لارسن ، من ثلاثيته «ثلاثية القرن» ، بعنوان «الفتاة ذات وشم التنين» ، بعد وفاته بعام ، وكان قد كتب تلك الروايات ولم ينشرها في حياته ، لتصبح وبسرعة كبيرة ، أهم روايات الإثارة في العالم ، وكانت بوابة كبرى اقتحم بها الأدب الإسكندنافي حصون الآداب العالمية ، ثم تعاقب نشر الثلاثية ، وحظيت بالحظ نفسه ، وتحولت إلى أعمال سينمائية ، ذات جمهور عريض .

وقد قرأت العام الماضي إحدى هذه الروايات الثلاث ، وكانت كما يجب أن يتوقع القارئ لكاتب يحكي عن الجريمة . والآن ومن منشورات دار المنى أيضا توجد رواية اسمها «تعال

لنسرق الخيول» ، حاصلة على جوائز عدة ، وتبدو مغرية بالقراءة .

كنت عبّرت منذ فترة عن اقتناعي بأن الآداب في العالم جميعها تتشابه ، بمعنى أن الفكرة التي قد تخطر لكاتب عربي في بلد عربي ، يمكن في اللحظة نفسها أن تخطر على بال كاتب أميركي أو مكسيكي .

فالذي يحب فتاة في رواية مصرية تتعطر بعطر كوكو شانيل ، سيكون هناك ثمة شبيه له في فنزويلا ، يحب فتاة بمقاييس الجمال نفسها ، تضع العطر ذاته .

والذي تخطر له فكرة انتحار سائق عربة أجرة في الخرطوم بسبب أن امرأة جميلة حدثته عن الحب وإمكانية أن تحبه شخصيا ، سيجد من كتب هذه الفكرة عند سائق عربة أجرة ، في كوالالمبور ، مثلا .

لكن ومع توغلي في بعض الآداب الجديدة علي ، مثل الأدب الإسكندنافي والإندونيسي بعد قراءتي لرواية «عساكر قوس قزح» ، بدأت ألاحظ فروقات ما ، ربما هي ما يمنح تلك الآداب سمعة كبيرة .

كمال العيادي وشوقي بدري والحكايات

وأنا أقرأ الكتاب السِّيَري «اعترافات الفتى القيرواني» ، للكاتب التونسي المقيم في القاهرة كمال العيادي ، أحسست بمتعة أن تقرأ سيرة أصلية ، سيرة من الماضي ، بملامحها نفسها التي ولدت بها ، وتفاصيلها نفسها ، سواء أكانت دميمة أو في غاية الملاحة ، محتشمة أو عارية ، يتقبلها المتلقي أو لا يتقبلها .

ما فعله العيادي هو بالضبط ما كنت أنادي به دائما ، أي أن تكتب السيرة الذاتية -أو بعضها- لأي مبدع في أي مجال ، كما هي أو لا تكتب أبدا ، ولطالما نوهت بسيرة الإسرائيلي عاموس عوز المذهلة المسماة «قصة عن الحب والظلام» ، وسيرة المغربي محمد شكري ، التي لم يخن فيها تاريخه الشخصي أبدا ، وكتبه كما هو .

كتب العيادي اعترافاته بطريقة بسيطة ، سلسة ، وجاذبة للقراءة ، ولا أعلم إن كانت الأسماء التي أوردها لشخصيات الحكايات أصلية أيضا أم لا ، لكن عموما تكفي الوقائع التي انغمست فيها تلك الشخصيات ، لتجعل النصوص بديعة في العري ، وقريبة من التذوق ، حين يبحث وراء كتابة الكتاب .

العيادي القيرواني ، كما أعرفه شخصيا ، من الذين انتبهوا إلى جرثومة الكتابة في دمهم مبكرا ، وبالتالي تمكن من تدريب ذاكرته جيدا على امتصاص الحوادث التي وقعت ، وعاصرها ، حتى وهو طفل قليل الوعي .

ولأن الكتابة السيرية والروائية في مجملها تفاصيل صغيرة لأحداث كبرى ، تستدعى بواسطة ذهن يحملها عبر السنوات ، فغالبا ما تأتي هكذا سلسة بلا عناء .

استوقفتني في اعترافات القيرواني عدة حكايات ، منها ما يمكن ضمه إلى ذلك النوع من الحكايات التي ترتبط بالخرافة ، وتترسب في الذهن الجمعي للقرى والأحياء الشعبية من المدن ، مثل حكاية البيت الذي قُتلت فيه امرأتان وسبع فتيات صغيرات ، بواسطة زوج إحدى المرأتين لأنها تنجب الإناث فقط ، وأصبح من المستحيل أن يسكن فيه أحد بعد ذلك ، لأن الأرواح الهائمة للقتيلات كانت موجودة ، وتتحاوم في البيت طاردة منه كل دخيل .

إنها قصة موجودة في كل المجتمعات ، وحتى في المجتمعات الأوروبية ، حيث يظل السحر وتسكع الأرواح المرهقة في بيوت الجرائم موضوعا أثيرا للحكي والكتابة . هنا يضيف إليها العيادي بهاره الجميل لتبدو حقيقية فعلا .

وكتب العيادي أيضا عن نساء عبرن بحياة الكاتب وكن جارات في الحي الذي يسكنه ، أو معلمات في المدارس ،

درسنه المواد العلمية ، أو حتى عابرات في الطرق أو المؤتمرات التي تواجدن فيها مع الكاتب .

ثمة التقاط لحالات إنسانية فيها الكثير من الضعف الإنساني والقليل من الشر ، وحتى اللائي يصفهن بالعهر والانحراف والدمار الأخلاقي يبدون لي مجرد نساء عاديات ، يمكن أن يعشن بطهر في أي مجتمع يمنحنهن ظلا وارفا .

إذن كان ثمة إخلاص متقن لعنصر الحكي في اعترافات الفتى القيرواني ، ذلك الحكي الذي يستدعي في معظمه حيا من أحياء القيروان في سبعينيات القرن الماضي ، وما جاوره ، ليصوغه تلك الصياغة المتقنة .

كتاب العيادي ذكرني بكتاب آخر لحكّاء عظيم طالما نوهت به . الحكاء السوداني المخضرم شوقي بدري صاحب كتاب «حكاوي أم درمان» ، الذي أعده أحد أعظم الكتب التي صاغت تاريخ مدينة عريقة مثل أم درمان ، بلا تكلف ولا مكياج ، ولا محاولات تزيين لن تغير شيئا .

شوقي هنا لم يكتف بحي كان يسكنه ، ولا مدارس ارتادها فقط ، لكنه زحف بملقطه وعدساته المكبرة إلى كل المدينة ، بحيث يمكن اعتبار حكاياته مصادر هامة لقراءة جزء من سودان الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن الماضي ، قراءته في فقره وغناه ، اضطرابه في تظاهرات عنيفة ، واستقراره ، وأيضا قراءة حياته الاجتماعية الشاملة ، تلك التي

تحدث في البيوت والشوارع والأندية ، والأسواق ، وكل مكان يتسع لاختلاط البشر .

هذا الحكاء -وأعني شوقي بدري- يملك ذاكرة الطين الحقيقية ، تلك التي ارتوت واحتفظت بارتوائها كاملا ، لتدلق منه قطرات ممتعة بين الحين والآخر ، وليتجمع كثير من تلك القطرات في كتاب الحكاوي المعروف .

وحين أقرأ واحدة من تلك الحكايات وبذلك الأسلوب الشبيه بأسلوب الجدات الحكيمات ، أحس بامتلاء غريب ، بأنني شربت «كوكتيل» معنويا سلسا ، وأنني على وشك أن أكتب شيئا جديدا داخل نص أعمل عليه ، وغالبا ما أكتب ذلك الشيء بالفعل .

في تلك الحكايات الراصدة الشبيهة بحكايات الفتى القيرواني ، مع اختلاف البيئة والتقنية بالطبع ، يمكن أن تعثر على كشك لبيع الليمون في أحد الشوارع الضيقة جرت أمامه مشاجرة عنيفة في منتصف الستينيات من القرن الماضي ، واحتفظت بها الذاكرة ، لتستعيدها بكل تفاصيلها .

كما تحتفظ الذاكرة بحوادث لص عملاق وذكي اسمه «الظل» ، مثلا ، أو برسيم أو تمساح الشوارع ، سرق مواطنا ريفيا قادما من إحدى قرى الوسط أو الشمال ، ثم رق لحاله ، وأعاد إليه ما سرقه .

وأيضا نعثر بسهولة على آبار للشرب كانت موجودة

ودفنت ، وبنات هوى بأسمائهن ، امتلكت النزوات ذات يوم ، واندثرت تجارتهن ، وهذا إمتاع كبير ، واستعادة للتاريخ بلا جفاف يمنع من القراءة .

الأسماء التي يوردها شوقي بدري ، مثل تلك التي يوردها كمال العيادي ، مهما كانت حقيقية أو غير حقيقية ، تصلح بصورة كبيرة لتوظف في نصوص روائية ، نعم فبعض الأسماء تبدو فخاخا لجذب الكتاب الروائيين إليها ، وبعض الأسماء لا توحي بأي شيء .

أخيرا ، لا بد من الإشارة إلى ما أسميه «سلطة الحكي» التي تمتلك مزاج القراءة ، في كتاب وصفه كاتبه بأنه من السيرة .

هنا لا بد من حقائق تجاورها حقائق وتتبعها حقائق ، فإحساس القارئ بأنه يقرأ الحقيقة ، مهم جدا لنجاح سير المبدعين . أما الخيال ، فإن أراد أحد توظيفه فليكتب رواية ، وسيدخلها القارئ بوصفها عملا من الخيال ويستمتع بها بطريقة أخرى .

عن حياة الكتابة وموتها

سئلت مرة عما طرحه الكاتب النرويجي ديفد شيلدس في كتابه «جوع الواقع» بما سماه موت الرواية ، وأن الرواية بالفعل تحتضر في حبكتها ومواضيعها وأساليبها ، وأن على الكتّاب أن يكفوا عن التخيل والكتابة .

حقيقة لم أقرأ كتاب شيلدس هذا ، وقد سمعت عنه من قبل من أحد أولئك الذين يهوون تجميع نظريات الكتابة وتجارب بعض الكتاب المهمين ودراستها ، على أمل أن توحي لهم بما يكتبونه ، وغالبا ما يكون هؤلاء عشاقا للإبداع ولكنهم لم يستطيعوا أن يغذوه بحرف واحد .

وحقيقة منذ عرف الناس الإبداع عرفوا مضاداته وأساليب إحباط المجيدين فيه ، فدائما ما يوجد نقد غير منصف وشرس يطال عملا رائعا ، لا لشيء سوى أنه لا بد من وجود هذا النوع من النقد والتهجم .

دائما ما يوجد كتاب ناجح جدا تتراكض أخبار نجاحه إلى الصحف والمجلات ، وخلفه حجارة من الإفشال تركض أيضا محاولة إيقاف نجاحه .

وأحيانا حتى في اللقاءات المباشرة بين المبدع الحقيقي وجمهوره في فعالية ما أو ندوة أو محاضرة هناك من يستمع إلى المبدع بشغف ويلقي إليه بوردة ، وهناك من جاء يحمل طوبة بداخله ، وحتما سيقوم بإلقائها في أي لحظة بغض النظر عما إذا كان ما سمعه يستحق المتابعة أم لا؟

في بداياتي ، كنت حساسا جدا لمسألة الورد والطوب هذه ، فقد كنا نلقي الشعر في المهرجانات ونسمع ما يسرنا وما يجعلنا نتمنى لو لم نكتب حرفا على الإطلاق .

وأذكر أيام كنت طالبا في مصر ، كان هناك ثلاثة أشخاص يتبعونني في كل فعالية أشارك فيها ويقفون ليسبوا ما قدمته ويذهبون .

كنت أعاني حقيقة ، وأتوعد نفسي بمعاقبتها إن كتبت مرة أخرى ، وتنزاح فترة المعاناة لأعود للكتابة مجددا ، وبمرور الزمن لم تعد مضادات الكتابة تخترق إحساسي كثيرا ، واعتدت على سماع الجيد وغيره ، وأصبح لي مطاردون أكثر شراسة سهلت مهمتهم سهولة الاتصال في زمن حقق فيه الاتصال ما لم يحققه مجال آخر .

وهذا لا ينطبق عليّ وحدي ولكن على كل من حاول أن يقدم شيئا فنجح وأخفق ، وكان من الواجب إن نجح أحد أن يتم تشجيعه ، وإن أخفق أن تتم مساعدته حتى يعبر إلى النجاح .

أعود إلى مسألة احتضار الرواية واقترابها من الموت ، وأن لا حياة لمن يكتبها ، وأجزم بأن ذلك كله تنظيرات استهلاكية لا علاقة لها بالواقع الذي هو أكبر وأعمق ، هي نظريات تطرب البعض عند سماعها وتداولها لكنها تقدم فرضيات ولا تقدم براهين جيدة وأكيدة على تلك الفرضيات .

من السهل جدا الادعاء بأن الخيال لم يعد قادرا على استيعاب الفن ، ومن واجب الفن أن يبحث عن مصدر إلهام آخر ، ولكن الخيال سيظل ملهما للفن ويظل الفن موجودا ومتجددا .

من السهل كتابة نظرية تقول إن الأدب السوداني مثلا استكمل دورته من ناحية الأفكار والمضامين وتوظيف الواقع ، وتوقفت كل الإضافات عن كاتب معين ، لكن تظل تلك النظرية سطورا بلا مواهب ولا أدوات جيدة تدافع بها عن نفسها أمام الأفكار والمضامين المتجاوزة التي يتسم بها الأدب السوداني كل يوم .

حتى داخل الأفكار نفسها ، بمعنى أن تكون هناك فكرة ما تم تداولها بواسطة عدة مبدعين ، يوجد اختلاف أكيد ، فكل واحد يستخدم الفكرة بطريقة معينة ، يضخها بطريقة معينة ، ويصنع لها شخوصا مختلفين كل الاختلاف عن شخوص مبدعين آخرين تناولوها .

كم مرة شاهدنا أفلاما وقرأنا روايات تتحدث عن نهاية

العالم ، أو عن المسيحية ، أو الثورة الفرنسية ، ونستمتع بكل إبداع على انفراد ، ولا نتذكر معه ذلك الذي تناول المواضيع نفسها .

وحتى داخل إبداعنا العربي توجد هذه الاختلافات الكثيرة ، وتوجد التطورات التي لن تجعل نظرية اسمها موت الرواية تأتي للتربع على تلة محبطاتنا ، وما أكثر هذه المحبطات التي تلازم الفن والإبداع في الوطن العربي!

إذن ، ماذا يفعل الكاتب المتيم بكتابته منذ زمن ، أو الذي انفتحت أمامه السبل أخيرا بعد عناء ، أو الذي سيبدأ الآن سكة الكتابة ، مغمضا عينيه عن التجارب المحبطة لمن سبقوه؟

لا شيء تقريبا ، ورأيي دائما في هذه المواقف هو أن يستمر كل من رأى أن ثمة دربا يلائمه في الحياة سائرا في هذا الدرب .

وإذا ما أراد الشخص أن يصل لهدفه مهما كان صغيرا عليه ألا يلتفت للوراء متلمسا سير من سبقوه ، عليه أن يطالع إبداعهم فقط ، ويستفيد من تجاربهم إن كانت مفيدة ، ولكن السير لا تعطي مصداقية ، ذلك أنها -خاصة في الوطن العربي- تكتب بحبر تم غسله وتطهيره بمطهرات شتى قبل أن يخط به حرف واحد إلا في حالات نادرة جدا .

لكن لا بأس من مصادقة المبدعين والتسلل إلى نقاط قوتهم والاستلهام منها ، وأعرف كتابا من الشباب يتخذون

كتابا مخضرمين أدلة وقناديل يستضيئون بها حتى يتقدموا .

الكاتب سيحيا بلا شك رغم إحباطات النظريات ، سيكتب الأفكار الجديدة والأفكار القديمة بعد معالجتها من جديد ، وتلك النظريات التي تتحدث عن الموت لا وجود لها إلا في مخيلات من ينتجونها ، ولو كانت الآداب والثقافات تموت بلا ظلال ولا امتدادات مستقبلية لدفنت كل الحضارات ، ولما أنتج العالم في كل عصر حضارة جديدة تستند إلى حضارة قديمة .

أخيرا ، تحيا الكتابة بخيرها وشرها ، وتحيا الرواية خاصة ، مهما سعى البعض لتدميرها بغزارة الإنتاج بلا موهبة ولا دراية .

طلبات

منذ عدة أشهر طلب مني ناشر مبتدئ أن أكتب له قصة ملحمية ، منتزعة من التاريخ العربي القديم ، وأن أجعلها عنيفة بقدر المستطاع ، ومليئة بالخيل والسيوف والدم ، وأن أزرع فيها بذورا صالحة لنمو التطرف الذي نرى نتائجه الآن ، في طول الوطن العربي وعرضه .

وقال هذا الناشر إنه يثق بأنني سأقوم بإنجاز المشروع الذي يعول عليه كثيرا ، في وقت قياسي .

بغضّ النظر عن المغزى التجاري لذلك الطلب ، وأنه يأتي في وقت كثر فيه الذبح والسلخ ، والتكفير والتخوين ، واندلاع الفتن هنا وهناك ، ولا بد من أعمال روائية تستقطب كل ذلك وتعيد صياغته ، أو ترصف أسبابه في أعمال تعود به إلى جذور بعيدة ؛ فإنني رفضت عرضت الناشر .

كان يمكن أن أكتب مثل هذا العمل لو أنها فكرتي التي تضغطني لأكتبها وتستولي على يومي كله من أجل أن أعمل عليها ، وقد كتبت من قبل نصوصا مشابهة لمثل هذه الفكرة ، مثل ما كتبته في توترات القبطي عام ٢٠٠٩ ، فقد كانت

مبادرتي لا مبادرة ناشر ينتظر أن يربح من عمل قسري بكل تأكيد.

لقد تحدثت من قبل عن مفهوم الكتابة كما أتصوره، في عدة مناسبات، وأذكر موضوع دكان الأفكار الذي افتتحه شخص ما، في مكان افتراضي، وعرض عليّ أن يبيعني أفكارا تصلح للكتابة بمبالغ زهيدة، وأرسل لي بالفعل نموذجا لفكرة عن رواية، تدور أحداثها على سطح القمر، وأبطالها رواد فضاء ضائعون، لكنني لم أقتنع، ولم أشتر من دكان الأفكار أي خاطرة، وأعرف أن غيري من الكتّاب الملتزمين بالكتابة، والساعين لرقيها باستمرار لن يشتروا أيضا، وستظل أفكار صاحب الدكان، مخزنة في الافتراض، حتى تنتهي صلاحيتها وتذبل، بينما يكتب الناس ما يأتيهم من أفكار دون الاعتماد على أحد.

لطالما اعتقدت -من ناحية أخرى- بأن قصدية الكتابة لا تصنع أعمالا جيدة، بالرغم من أنها طريقة متبعة لدى كثير من الكتاب المحترفين، في جميع أنحاء العالم، وينتهجها أيضا كتاب هذا الزمن ممن أرادوا الكتابة، حتى قبل أن يقرؤوا حرفا لمن سبقوهم.

قصدية الكتابة تعني استعراض عدد من الأفكار الموجودة سلفا في الواقع المعيش، واختيار إحداها، ووضع تخطيط تفصيلي لما سيحدث في البداية والوسط والنهاية، ومن هم

الشخوص الذين سيملؤون المجتمع النصي؟ وفي أي مدينة سيعيشون؟ وماذا سيفعلون حين يلتقون بعضهم؟

وهكذا يظل الكاتب أياما ، يكتب صفحات مطولة عن نص سيكتبه ، وحين يبدأ الكتابة ، يظل ملتزما بما خططه من دون أي مفاجأة دخيلة تمنحه المتعة شخصيا ، وتنزح بتلك المتعة إلى قرائه .

أنا أفضل الطريقة المفاجئة ، الطريقة التي لا تطارد الأفكار ، وإنما تجعل فخ الصيد مشرعا ، إن حامت أفكار ما حوله ، تماما كمصيدة الطيور ، أو الشرك الذي يشرعه الصيادون ، ويحرسونه .

وحين تأتي الفكرة فعلا ، تظل حرة في أن تنمو أو تضمحل ، أن تبقى أو تفر مرة أخرى . لا تخطيط بالورقة والقلم ، ولا إلحاح في التشبث بالأفكار مهما عظمت ، والنص بعدها يمضي هو الآخر حرا ، ينحت طريقه ، ويأتي بمفاجآته في أي صفحة يشاء .

من قراءاتي ، أعتقد شخصيا أن أعمالا كثيرة وعظيمة جاءت بهذه الطريقة ، وحقيقة لا أعرف ظروف كتابتها ، لكن تدفقها وسيرها في عدة طرق مختلفة ، ودخول شخصيات وخروج شخصيات أخرى يجعلني أجزم بأنها لم تأت من مطاردة وسجن للأفكار ، ولكن من استجابة الأفكار ومنحها ما تخبئه لكاتب النص .

من الأعمال التي غالبا لا تكتب بقصدية، وإنما عفوا، تلك الأعمال المعاصرة، أي التي تدور حوادثها في زمن حياة الكاتب.

هنا يوجد مجتمع مفتوح، يوجد كاتب يقيم في بيت ما، في حي ما، يوجد جيران وشوارع وأزقة، وأسواق، ويوجد وطن يضخ المعاناة أو السعادة، ولا يكون الكاتب بحاجة للي عنق الأفكار المتطايرة وإرغامها على منحه نصا.

ولطالما أحسست بالصدق في مثل هذه الأعمال، خاصة في كتابات السجون والتعذيب، وما أنتجه البعض من حصاد ثورات الربيع العربي، وليس كل ما أنتج بالطبع، لأن هناك ما لا أستطيع اعتباره نصوصا قصصية على الإطلاق.

بالنسبة للتاريخ وأفكاره، فتلك مادة أخرى، وليس كل كتاب الرواية يستطيعون اصطياد التاريخ ومفاوضته، من أجل أن يمنحهم نصا إبداعيا، فغالبا ما يتم اعتماد الوثائق الحقيقية والحوادث التي حدثت بالفعل، وتأتي المحصلة نصا تاريخيا عاديا، تجده بكل سهولة، عند مؤرخ جاد، وسيكون أفضل في الأمانة العلمية من نص كتبه روائي.

ما سيجعل التاريخ سخيا يجزل العطاء لمن يسأله، هو أن تزرع وقائع شبيهة بوقائع فترة محددة من التاريخ، بشخوصها وحيواتهم كاملة، ومنها تتم محاسبة التاريخ، أو تكريمه، وحتى لو كانت ثمة وثائق حقيقية، فلن تكون عثرة في سبيل الخيال

أن يتفقد الوقائع ويدعمها .

ولا أظن أن الشخصيات التي وردت سيرها مثلا في رواية «قلم النجار» للإسباني مانويل ريفاس -باعتبارها من ضحايا الحرب الأهلية هناك وناضلت لتموت- حقيقية ، بالرغم من أن الحرب حقيقية بالطبع ، لكن عظمة النص تجعل الأمر واقعيا جدا .

وهناك نصوص كثيرة في الأدب اللاتيني الأميركي ، تناولت رؤساء ومناضلين ومشانق وثورات ، مثل رواية «ساعي بريد نيرودا» ، عن الشاعر التشيلي بابلو نيرودا ، تناولت شخصيته وحياته ، ورغم ذلك كان الخيال فيها مستعرا وكانت من أجمل الروايات التي يمكن أن تُقرأ .

في النهاية ، ستظل الكتابة القصصية والروائية حاملة أسرارها الخاصة وخصائصها عند كل كاتب ، فمن أراد الكتابة بعفوية فسيجد أفكارا تقف معه وتسانده ، ومن أرادها بقصدية ، فسيجد أفكارا يقمعها ويجبرها على مساندته في نص ربما ينجح ، وربما لا .

ما تهبه القراءة للكتابة

منذ فترة وصلتني رسالة من قارئة كبيرة -كما وصفت نفسها- تحولت منذ فترة إلى كاتبة قصص قصيرة جدا ، لكنها لم تنشر شيئا لعدم استطاعتها الوصول إلى منبر محترم تعرض من خلاله إسهامها في الإبداع ، والآن هي بصدد التحول إلى كاتبة روائية ، وتسأل «ما الطقوس التي يجب أن يمارسها كاتب الرواية لتنجح كتابته ، وهل هناك علاقة بين ما تقرأه وما قد تكتبه؟ أي كيف تساعد القراءة في الكتابة؟»

أعتقد أن صاحبة الرسالة هذه من القليلين من كتّاب هذه الأيام الذين تذكروا أن هناك حيلة كبرى تسبق الكتابة هي حيلة القراءة ، وحيلة أخرى للذين يودون أن يصبحوا كتابا روائيين ، هي حيلة القصة ، التمرين الجيد لصياغة العبارة ، واختبار قوتها من ضعفها .

وبالطبع ، ليس كل كاتب رواية مطالبا بأن يكتب القصص سنوات قبل أن ينضم لقائمة كتاب الرواية ، فهناك من يبدأ بالشعر ، ومن يبدأ بالقصة ، ومن يبدأ مباشرة بالرواية ، ولكن بمخزون قرائي معرفي يؤهله ليكتب بحرفية وفن ، وربما ينال

جوائز كبرى من العمل الروائي الأول ، كما حدث لكثير من كتاب الغرب حين نالوا جوائز مرموقة مثل «مان بوكر» البريطانية ، و«غونكور» الفرنسية ، و«بوليتزر» الأميركية ، وهنا أيضا ثمّة من بدأ كبيرا وناضجا ، وحصل على جوائز .

وحين أتذكر العمل الأول الفذ ، تتبادر إلى ذهني رواية الهندي أرافيند أديغا «النمر الأبيض» ، وهي عصارة ميثولوجيا الهند ، وخلاصة المعرفة المطلوبة عن تقاليدها وتاريخها في أربعمائة صفحة فقط . كما ترد إلى ذهني رواية الهندية أرونداتي راي «إله الأشياء الصغيرة» ، وهي أيضا رواية عظيمة ، وجاءت بعد إلمام تام بالحيل كما أعتقد .

القارئة -صاحبة الرسالة- ضمنت رسائلها خمس قصص قصيرة جدا ، أو ومضات كما تسمى ، وهو نوع من القصص لا أقرأه عادة ، وأشبهه في أفضل حالاته باللقم غير المُشبِعة من طعام جيد .

هم يشيرون إلى اعتقال اللحظة ، واختزال الوصف ، وتقديم ذروة الحكي في ومضة ، وأنا من الذين يبحثون عن الحكي الذي يُدخلني مجتمعا ما ، أو يجعلني أجلس في الشارع ساعات ، أراقب ما يحدث حولي ، أو أطل من باب موارب على حياة عامرة ، تمور داخل بيت .

ما أحسسته وأنا أقرأ تلك الومضات هو أنها نتجت من خبرة كبيرة ، وأن ثمة تراكيب جيدة ستصنع كتابة ما إن

استُخدمت داخل نص روائي .

أما السؤال عن الطقوس المطلوبة لكاتب سيطرق باب الكتابة لتجميع الحكي المشتت ، وتضفيره في نص ، فإن الموضوع يختلف من كاتب لآخر بالتأكيد ، ومعلوم أن الكتابة بالرغم من كونها علما يمكن تدريسه للراغبين في اتخاذها مهنة ، فإنها أيضا علم بلا أدوات ثابتة ، بمعنى أن ما يفعله كاتب من أجل الإيحاء قد يدمر كاتبا آخر ويطرد الإيحاء منه إلى الأبد .

وقد وردت في ثلاثة كتب قام بإعدادها الكاتب السعودي عبد الله الداود عشرات الطقوس لكتّاب من الشرق والغرب ، وكانت شيئا مسليا أن نتعرف على طقوس كتّاب طالما أسرونا بكتابتهم .

هناك من يكتب في المقاهي وسط الضجة ، ومن ينعزل في ركن صغير في بيته ، ومن يتمشى باضطراب أثناء الكتابة ، ومن يتأنق كأنه ذاهب إلى ليلة عرسه . وهكذا تجد الفروقات جلية ، ولطالما كنت أستغرب من نفسي حين لا يأتيني الإلهام إلا في ركن صغير في مكان عام يمر به الناس ويلقون السلام ، وأرد عليهم وأنا مستمر ، لكن استغرابي زال حين تعرفت على طقوس أغرب وأكثر إثارة للدهشة ، مثل الكتابة داخل المراحيض العامة وفي السجون ، وغيرها .

وفي ما يخص سؤال «كيف تؤثر القراءة في الكتابة»؟ فأنا

أعتقد أن القراءة هي وقود الكتابة ، وما لم يكن الكاتب قارئا فلن تنضج له طبخة على الإطلاق ، وهذا ما أعرفه بمجرد قراءتي لأحدهم ، أي أستطيع أن أعرف إن كان قارئا أم لا؟

الفائدة ليست في نسخ أفكار الآخرين وتضمينها في نص ، وليست سرقة أسلوب ما واستخدامه في نص ، وإنما في اكتساب المعرفة والحيل ، فمثلا حين تقرأ «طبل الصفيح» للراحل غونتر غراس ، فأنت تدخل ألمانيا من بوابة التاريخ والجغرافيا ، وإن وردت عنها خواطر في نص تكتبه ، فهي خواطر نقية ، ومدعمة بمعرفة مكتسبة ، وليست مجرد شخبطة بلا معنى .

ونحن نقرأ قصص أميركا اللاتينية العظيمة بأقلام كتابها العظام ، نكون قد قرأنا مجتمعات كاملة بكل ما فيها من خير أو شر ، وتصبح التقنيات التي كتبت بها تلك القصص متوفرة في الذهن ونستفيد منها بلا شك .

كثيرا ما تحدثت عن كتاب «ألف ليلة وليلة» وكتاب «كليلة ودمنة» ، بوصفهما من موحيات الكتابة العظيمة ، فليست قراءتهما للتسلية وقضاء الوقت ، بل لتعلّم تفعيل الخيال من قصص تبدو واقعية جدا ، لكن الخيال يسرقها ليحلق بها بعيدا ، مثل الفتاة الجميلة التي تتحول إلى طائر ، والطائر الذي يحط على نافذة الفتاة الجميلة ويتضح أنه أمير مسحور ، وتلك البهارات الكثيرة التي ترد في كل صفحة من صفحات ذلك

الأثر الكتابي النادر، وأعني هنا «ألف ليلة وليلة» بالتحديد.

وقد نوهت إلى أننا نملك إبداعا مثل «ألف ليلة وليلة»، وأنه كان يمكن استخدام إيحاءاته، ولكن ذلك لم يحدث، وجاءنا اكتشاف تلك الكنوز داخله من الخارج، حين تم تفعيل الخيال استنادا إليه، ونجحت التجربة.

التاريخ أيضا من العلوم التي أرشحها للقراءة، كالتاريخ العربي والإسلامي الذي يهمنا جميعا، والتاريخ الخاص بكل دولة من الدول العربية، فكم من دروس سحرية يمكن انتشالها من عمق التاريخ؟ وكم من الدروس والعبر يمكن الاستفادة منها في نصوص جديدة، وكم من الشخصيات الغنية التي قد تشبه وقد لا تشبه شخصيات عهدنا الحالي.

التاريخ يمنح إيحاءاته بسخاء، سواء تلك الإيحاءات التي يهبها بالوثائق، أو تلك التي يهبها كحوادث موازية ومتخيلة، ففي الحالتين تتولد نصوص مهمة وبديعة في رأيي.

صاحبة الرسالة في الطريق الصحيح، وهي -كما يبدو- تسير على الدرب نفسه الذي سار عليه كتاب مهمون، نهلوا من ينابيع الكتابة العذبة.

القراء وخفايا الكتابة

في لقاء ودي جمعني مباشرة ببعض القراء طرحت أسئلة كثيرة تخص الشأن الإبداعي وطقوس الكتابة ، وكلها أعتبرها أسئلة موجودة دائما في ذهنية القارئ ويخاطب بها أي كاتب يلتقي به ، وهي أيضا موجودة في معظم الحوارات الصحفية التي تُجرى مع المبدعين .

فالقارئ يريد لمحة من خفايا الكاتب ، ويريد زاوية في مطبخه يتأملها ، أو غرفة في بيت كتابته نادرا ما تفتح ، ليطل داخلها لعله يعثر على شيء .

وأعتقد أن كثيرا من الكتاب والشعراء فتحوا غرفهم الخاصة ومعامل إنتاجهم في كتب أو مذكرات أصدروها ، وبذلك لم تكن طريقتهم في الكتابة خافية على أحد من القراء الذين يتابعونهم .

لكن دائما ما أسأل نفسي حين تواجهني الأسئلة الدقيقة عن خفايا كتابتي ، ماذا يستفيد القارئ إذا عرف شيئا عن خفايا الكاتب؟

بصفتي قارئا أجبت عن هذا السؤال بكل بساطة ، ولطالما

كنت في قمة الفضول -ولدرجة الهوس- لمعرفة تلك الأدوات المطبخية التي يستخدمها كتابي المفضلون في إنتاج أعمالهم ، ولا أعني هنا الثقافة أو موهبة الكتابة ، ولكن أشياء مثل الممارسات اليومية ساعة الكتابة : في أي وقت يكتبون ، كم ساعة يقضونها في ألم الكتابة ومتعتها يوميا ، وكم كلمة يخرجون بها من عراكهم اليومي؟

المسألة ليست ضرورة ملحة بقدر ما هي جزء من المحبة التي يكنها القارئ لكاتب ما ، ولطالما أحببت غابرييل ماركيز وأنطونيو غالا وأورهان باموق ، وعددا آخر من كتاب العالم والعرب ، قرأت أعمالهم عدة مرات ، وسعيت لقراءة ما كتبوه عن خفاياهم ، وخرجت بِرِيٍّ جيد للفضول دعّم من محبتي لهم وتطلعي لقراءة المزيد من الأعمال للذين ما زالوا أحياء وينتجون ، وإعادة قراءة ما أعرفه عن إنتاج الذين رحلوا منهم .

في كتاب «ألوان أخرى» لأورهان باموق كثير من الرؤى الجيدة والملامح الجميلة لعالم مترف الجمال ، وإسطنبول مدينة وهبت الإيحاء لمعظم الكتاب الأتراك قديما وحديثا ، وما زالت تهبه للعديد من الذين يكتبون هذه الأيام .

إسطنبول مدينة ساحرة فعلا ، فهي عروس مزركشة محاطة بالورد في أماكن ، وامرأة مسنة تحتضر في أماكن أخرى ، فيها لعب جغرافي ، وزخم تاريخي ، وموارد من الحنين إليها للذين يزورونها ويغادرونها ، ويستطيعون كتابتها في روايات ، وأعتقد

أنها من أكثر المدن التي عُقدت بينها وبين الروايات مصالحة ما .

باموق في كتابه تحدث كثيرا عن المدينة ، وهي جزء كبير من عالمه ، كما تحدث أيضا عن طقوسه في كتابة الروايات ، وذكر مناسبات معينة أوحت له بكتابة بعض أعماله ، وذكر أبحاثه التي أجراها من أجل أن يكتب نتائجه التي خلص إليها ، وكيف كوّن شخوصا وألغى آخرين ، وكيف أنجز في النهاية كتابا مثل «اسمي أحمر» الذي أعتبره أحد أفضل أعماله .

ولماركيز مقالات تتحدث عن علاقته بالكتابة ، وهي علاقة حميمية بالطبع وإن كان ماركيز بتواضعه الكبير يشير إليها بحماسة ليست كبيرة .

وفي السيرة التي كتبها البريطاني جيرالد مارتين -بعد أن قضى سنوات يحاور الروائي الكبير ويحاول أن يستنطقه- كثير من العوالم السحرية والتشرد الغريب الذي مارسه ماركيز ، لكنه لم يكتب تلك العوالم كلها في رواية ، وهذا ما أسميه ضغط الفكرة الذي إما أن يدفع الكاتب للكتابة وإما أن يبعده عنها .

ويحدث كثيرا أن تسيطر فكرة ما أو حادثة مرت بالكاتب أثناء حياته العادية ، لكنها لا تصبح رواية أو قصة حتى لو اكتملت أركان الكتابة فيها ، بينما تأتي خاطرة صغيرة تتمدد بغتة وتصبح رواية كبيرة ، وأحسب أن كثيرا من الأعمال

العظيمة نبتت هكذا . . أفكارا كان من الممكن أن تضيع .

وأعتقد أن الفترة التي قضاها ماركيز في باريس مراسلا لصحيفة في بلاده ، وتأرجح فيها بين الفقر والغنى والتشرد والاستقرار ، ومصادقة الجميلات وغير الجميلات كانت من الممكن أن تشرق في عمل من أعماله ، لكن هنا أيضا تأتي مسألة المحلية التي تأبى أحيانا أن تستضيف غرباء في كتابتها .

القراء يسألون دائما والصحفيون يسألون أيضا عن علاقة المهن التي يمتهنها المبدعون بكتابتهم ، ولدرجة أن أصبح هذا السؤال عالة على المبدع ، يتمنى أن يردد سريعا من طرف المحاور حتى يجيب عنه إجابة بات يحفظها .

ولكي أكون أمينا في ردي على سؤال كهذا يخترع له بعض الزملاء المهنيين من الكتاب بهارا غير حقيقي ، فإن المهنة لا علاقة لها بالكتابة أبدا ، وإنما الكتابة عبء إضافي على المهنة التي قام بدراستها الكاتب في شبابه ، مثل القضاء والمحاماة والهندسة والعمل الطبي ، وليس من حقه أن يضع لقب المهنة في إصدار أدبي ، أو يستخدم إصداراته الأدبية للترويج لمهنته .

الكتابة جرح آخر فعلا ، يولد به البعض ويُعفى البعض من آلامه ، وبعد سنوات طويلة من الكتابة يحق لي أن أقول إنها من الأشياء التي لم أكن أتمنى لو امتلكتني في يوم من الأيام .

ويسأل القارئ أيضا عن زمن إتمام الرواية مدفوعا بشعور قوي بأنه قد يصبح كاتبا ذات يوم ، أو هو يكتب بالفعل ولا يزال في مرحلة إخفاء كتابته .

السؤال هنا بلا إجابة شافية ، لأن لا عمل روائيا يشبه الآخر في خضوعه لزمن معين ، فلربما ينتهي عمل ضخم في زمن بسيط ، ولربما يستغرق عمل صغير وقتا ، وأقول إن زمن الكتابة هو الأقصر دائما في الروايات ، أقصر من زمن التفكير والبحث والتقصي الذي غالبا ما يستولي على أشهر كاملة .

عموما ، نرحب بالمحبة في شتى صورها ، المحبة التي تقرأ الإنتاج وتحتفي به ، والمحبة التي تمتلئ فضولا وتركض للبحث في الخفايا ، ولا بأس من فتح الغرف المغلقة قليلا ، وفتح نافذة في المطبخ الإبداعي لتدخل عبرها بعض النظرات الفضولية .

التقنية والأدب

بديهي أننا نعيش الآن في فترة مريحة جدا إذا ما قيست بالفترات السابقة قبل عشرين أو ثلاثين عاما، حين كانت بعض الأشياء المطلوبة في حياتنا مجرد أحلام بعيدة لا يجرؤ الحالم بها أن يحاول -مجرد محاولة- اعتبارها واقعا قد يحدث ذات يوم.

كانت الطموحات المغزولة تنسى سريعا، تماما مثل روايات الخيال العلمي، نندهش من وقائعها الغريبة، وننساها بمجرد انتهاء القراءة.

وحقيقةً منذ أن أبدع الإنسان التقنية الحديثة واخترع الشبكة العنكبوتية وطورها ببرامج تشبه الأساطير فعلا، ثم اخترع الهواتف المحمولة وطورها، والمفاجآتُ الكبرى والصغرى لا تنقطع، لدرجة أن أصبحت تلك التقنية -مع الأسف الشديد- تلعب دور السجان القديم أو الإقطاعي الذي كان يضع البشر تحت إمرته ويسخرهم لمجرد تسخيرهم في شيء.

نعم، فالتقنية الآن تسيطر وبطريقة مزعجة على معظم من تعلّم وعرف كيف يقتني أجهزة ذكية ويستخدمها، وهناك من

ترك كل شيء في حياته وتفرّغ تماما للمثول بين يدي السيد الجديد في أي لحظة يطلبه أو لا يطلبه فيها .

وبالطبع ، وبرغم استعباد التقنية للإنسان ، فإنه استفاد منها كأقصى ما تكون الفائدة ، وفي جميع المجالات التي قد تخطر بالبال والتي لا تخطر . وليس أعظم من تواصل حر ومجاني يجري بين الأفراد والجماعات، في أي زمان ومكان في الكرة الأرضية ، حيث يتم تبادل الفرح والحزن والذكريات ، والصور ونغمات الموسيقى ، وحتى الكتب والورود ، عبر برامج بسيطة في البناء ، وبسيطة في الاستخدام .

ومعروف الآن أن أشخاصا كثيرين لا يستطيعون الاستغناء عن مواقع -مثل فيسبوك وتويتر ولينكد إن- منحتهم حرية الكلام وأحاطتهم بأصدقاء لم يكونوا يستطيعون العثور عليهم في الواقع بكل تأكيد . ويعتبر برنامج «واتساب» المخصص للهواتف المحمولة صدرا كبيرا ومتسعا ، يضم كل من احتاج إلى ضم ، يُلحقه بالآخرين الذين يشبهونه ، حيث يتبادل معهم المشاعر والآراء فلا يظل وحيدا أبدا .

الأدب -كواحد من نشاطات الحياة- استفاد بجدارة من فورة التقنية ، وأصبحت الإنترنت خاصة من الركائز المستخدمة في أي نشاط أدبي منذ أن يبدأ فكرة في ذهن أحد وينتهي فعالية كبرى أو كتابا سيقرؤه الناس .

بات بإمكان الكاتب أو الشاعر مثلا طرح فكرته على

أصدقائه والحصول على نتائج وآراء في اللحظة نفسها ، وبات بالإمكان طرح الغلاف المقترح لكتاب ما لحصد الآراء أيضا وتقييمها ، وبالطبع إرسال المخطوط إلى جهة النشر ، وتلقيه للنظر فيه ، وإعادة إرساله في خطوات لن تستغرق سوى دقائق معدودة ، وكانت قبل ذلك تستغرق أسابيع وربما شهورا ، إن كان ثمة خلل في العنوان ، أو خطأ من البريد .

وما زلت أذكر روايتي الأولى «كرمكول» التي كنت -ومن أجل القيام بتلك الخطوات التي ذكرتها- أسافر لملاقاة الناشر .

وأذكر أيضا قصائدي التي نشرتها أيام الشعر ، كيف كنت أذهب لتسليمها شخصيا في مكاتب المجلات بالقاهرة ، وكنت أعيش في طنطا ، فيضيع مني يوم كامل في السفر والعودة .

كما أن الكاتب أو المبدع عموما ، وحين ينشر نصا ما ، لم يكن يعرف ماذا حدث لنصه ، وإن كان قد وصل إلى متلقين أو لم يصل ، ولعل هذا الغموض الذي يحيط بمصير النص ميزة كبرى لأن معرفة المصير غالبا محبط جدا .

أتحدث عن برنامج «سكايب» ، ذلك الساحر القدير الذي لا يشعرك بأن المسافات البعيدة قد قصرت فقط ، ولكن يمنحك الإحساس نفسه الذي تحصل عليه حين تجلس واقعيا بجوار شخص آخر وتحدثه . وأظن أن هذا البرنامج من الحيل التي يمكن عن طريقها استضافة كل مبدع في أي زمان وأي مكان ، وسط حشد من الناس ، وذلك بإلقاء محاضرة ، أو التحاور مع

الآخرين عن تجربته، أو الحديث عن عمل من أعماله، فهو لا يحتاج سوى جهاز حاسوب عند المبدع، وشاشة كبيرة مرتبطة بحاسوب آخر عند المتلقين، وبالتالي نقول إن الأدب استفاد بقوة من التقنية الحديثة.

في العام الماضي، كانت هناك مترجمة تعمل على نص لي لنقله إلى الإنجليزية، ولأن المترجم بحاجة إلى الكاتب دائما لتوضيح بعض الأشياء التي قد تستعصي عليه، وكان ذلك يتم قديما بالمراسلات التي تستغرق شهورا، فقد جلسنا ساعة واحدة عبر برنامج «سكايب» وأنجزنا معا ما كان يمكن أن يعطل مشروعا نطمح إليه لو كان ذلك يحدث في زمن آخر غير هذا الزمن.

بالقدر نفسه كانت لي منذ عدة أيام -وعبر البرنامج نفسه- ساعة من اللقاء والنقاش الحر المثمر مع عدد كبير من طلاب إحدى الجامعات الأميركية في المنطقة، حول أحد النصوص، وهذا ما ذكّرني بفضائل التقنية لكتابتها.

كنت مع الطلاب والمشرفين في القاعة -رغم بعدي آلاف الأميال- أستمع للأسئلة وأجيب عنها، وأحس بحرارة اللقاء وحماسة الطلاب في اكتساب المعرفة، ولم يكن ينقصني سوى شد الأيدي في التحية ليكون اللقاء حقيقيا يحدث في الواقع.

عموما، فضائل التقنية كثيرة في كل مجال، وحتى في

مجال الأبحاث لم يعد الباحث بحاجة إلى مكتبة واقعية يدخلها لينفض غبار الكتب بحثا عن مراجعه ، فالمكتبات الرقمية متاحة ، وكل ما تحتويه من مراجع مسخر في خدمة من كانوا محظوظين ، ولحقوا جزءا من جنون هذا العصر وأحلامه التي لم تعد أحلاما على الإطلاق .

الخيال والتقصي

أميل ومنذ أن بدأت الاشتغال بالكتابة إلى طريقة استخدام الخيال بكثافة ، واختراع أشياء ليست موجودة في الواقع ، ولكن يمكن أن توجد في أي وقت وأي مكان ، وبالتالي لا تبتعد الحكاية عن الواقع المعيش كثيرا ، وأعتقد أن هذه طريقة مشروعة في الكتابة ، ولها من يؤيدها ومن لا يؤيدها مثل أي طريقة أخرى .

أميل أيضا في القراءة إلى ما يجعلني أندهش وأستخدم خيالي ، لاهثا وراء الأحداث ، ومحاولا تخيل الواقع البديل الذي يرصده النص ، وهكذا كان عشقي الأول لتلك الكتب البديعة في رأيي مثل ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، ثم ما كتبته إبداعات أميركا اللاتينية بعد ذلك ، وما كتبه بعض الكتاب الإسبان وحتى الأميركان والآسيويين من أعمال تعتمد على الخيال بشدة ، وفي ذهني رواية للهندي حنيف قريشي تتحدث عن استبدال الجسد الشيخ بجسد شاب ، وكانت ممتعة ومحفزة إلى أقصى حد .

على أن الأمر لا يقتصر على الكتابة فقط ولكن حتى في

السينما ، فأنا أميل دائما لمشاهدة غير المألوف ، أي ما يدهشني في ساعة الفرجة ويخرجني وقد اشتعل خيالي أيضا ، ومعروف أن السينما بتقنياتها الحديثة ، استطاعت تفعيل الخيال إلى أقصى درجة ، وأنتجت لنا فيلما مثل «أفاتار» الذي تدور أحداثه في مكان ما في الكون ، وعن طريق الدخول في كبسولة فضائية ، يستطيع بطل الفيلم الانتقال إلى ذلك المكان ، والاختلاط بمواطنيه ، لدرجة أن يعشق فتاة هناك ويتزوجها ، ويناضل مع شعبها ضد الغزاة القادمين من الأرض .

طبعا لم يكن موضوع القوة الباطشة الأميركية في الفيلم هو ما شدني ، وإنما أقصد ذلك الخيال الجبار الذي يصنع لك أحداثا توهمك بأنها حقيقية ، وهي لن تحدث مطلقا إلا في خيال من كتبها ومن أنتجها وصيرها متاحة للمشاهدة .

أتحدث عن التفاعل بين القارئ لنص يشتعل بالخيال ، ومحاولات هذا القارئ إحالته إلى واقع ، وهذه المحاولات بالتأكيد لن تشمل كل القراء .

فهناك قراء -وهم الأغلبية- لا يحبون المشاركة بخيالهم في أي معضلة ، ولا يحبون أن يستفز كاتب معتقداتهم القرائية الثابتة التي اعتادوا عليها في نماذج معروفة كتبت في الماضي وأصبحت من الكلاسيكيات الآن .

وبعد التطور المذهل الذي حدث لكل شيء ، بما في ذلك فن الكتابة الروائية وكتابة السيناريو ، وغيرهما من الفنون ،

فمثلا ما زال هناك من يقرأ «العجوز والبحر» لهمنغواي بنهم، ويعتبرها النموذج الأمثل للكتابة، وهناك من يعود بلا أي تردد لمشاهدة الأفلام السينمائية التي أنتجت في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، وكانت تخلو من الخيال تماما، في فترة لم يكن للخيال أي حظ في المشاركة الإبداعية.

اخترعتُ مغنية موريتانية في أحد أعمالي، ولم يكن لها دور في النص وإنما ذكرت كاسم، وفوجئت بعشرات الرسائل من موريتانيا تسألني عن هذه المغنية التي لم يسمع بها أحد هناك.

وذكرت قارئة من هناك أن جلسة ضمت باحثين في التراث ومتخصصين في الغناء الشعبي عقدت للبحث عن المغنية ولم يُعثر عليها.

لقد اعتبرت ذلك تفاعلا جيدا مع النص، وتفعيلا لنشاط البحث، ولكن كما ذكرت، ليس كل القراء يتفاعلون مع نصوص الخيال، وأعرف قراء يمكن أن يمروا بحكاية عن قصة حب نشأت بين حجر ملقى في الطريق، وفتاة تمر بقربه يوميا، ولا يندهشون أو يحاولون التفكير عميقا في قصة غير مألوفة كتلك.

ماركيز ذكر في قصة «سفرة سعيدة سيدي الرئيس» التي تحكي عن رئيس سابق لإحدى دول أميركا اللاتينية، أنه كان مفلسا ومريضا وجاء للعلاج في أوروبا، وعثر عليه سائق سيارة

إسعاف من بلده ، وابتدأ ينسج أحابيله من حوله للحصول على شيء من ثروته ، وذكر اسم الرئيس وشيئا عن حملته الانتخابية وبعض الخيبات الشهيرة التي حدثت في عهده .

وأعتقد أن قصة كهذه لا ينبغي أن تقرأ قراءة عادية ، فلا بد من فضول يتحرك لمعرفة أي رئيس هذا ، خاصة لدى قراء من القارة اللاتينية ، حتى لو كان القارئ يعرف أنها مجرد خيال لا يخلو من الحقيقة .

في فترة من الفترات ، ومن أجل الحصول على إيحاءات أو بهارات للكتابة كما أسميها ، كنت أهتم برسائل الاحتيال التي تأتي لبريدي الإلكتروني يوميا ، وهي تغزو بريد كل متعامل مع الإنترنت ، تلك الرسائل التي تبشر الناس بأنهم ربحوا ملايين الدولارات ، وعليهم الاتصال فورا بالمرسل لإثبات الهوية ، من أجل صرف الربح ، وطبعا هو مجرد بيع للوهم .

وهناك أيضا النوع الآخر الذي يدّعي مرسله دائما أنه من الأثرياء الوارثين ، ويريد أن يغادر الدنيا نظيفا بعد اكتشافه إصابته بمرض السرطان ، وقد اختار هذا الشخص ليمنحه المال حتى يتصرف فيه كما يشاء ، بعد أن ينفق حصة منه على عمل الخير .

حقيقة معظم هذه الرسائل عادية ، فجة ، بلا أي خيال ، أو بهار يجذب قارئها للوقوع في الفخ ، وهي تكرار لبعضها بطريقة مملة ومؤسفة ، لكن تشدني في بعض نادر منها لغة جيدة أو

ذكر ما يمكن تتبعه ، تماما مثل الخيال الكتابي المحفز للمتابعة والتقصي .

وقد تلقيت مرة رسالة يقول صاحبها إنه روبرت عبد الله ، وزير النقل في حكومة إحدى الدول الأفريقية ، وسمى تلك الدولة ، وأنه كوزير يملك صلاحية أن يمنحني مشروع خط لسكة الحديد هو من سيموله ، فقط سأكون واجهة بوصفي مستثمرا أجنبيا ، وأحصل على عشرات الملايين من الدولارات .

إنها رسالة احتيال عادية ، لكن الخيال الذي صيرها صادرة من وزير حالي في حكومة بلد بعينه موجود على خريطة العالم ، حفزني للبحث ، وقضيت وقتا مضنيا ، أبحث عن أعضاء تلك الحكومة ، من رئيس وزرائها إلى أصغر وزير للدولة ، وخفق قلبي وأنا أطالع اسم وزير النقل ولم يكن روبرت عبد الله .

إذن التفاعل مع الخيال جيد ومهم فعلا ، ورغم قسوة ما يمكن أن يخرج به المتفاعل مع نص خيالي من ألم لعدم تطابق رغبته مع واقع الحال ، إلا أن مجرد تفعيل الخيال لمطاردة خيال مبدع أنتج نصا يعد إبداعا أيضا ، ودائما ما أردد ، إننا لا نحتاج لكتابة الواقع كما نعيشه ، وإنما كما نحلم به .

الفهرس

IN THE SHADOW OF WRITING

كتابات
WRITINGS

تحت ظلّ الكتابة

كنت وما زلت من الّذين تستهويهم الأسماء الغريبة، أتخيّل أصحابها شخصيّات روائيّة، وأقوم بالفعل بصياغتها، ولطالما استوحيت أسماء من أشخاص التقيتهم، أو سمعت بهم، أو حتّى تداخلوا في برامج إذاعيّة استمعت إليها مصادفةً، وما زلت أطالع رسائل الاحتيال الّتي تردُ إلى بريدي الإلكترونيّ بشغف، حيث أعثر فيها على أسماء مطلوبة لشخصيّات أفكر في كتابتها، وصادف أنّني كتبت في إحدى روايات البدايات - أو بالأحرى في روايتي الأولى - اسم سيّدةٍ كانت ذات وظيفة محدّدة داخل النصّ، وعلى الرغم من أنّ روايتي تلك لم تكن شهيرة، ولم تدخل السودان إلّا في نسخ معدودة جلبها أفراد زاروا مصر وعثروا عليها هناك، حيث لم يكن التوزيع خارقًا ومتطوّرًا مثل الآن، إلّا أنّ اسم السيّدة وصل إلى امرأة في الواقع، لم أكن أعرفها، تحمل الاسم نفسه، وتعمل في الوظيفة نفسها الّتي كتبتها في النصّ، وظلّ بعض أفراد أسرتها يطاردونني مطالبين بتعويض عمّا سبّبته لقريبتهم من حرج.

مكتبة كلّ شيء
info@kol-shee.com
www.kol-shee.com



ISBN 978-614-419-628-1
9 786144 196281